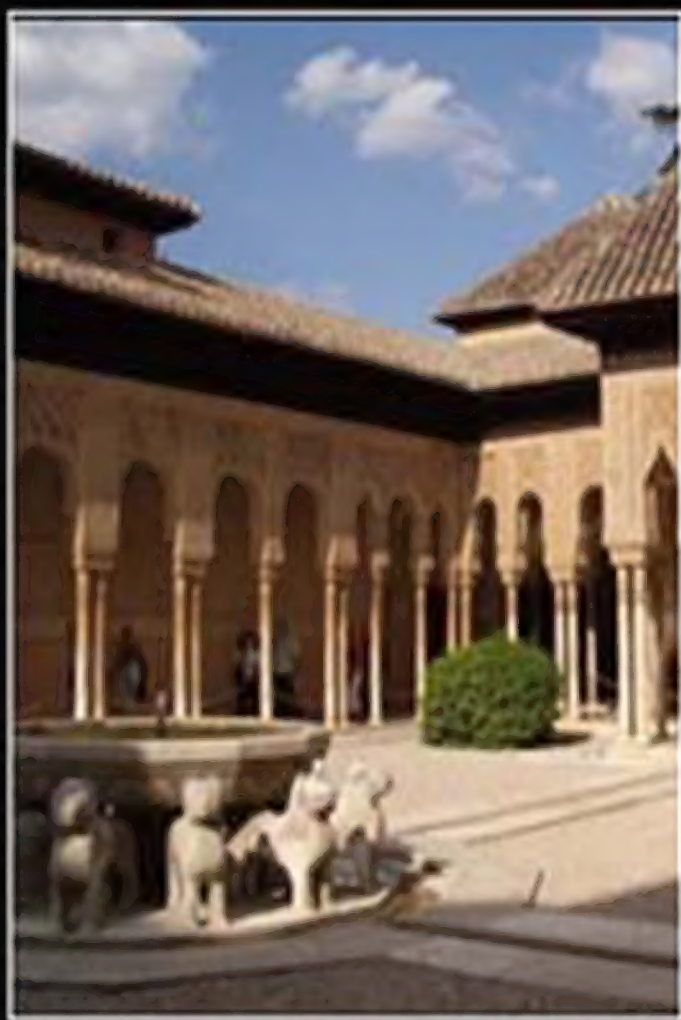


المسلمون في الأندلس



تأليف
زين كرم دوزي

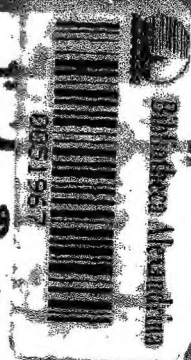
ترجمة وتعليق وتقييم
د. حسن حبشي

المسلمون في الاندلس



الجزء الأول
المسيحيون والمسلمون

مف
دوزى
وتعليق
حبشنى



HISTOIRE
DES
MUSULMANS D'ESPAGNE

JUSQU'À LA CONQUÊTE DE L'ANDALOUSIE PAR LES ALMORAVIDES

(711—1110)

PAR

R. DOZY

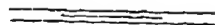
NOUVELLE ÉDITION REVUE ET MISE À JOUR

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

TOME I

(LIVRE I, LIVRE II)



LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL S.A.
LEYDE — 1932



R. P. A. DOZY
Professeur à l'Université de Leyde.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة العربية

أما بعد فهذا كتاب يتضمن فترة غير قصيرة من تاريخ أسبانيا الإسلامية منذ أن دخلها العرب حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ومجىء المرابطين ، مع الاهتمام بوجه خاص بالملك الأسطوري الشاعر المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية •

لقد ألف هذا الكتاب المستشرق الهولندي « رينهت دوزى » الذى اعتمد فيه على ما تيسر له الوقوف عليه - وهو كثير - من المصادر العربية واللاتينية والاسبانية التى عرضت كل واحدة منها لناحية معينة أو أكثر من تاريخ الاسلام فى اسبانيا والمغرب ، وقد تناول دوزى موضوع هذه المصادر بالعرض والنقد والتحليل والاستنباط ، شأنه فى ذلك شأن ما خلفه من تراث يتصل بالتاريخ الإسلامى وباللغة العربية التى كان حفياً بها حريصاً عليها حرص أخلص أبنائها حتى وضع فيها معجماً غير مسبوق اليه ولازال مرجعاً أنفاً قام به هو وحده رغم ضخامته ضخامة تنوء بها العصابة الأمجاد •

ولقد سبق أن نقلنا الى العربية القسم الأول من هذا الكتاب (١) الذى جعله مؤلفه مقدمة لبقية أقسامه ، مركزاً اهتمامه على ما شب عليه العرب فى جزيرتهم من عصبية قلبية لم يستطيعوا الفكك منها حتى بعد انطلاقهم الى عالم يومهم الجديد ، ولم تكن هذه العصبية لتخفى الا لتعود من جديد عنيفة ضارية مشبوبة الاوار تحرق ما حولها ، وتبهر الجميع حتى من اضرموها وهكذا حافظ العرب عليها لما وطأت أقدامهم التراب الأسباني حفظ الشحيح على لما له فلم يفرطوا فيها وليتهم فرطوا ، فقد كان هذا الحرص الشديد من جانبهم عليها مؤدياً الى ضياع دولتهم العظيمة ضياعاً كريها مؤلماً ، مع أن التاريخ يشهد - وهو صادق فى شهادته - أنهم بناء حضارة أكرمت الانسانية وسمت بالعقل البشرى ورفعت مكانة

(١) نشرته لنا دار المعارف بالقاهرة بعنوان « تاريخ مسلمى اسبانيا : الحروب الأهلية »

الإنسان ، وأدانت شتى نواحي الحياة السياسية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ولازالت آثارها - أو بعض آثارها - شاهدة على أنها كانت قادرة على أن تصنع التاريخ على أحسن ما يمكن أن يصنع التاريخ، لو لم تعمل العوامل الشخصية على تقويض بنيانها الشامخ، فأتاحت هذه العوامل الفرصة للحاقدين عليها وعلى المسلمين عامة أن يجدوا الثغرة التي ينفذون منها إلى ضربها وإياهم في الصميم فنفذوا وأعملوا معاول الهدم في هذه الحضارة الشامخة العظيمة ، وكان نجاح هؤلاء المتربصين بها كبيرا إذ يشهد التاريخ على أنهم كشفوا عن وجوههم الكالحة القبيحة فلم تأخذهم بها رحمة ، ولقد كان من الممكن لهذه الحضارة (التي لك أن تسميها بالعربية أو الاسلامية أو الأندلسية) أن تصارع الزمن لا أن تصرعها تطورات أحداثه لو أن بناء هذه الحضارة تأقلموا للظروف الجديدة الزمانية والمكانية مع احتفاظهم بالروح الاسلامية ، ولكنهم لم يفعلوا بسبب غفلتهم وعدم تبصرهم بالعواقب القريبة والبعيدة .

لقد قسم « دوزي » كتابه عن تاريخ مسلمي أسبانيا الذي نترجمه اليوم باسم تاريخ الأندلس إلى أربعة أقسام خص أولها - أو الجانب الأكبر منه - لما كان عليه من المنازعات العرقية ، من معدية ويمنية وقيسية وشامية وغيرها ، وأوضح كيف أن هذه المنازعات انتقلت معهم إلى أسبانيا بانتقالهم إليها عند فتحهم إياها فتحا اتسم بسرعة انتشار الاسلام هناك .

أما بقية الكتاب ، وتقع في ثلاثة أقسام فقد عرض المؤلف في أولها (وهو الذي في يد القارئ العربي الآن) لأوضاع الاسبان تحت حكم المتبريرين القوط الغربيين وما لاقوه على أيديهم من اضطهاد ، وما تحملوه من ظلم وعسف ، دون أن يحاول رجال الدين المسيحي محاولة جدية رفعه عنهم . ولم يبذلوا أي جهد في التخفيف منه عند ذوى السلطان والحكومة مما بث في نفوس الأهالي روح التذمر من أصحاب السلطة الزمنية والروحية، فتأففوا من حكامهم وساداتهم : علمانيين كانوا أو دينيين ، مما يسر الفتح على العرب الذين ما لبثوا أن صادفوا حركات داخلية مضادة تمثلت في المقاومة التي عبرت عن ذاتها في أقدام بعض النصاري على ما عرف في تاريخ الغرب بحركة الاستشهاد المسيحي لاسيما في قرطبة . وينتهي هذا القسم بعرض هذه الصورة واضحة وبعهد عبد الرحمن

ثم يتكلم المؤلف في الجزء الذي يليه عن حكم الخلفاء وظهور بعض الشخصيات من غيرهم والتي غطت على الخلفاء أنفسهم ، وليس ببعيد عن الأذهان « المنصور بن أبي عامر » الذي كسف نوره أنوار غيره وسحب البساط من تحت أقدامهم ، فكانت له تجريداته الحربية الناجحة في مواجهة

مسيحيي الشمال ، حتى أعاد للإسلام هناك بهجته وهيبته ، وللحكومة بأسها . على أنه قدر لهذه الفترة أن تتلاشى ، ولهذا البريق أن ينطفىء حين وسد الموت المنصور الثرى فأدرجت قوة الاسلام هناك معه في أكفانه .

أما القسم الأخير من هذه السلسلة التاريخية الأندلسية - وهو الثالث في تقسيمنا هذا - فقد جعله « دوزى » خاصا بتاريخ الحكام الصغار الذين خلعوا على أنفسهم من الألقاب الفخمة الطنانة ما أصبحوا معه سخرية التاريخ يوم عرض لتاريخهم وأعمالهم ، وويل لمثل هؤلاء من سخرية التاريخ فهو لا يرحم حين يفتش عما عملوا وما قدموا لأمتهم فلا يجد الا خواء مظلم ، وسرابا لا طائل منه ، وحينذاك لا ينفعهم ما كانوا ينعنون به أنفسهم من ألقاب ليسوا أهلها ، وهى براء منهم ، يخادعون بها الناس وما يخدعون الا أنفسهم ، فكانت :

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

ولقد عرف هؤلاء الأمراء أصحاب الهمم الوضيعة بملوك الطوائف فكانوا أقزاما على مسرح التاريخ الأندلسى الذى كانت تجرى يومه أحداث ضخمة فى العالم الأوروبى ، وفى الجانب الآخر من عدوة افريقية ، وقد كشفت هذه الأحداث عن باطل هؤلاء المسمون بالملوك ، فطمع فيهم كل من حولهم من قوى نصرانية واسلامية فتية خرجت من بطن الصحراء الافريقية ، ولقد بلغ ملوك الطوائف هؤلاء حدا من المهانة راحوا يستنجدون معه بأعدائهم وهم جيرانهم المحليون المسيحيون ويستعدونهم على اخوة لهم ، ثم بلغت المهانة ذروتها اذ سألوا « المرابطين » القدوم الى بلادهم نجدة لهم فكانوا شر نجدة وكانوا بثس النصير ، أما هم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فأحرقتهم ، وما كان ذلك العمل منهم الا ايدانا بانتهاء حكمهم وسقوط دويلاتهم وتمهيدا لطردهم من كل الأندلس ، والأنكى من هذا جميعه ضياع الاسلام ، ولم يستحق أحد من ملوك الطوائف أن يذكر ببعض التقدير الا المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، ويرجع الفضل فى ذلك التقدير الى أنه أقام للأدب دولة خلده . وان كانت خاتمة أسوأ خاتمة تذكى الاسى فى النفوس ، وتغص بها اللهاة ، ولا يجدى معها البكاء ولا العزاء .

ولم يقف جهد « دوزى » عند عرض تاريخ هذه الحقبة الطويلة بل كان يعمد الى التحليل والنقد والاستنباط والتعرض بالبحث لكل فترة وللظروف البيئية ، فله رأيه الخاص فى النصارى الذين سلكوا سبيل المقاومة السلبية ، وله آراؤه الذاتية فى كل شخصية وتأثير البيئة والنشأة

والتربية وظروف الزمان والمكان ومدى استطاعة كل واحد التأقلم ، كما أنه يرجع الضعف الذى انتاب الأندلس الى « جمود النظم » وليس الى روح الاسلام ، وبذلك عرف الاسلام وجوهه فانصفه .



هذه كلمة موجزة نقدم بها هذا التاريخ الأندلسى فى مجموعته ، وقد يحق للقارئ أن يقف على جانب من سيرة مؤلفه « دوزى » فنقول انه هولندى الجنسية يرجع الى اقليم « دويزى » d'Oisy الذى كانت تعيش فيه فى مطلع القرن السابع عشر الميلادى أسرة شريفة نسبت اليه ، ثم كان لهذه الأسرة فروع فى بعض نواحي هولندة ، حتى اذا كان يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٢٠ تزوج واحد من هذه الأسرة اسمه « فرانسوا جاك دوزى » من « سارة مارية » فأنجبت له ولدا سماه « رينهرت » هو مؤلف هذا الكتاب ، وفرح الوالدان بمقدم الوليد الذى ما كاد يبلغ التاسعة من عمره حتى أمه فأودعوه إحدى المدارس التى تكفل له الحياة والتعليم ، ولم يكن الظن بهذا الطفل الا أن يكون كبقية أطفال المدرسة ، لكنه ما لبث أن أظهر من الذكاء ما دل على عبقرية مستغربة لمن كان فى سنه ، لذلك لم تكد تنقضى خمس سنوات (أى أنه ما كاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره) حتى قدموه لأستاذ لم يكن يختص الا بمن يتوسم فيهم النبوغ ، ذلك هو دكتور « خلدنر » Gelder الذى كان يصطفى طائفة ممن يدرسون اللاهوت فيلقنهم العربية ومبادئها ، ولاحظ « خلدنر » براعة هذا الصبى فعزم أن يعلمه هذه اللغة اذ أدرك انه نبتة طيبة ، لو تعهدا المسئولون بالعناية والرعاية والتثقيف لأنجبت رجلا يعتد به فى الغوص فى الكتب العربية .

وصدق « خلدنر » فيما توسمه فى تلميذه « دوزى » الذى لم يكن يكتفى بما يلقى عليه أستاذه من دروس فى لغة القرآن ، ولا شك أنه حفظ الكثير من آياته وتابع حفظه فاستقام لسانه فى هذه اللغة وتمكن من التعمق فى مطالعته فيها ، ومضى الطالب « رينهرت » فى دراسته دراسة أهلته للالتحاق بجامعة ليدن ، وشاءت الظروف أن يلتقى فيها بالعالم اللغوى الكبير « فايرس » Weijers الذى كان ممن أسهموا بنصيب كبير فى دراسة النحو العربى ، والذى كان نعم المعلم لتلاميذه ، فتلقى « صاحبنا » دوزى على يده العبرية والسريانية فى اللحظات التى أظهر فيها ميلا شديدا للشعر العربى فراح يلتهمه فى مظانه ومصادره القديمة ، فنمت فيه حاسة تذوقه للشعر حتى كان من اليسير عليه أن يفرق بين غثه وسمينه ، ويتجلى هذا واضحا فى استعماله الشعر فى بيان أحوال عهد بنى عباد ، واتخاذة اياه مصدرا لتأريخه لهم بل ولمن سبقوهم . وربما كان ذلك داعيا اياه بعد حين للاهتمام بالشاعر المعتمد بن عباد ذى الأسلوب القويم الفصيح ،

وسيتجلى ذلك على وجه الخصوص فى القسم الأخير من كتابنا هذا فى عرضه للملوك الطوائف ، ولدراسته فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب للحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية بالاستعانة بهذا الشعر واستنطاقه اياه مما أمده بمادة غزيرة ٠٠٠٠ والشعر كان ديوان هذه الحقبة من الزمان .

وإذا كان « دوزى » قد اهتم فى هذه السن المبكرة بالشعر فقد اهتم أيضا بمعاجم اللغة ، وواتته الفرصة لاطهار موهبته حين أعلن المعهد الملكى الهولندى عن مسابقة لوضع دراسة عن الملابس العربية فتقدم لها الطالب الشاب « دوزى » ، وأشفق عليه أصدقائه وبقية العلماء الضارين بسهم فى هذا المجال ادراكا منهم للصعوبة التى لابد أن يلقاها اذ يقتحم هذا الميدان المبكر ، ولم يكتموا عنه مخاوفهم لكنه لم يكتثر بها :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام
وانكب على ما هو بصدده انكباً صادقا خرج منه بعمل قل أن
يخرج به سوى عالم كبير تكون الضاد لسانه الأصلى ، ويكون قد نشأ فى
وسط عربى خالص .

على أن اقدامه على هذا العمل كان يتطلب توفر قدر كبير من المصادر
وعيون الكتب العربية القديمة والحديثة كى تساعده على المضى قدما فيما هو
بصدده بهمة لا تعرف الكلل ، ولا يعتورها الملل ، ولا يتسرب اليها الكسل ،
غير أن ذلك تطلب منه الاطلاع على مصادر جمة لم تال الجامعة جهدا فى
توفيرها له ، لكنها أثقلت ميزانيتها اثقالا حملها على أن تطلب اليه - فى
أسلوب مهذب وان شف عن بعض التذمر - تقديم ما يبرر هذا الاسراف
فى الصرف ، فقدم ما أرادته منه لكن استاذ « فايرس » الذى اضطر
لالتزام الحياد فى هذا الموضوع لم يجد بدا من أن يتخلى عن موقفه الحيادى
هذا فساند تلميذه وأفهم المسئولين ضخامة العمل الذى يقوم به هذا الطالب
الذى لم يخذل أستاذه فقدم الى الجامعة ما أنجزه من قاموسه عن الملابس
فى صورته الأولى ، وان لم يكن راضيا عنها كل الرضا فيما بينه وبين
نفسه ، ومن ثم دأب على اكمال المعجم حتى أخرجه بعد عامين (أعنى سنة
١٨٤٥ م) على الصورة التى هو عليها الآن ، ودفع به الى المطبعة فكان أول
عمل ينشر له وسماه
Dictionnaire détaillé de noms des Vêtements
chez les Arabes وقد ترجم الى العربية حديثا فى العراق

ويشير هذا المعجم بوضوح تام الى ما عليه مؤلفه من الدقة المتناهية
وسعة الاطلاع والنظر فى كتب كان أكثرها فى يومه لا يزال وهن المخطوطات

وهي مبعثرة في مكتبات هولندا وبعض الأقطار الأوربية الأخرى ، كما دل هذا المعجم على ما ينتظر صاحبه من تألق نجمه في عالم البحث والاستشراق مما يكسب الدراسات الاستشراقية في هولندا عالما جليلا يضاف الى سلسلة علمائها في هذا الميدان :

واذا رأيت من الهلال نموه أيقنت ان سيصير بدرا كاملا

فلما كان العام التالى عام ١٨٤٥ م استعد « دوزى » للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة ليدن ، كما تزوج فى نفس السنة من الأنسة « مارية كارولينا فاندين أوسترلينج Maria Carolina Vanden Osterlingh » التى وجد فيها نعم الزوجة والرفيق والصديق طوال حياته ، والتى لم تكن تألو جهدا فى توفير المناخ المنزل الطيب لمساعدته . ولو على حساب صحتها ، وكانت تنظر الى ما يصله بعين ملؤها التعظيم والاعجاب بما تتمتع به عنه قريحته ويخطه قلبه ، ادراكا منها أنها زوجة لرجل يبشر بمستقبل باهر رغم المضايقات التى يتعرض لها وان لم يأبه بها ، يقينا منه بأنها زبد سوف يذهب جفاء، وان ما هو بصده - حين يتم - انما فيه نفع لطلاب العلم على اختلاف لغاتهم والوانهم وجنسياتهم ودياناتهم . وكان الحادث الوحيد الذى أزعجه كل الازعاج وعكس صفو حياته هو موت ولده الصغير فوجد عليه وجدا شديدا ، وكان من سخریات القدر انه فى اليوم الذى عين فيه « دوزى » أستاذا للتاريخ فى جامعة ليدن أصيب بفقد هذا الولد وذلك سنة ١٨٥٠ م .

ما أن تزوج « دوزى » من مارية كارولينا حتى انطلقا الى ألمانيا لقضاء شهر العسل ، ولكن ما طبع عليه من الانصراف الى العلم والبحث والتدقيق حمله على التفتيش فى المكتبات الألمانية عما فيها من نصوص تتفق ودراسته الاسلامية ، وهنا تسنى له جمع مادة طيبة كبيرة من المخطوطات التى تتعلق ببني عباد ، وربما كان من أكبر ما وفق اليه فى شهر عسله هذا فى ألمانيا تعرفه على العالم الألماني والمستشرق الكبير « هنريخ فليشر » Heinrich Fleischer وسرعان ما توثقت بينهما عرى صداقة استمرت أكثر من ثلث قرن وان لم يخل الأمر من منازعات علمية بينهما ، لكنها لم تتمكن من تصديع بنيان صداقتهما أو تغزق قناة اكبار كل منهما للآخر على الرغم من عنف هذا النزاع فى بعض الأحيان ، ذلك أن « فليشر » كتب اليه نقدا شديدا - وربما بدى للبعض - جارحا عن كتابه *Analectes* .

لكن دوزى تلقى هذا النقد بصدر رحب دل على أستاذيته ، وأن العلم عنده فوق كل شئ ، ولم يغضبه ما قاله « فليشر » بل كتب اليه يشكره شكرا جزيلا ، ثم زاد على ذلك فنشر فى سنة ١٨٦٧ م نقد « فليشر » فى كتابه

Collections et Corrections ثم أعقب ذلك بمقال جعل عنوانه « رسالة الى فليشر » تتضمن ملاحظات عن نص المقرئ . والحق أن هذه المجادلات النقدية كانت دراسات أدبية وعلمية جادة تؤرخ سيرة النقد والنقاد وتصور التعاون بين علماء ذلك الجيل العظام الذين لازلنا نذكرهم - وسوف يظلون مذكورين - بالاجلال والاحترام .

على أن الحظ واتي « دوزي » في زيارته هذه لألمانيا فوق في العثور في مكتبة جوته - وكان ذلك بطريق الصدفة البحتة - على مخطوطة قيل انها للمقرئ ، فنقلها وانكب على دراستها ، فتبين له بالبحث والتدقيق - انها ليست للمقرئ ولكنها من « ذخيرة ابن بسام » ، وتعلق بالسيد « القمبياطور » .

وفي ربيع ١٨٤٥ م - وفي الشهور الأولى من زواجه - سافر « دوزي » الى انجلترا وذهب الى أكسفورد حيث وجد في مكتبة « بودليان » ما روى طلباء للبحث ، ونسخ من هناك ما أسعفه الوقت بنسخه ، كما اطلع على قدر لا بأس به من مخطوطات تتعلق بالاسلام والدول الاسلامية ، وان كان اهتمامه منصبا على وجه الخصوص على ما يتعلق بتاريخ الاندلس سياسيا وثقافيا واجتماعيا . وظهر ذلك في قيامه في العام التالي (١٨٤٦ م) بنشر الجزء الاول من كتابه

Commentaire historique d'Ibn Badrun sur le poème d'Ibn Abdun.

ولم يقف جهده عند نشر المخطوطة بل تعداه الى قيامه بشروح كثيرة واضافات جمة وتعليقات تاريخية وفوائد لغوية ، كما زودها بلاحق ... كل ذلك في وقت لم يكن النشر العلمي قد كملت له أدواته ، اذ كان يقوم على المجهود الذاتي الذي أسهم فيه المستشرقون الأوروبيون عامة والهولنديون خاصة اسهاما كبيرا .

على أن « دوزي » وجد فيما عثر عليه من كتابات ابن بدرون ما يلقي كثيرا من الضوء على فترة دخول المرابطين الى الاندلس والظروف التي أحاطت بهذا الدخول ، كما عمل في نفس السنة على نشر مخطوط لعبد الواحد المراكشي عثر عليه بمكتبة جامعة ليدن .

ان الفترة التي تنهى بسنة ١٨٤٩ م أتاحت له فرصة طيبة للجمع والتحصيل والنقد والتحليل لجوانب متعددة تاريخية وأدبية ، وللوقوف على ما صدر من كتب المستشرقين في مجالات الدراسات الاسلامية ، وكان

يرى احتفاء علماء الأندلسيات العظيم بكتاب « ج . أنتونيا كوندية » عن تاريخ احتلال العرب لاسبانيا

Historia de la Dominacion de les arabes en Espagna

احتفاء كبيرا يشير الى اهميته لا سيما وهو يتناول موضوعا فريدا قوذا لو اطلع عليه في لفته الأصلية فعكف على تعلم الاسبانية حتى يتسنى له الاطلاع المباشر عليه لعله يهديه الى مزيد من المعلومات عن تاريخ العرب في الأندلس ، لا سيما وانها من قلم كاتب من أبناء البلد وان تأخر به الزمن ، فلما طالع الكتاب - وقد تمكن هو من الاسبانية - وقارنه بما هو وارد في المصادر الأصلية العربية سواء منها المخطوط أو المطبوع تبين له للأسف الشديد أن كتاب كوندية مليء بالأخطاء وبالمغالطات التاريخية التي اذاه اليها عدم المامه بالعربية الماما صادقا ، كما أنه وجده قد عمد الى أمر لم يسهه السكوت عليه ، فالساكت عن الحق شيطان أخرص ، أما هذا الأمر الذي عمد اليه كوندية فايراده لأحداث وأخبار من ابتداعه هو ذاته ، ولا تجد لها مكانا قط في التاريخ الأندلسي لأنها مصنوعة ومزيفة ، ولا يؤيده فيها المصادر العربية ولا الاسبانية ، وبلغت الجراءة بكونديه أنه راح يزعم أنه ترجمها من العربية اعتمادا على جهل القراء بهذه اللغة ، وانهم لن يفتشوا عن هذه المراجع ، وغضب « دوزي » أشد الغضب ان يقوم رجل يعد في طليعة علماء ذلك الجيل بتزييف التاريخ على هذه الصورة المفقوتة ، ورأى فيما فعله كوندية جريمة لا تغتفر ، وتدليسا حقيرا ، واستهانة بالعلماء والباحثين الذين اذا قرؤوا هذا الكتاب خرجوا بنظريات وآراء لا سند لها من الحقيقة التاريخية ، اعتمادا منهم على كوندية باعتباره عالما عارفا بالعربية - كما يظنون - وفي ظنهم حينذاك أنه رجع الى الأصول التاريخية فيها ، فلها رأى « دوزي » ما ارنكه « كوندية » نشر في سنة ١٨٤٩ م نقده أو تسفيهه لهذا الكتاب ومؤلفه في الطبعة الأولى من الجزء الأول من كتابه « أبحاث في التاريخ السياسي والأدبي في العصر الوسيط Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le moyen-age.

وترتب على هذا النقد القائم على أسس علمية بحثة وعلى رغبة صادقة في بيان الحقيقة أن قام العالم والفيلسوف الفرنسي رينان - صاحب المواقف والمجادلات المعروفة مع الأستاذ الشيخ محمد عبده - بمهاجمة كوندية هجوما أعنف من هجوم « دوزي » عليه ، وكان رينان قاسيا أشد القسوة في تجريح كوندية ، وكان هذا العمل منه شهادة لدوزي ودليلا على ثقته فيما يقوله هذا العالم الهولندي صاحب المؤلفات والمخطوطات الجمية والدراسات الكثيرة في تاريخ الأندلس .

لم يكن « كوندية » وحده هو الذي تعرض لهجوم دوزي بل لم يسلم

صديقه المستشرق الأسباني « دون باشكوال دى جايا نجوس » من نقده العنيف ، لكن نقد « دوزى » هذه المرة كان منصبا على اختلاف وجهات النظر وتباين الرأى بين الاثنين ، ولم يؤثر هذا النقد - ون كان مرا - على تقدير كل منهما للآخر فالخطأ فى الوصول الى النتائج ورد عند العلماء ولكن المرفوض هو التزييف والتدليس وخلق أحداث لم يكن لها وجود .

وإذا كان « دوزى » قد هاجم العلماء الاسبان هجموما نراوح بين اتهام أحدهم بالتزييف ووقوع آخر فى أخطاء أداء اليها اجتهاده أو عدم تمكنه من الوصول الى النص الصحيح أو تقويمه فان ذلك كله لم يمنع اسبانيا من أن تختار « دوزى » عضوا مراسلا لأكاديمية التاريخ بمديره ، كما أنعمت عليه بعد سنتين بلقب « فارس نظام شارل الثانى » .

★ ★ ★

ولقد عني « دوزى » بتحقيق ونشر طائفة من الكتب العربية ما بين تاريخية وأدبية ، فاهتم مع بعض المستشرقين بنشر كتاب « نفع الطيب للمقرى » وصدر بعنوان *Analectes sur l'histoire et la Litterature des Arabes d'Espagne* واستغرق ذلك فترة قاربت ست سنوات من ١٨٥٥ حتى ١٨٦١ م ، على أنه خلال الفترة التى قام فيها بنشر المقرى نشر بضعة مقالات فى مجلة « دى خيدس de Gides » وكانت من المجلات العلمية الجادة ، كما تسنى له أن يعثر على مخطوطتين للشريف الادريسى لنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، أحدهما فى باريس والأخرى فى أكسفورد ، فنهض بتحقيقهما ومقارنة الواحدة بالأخرى ، ونشر نسخة مصححة مع ترجمة لها وكثير من الملاحظات النقدية وصدر ذلك بعنوان

Description de l'Afrique et de l'Espagne

وكان قد بدأ هذا العمل العظيم الذى قدر له أن يرى النور على يديه قبل سنة ١٨٦٤ م ثم أتمه بالتعاون مع تلميذه « دى خويه » (١٨٣٦ - ١٩٠٩) الذى كان ملما أدق الامام باللسانين اليونانى واللاتينى ، والذى اذا ذكر ذكرت أياديه البيضاء فى نشر كثير من الكتب الجغرافية فى المجموعة المسماة بالمكتبة الجغرافية العربية ، كما قام بنشر مخطوطات أخرى فى التاريخ والأدب ، سواء ما نهض هو وحده بنشره ، أو شاركه فيه غيره من المستشرقين الهولنديين .

وكان « دوزى » قد نشر قبل هذا فى سنة ١٨٤٨ م الجزء الأول من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى مع مقدمة علمية دقيقة له وملحق وبعض الملاحظات النقدية ، ثم اتبعه بالثانى ثم قام المستشرق الفرنسى « ليفى بروفنسال » بإصدار الجزء الأخير منه .

وتنوعت إصدارات « دوزى » ما بين مخطوط يحققه ، وموضوع يبحثه ، وكتاب يؤلفه ، ودراسة ينشرها ، ومحاضرة علمية يلقيها ، ولم يكن اختياره أمينا لمكتبة الجامعة ناجما من فراغ ، بل انه كان أهلا لهذا المنصب الذى يعتبر فى أوربة منصبا لا يتطلع اليه الا العالم الكبير ، ولا يساق الا للعلماء الجهابذة الاقتاذ .

ثم لما كانت سنة ١٨٥١ م نشر دوزى القسم الاول من مقالاته التاريخية والنقدية فيما سماه بملاحظات عن بعض المخطوطات العربية Notices sur quelques manuscrits arabes وهو عنوان متواضع أشد التواضع بالنسبة الى ما احتواه الكتاب بين دفتيه من علم وتحقيق وبحث واطلاع .

ثم نشر بعد حين الجزء الثانى من أبحاثه Recherches، كما أعاد فى الوقت ذاته طبع الجزء الأول من هذا الكتاب لنفاذ طبعته الأولى ، وأجرى فى الطبعة الجديدة تعديلات جمة وتنقيحات كثيرة وأضاف اليه اضافات جديدة وصحح فى بعضها بعض ما ورد فى طبعته الأولى .

★★★

لقد تتلمذ دوزى على يد « فايرس » الذى كان أستاذا بجامعة ليدن ، ونشر عدة مخطوطات أفصحت عن رسوخ قدمه فى هذا الميدان ، كما أتم تحت إشراف أستاذه هذا وتوجيهه أطروحته الجامعية للدكتوراه التى ضمنها مقتطفات من « مطمح الأنفس » و « قلائد العقيان » وكلاهما للفتح بن خاقان ثم طبعهما ما بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٦٣ م .

كذلك أتبع لدوزى - وهو أستاذ بالجامعة - أن يرد عددا غير قليل من الكلمات الهولندية الى أصولها الشرقية والعربية ، وذلك فى كتاب سماه « بالمشرقيات » Oostellingen بين فيه بجلاء أصول بعض الكلمات - وهى كثيرة - وهذه الأصول ما بين عربية وعبرية وفارسية وغيرها من اللغات الشرقية ، فدل ذلك على المامه الواسع بهذه اللسن ، وقد دفعه ذلك لأن يعاود النظر فى كتاب « انجلمان » الهولندى المعروف وأضاف اليه ما اعتبر وحده كتابا مستقلا ، وقد أدى ذلك بأكاديمية الآثار والآداب الفرنسية الى منحه جائزة فولتى فى يوليو ١٨٦٩ م .

★★★

كان « دوزى » قبل ذلك ببضع سنوات ، أعنى سنة ١٨٦١ م قد وضع كتابه عن « تاريخ مسلمى اسبانيا » الذى نترجمه الى العربية وقد أفنى فى جمع مادته وترتيبها وعرضها ونقدتها عشرين سنة من عمره ، كما أثار صدور الكتاب باللغة الفرنسية موجة عارمة من الغضب المكتوم

ضده في هولنده ، فقد رأى الهولنديون في ايثار صاحبهم الفرنسية على لغتهم امتهانا للسانهم ، فغمره بعضهم في وطنيته ، وما علموا أنه بكتابته اياه على هذه الصورة ونشره باللغة الفرنسية قد كسب مجدا لوطنه ، وربما كانت حجته فيما بينه وبين نفسه في هذا الاتجاه لنشره بالفرنسية أن يتيح له انتشارا أوسع في الأوساط العلمية الكبرى وبين المستشرقين في أوربة الذين كانوا يعرفون الفرنسية أكثر من الهولندية فيعود ذلك بالثناء على بلده .

على أية حال فقد ظل هذا الغضب مكتوما في الصدور مدة عامين حتى نهض الأستاذ « فيث » Veth بالتنويه بالكتاب وصاحبه في بحث مطول نشره في مجلة « دى خيلده » عام ١٨٦٣ م وبين فيه أنه يحتل الصدارة فيما كتب عن هذا الموضوع ، غير أن هذا التقرير لم يمنع صاحبه من أن يقول انه كان يتمنى لو أن « دوزى » كتب ما كتب بالهولندية اذن لوجد من الاشادة به ما هو قمين به وأهل له ، « ولكن عمله اذ ذاك يعد من مفاخر الأدب الوطنى » واذا كان هذا الاستدراك من جانب « فيث » يحمل في طياته اللوم فانه في الوقت ذاته يزد من بيان قيمة الكتاب الجليلة والتقدير العظيم له ولصاحبه .

ولقد ترجم هذا الكتاب الى الاسبانية مرتين كل منهما بقلم واحد غير الآخر ، كما ظهرت له ترجمة بالانجليزية بقلم Stockes طبعت مرتين ، ثم ترجم الى الألمانية ، وها هو اليوم يظهر في العربية . بل ان هولنده نفسها - في العقد الرابع من القرن العشرين - أرادت كتابة تاريخ لاسبانيا وتألفت لجنة عهدت بها الى المستشرق الفرنسى « ليفى بروفنسال » العالم الحجة في التاريخ الاسباني الاسلامى ، فرأت اللجنة أن كتاب دوزى هذا الذى نترجمه واف من كل ناحية ليكون مرجعا - ويكاد يكون وحيدا - في تاريخ مسلمى اسبانيا ، فقام ليفى بروفنسال باعادة طبعه في هولنده بمكتبه بريل مع تصحيحات طفيفة وقدم له مقدمة موجزة ندرج ترجمتها هي الأخرى في هذه الترجمة العربية ، ثم أضاف دراسة علمية موجزة عن المرابطين وقد ترجمناها هي الأخرى ، وسترى في الملاحق المذكورة فى ختام الجزء الأخير من هذه الترجمة العربية .

★★★

لم تكن كتابة دوزى لتاريخ مسلمى اسبانيا بالفرنسية بقادحة في وطنيته ، وما كانه عن تقصير فى اتقانه للغة ، وقد اتبع ذلك بنشر كتاب بالهولندية عن « اليهود فى مكة » سماه Israeliten te Mekka كان أول دراسة علمية موثقة عن هذه الناحية الدقيقة أثار من الثناء عليه مثل الذى أثارته من القدح فيه والهجوم عليه ، لا سيما من جانب اليهود فى

ألمانيا • وقد ترجم هذا الكتاب أيضا الى الانجليزية • وأقبلت عليه الأوساط العلمية الكبير اقبالا يشهد بأنه كان فتحا جديدا في ميدان الدراسات العربية اليهودية في شبه الجزيرة العربية حتى قبل الاسلام •

واذا كانت سنة ١٨٦٩ م قد شهدته وهو يودع وظيفته كأستاذ للدراسات الشرقية والتاريخ في الجامعة بليدن الا أن هذه السنة ذاتها شهدت نشاطه العلمي الدفاق وقد أوفى على نصف قرن من عمره ، وكان في مقدمة هذا النشاط ما نشره في « الجورنال ازياتيكي » جريدة العلماء الكبار من نقد دقيق لترجمة « دي سلين » لمقدمة ابن خلدون ، ثم ما أشرنا اليه من اصداره طبعة منقحة مزيده من كتاب « انخلمان » عن الكلمات الاسبانية والبرتغالية المستمدة من العربية مع اضافات جديدة جمه كانت في مجموعها وفي حد ذاتها هي الأخرى كتابا مستقلا قابلته الأوساط العلمية في هولندة وفرنسا واسبانيا وألمانيا وروسيا وغيرها من البلاد التي فيها مجامع علمية بالاجلال والتعظيم •

لقد كان اهتمام « دوزي » باللغة العربية كلفة حية لها قدرها ومكانتها في تطور الفكر الانساني ، وما دخلها من غريب على مر الزمن جزءا منها حتى استعرب وتذر بعباءتها ٠٠٠ أقول كان اهتمامه بهذا كله باعثا على وضع معجمه العظيم الذي يكل الكثيرون عن تبويضه بل تأليفه ، وهو المعجم المعروف باسم الذيل أو الملحق للمعاجم العربية
Supplement aux dictionnaires Arabes

وهو معجم يشهد لصاحبه بأنه أمة في هذا الميدان ، وقد طبع في هولندة سنة ١٨٨١ م ثم أعيد طبعه في بيروت بالتصوير منذ بضع سنوات ، ويدل في ضخامته وغزارة مادته واستشهاداته الجمه وإشارات المتعددة الى المصادر المختلفة الى تمكن صاحبه من العربية ومن غيرها من اللغات التي ربط بينها المؤلف وبين الالفاظ المستحدثة والدخيلة في الضاد ، وكان « دوزي » سعيدا كل السعادة بهذا المعجم الذي ذكر أنه عمل فيه في ساعات عافيته وسقمه ، وكان يخشى أن توافيه منيته قبل أن ينجزه ، ولكن الحمد لله أن أنجزه ورآه مطبوعا وهو « حي بين الأنام ، ولم تكن لمخاوفي أساس » ، ثم رآه في أيدي الناس مسدة عامين مات بعدهما وهو قرير العين بما آتم ، وليس من شك في أنه عمل جليل رائع يشكره عليه جميع المشتغلين بعلوم اللغة العربية ، وسيظل شكرهم اياه موصولا على الدوام ما دام ثم اهتمام بهذه اللغة وآدابها وعلوم القرآن والحديث •

لقد كان أول من أثنى عليه المستشرق الألماني « فليشر » فقد اعتبره أعظم قاموس في لغة الضاد ظهر بعد معجم لين ، وفي هذا المدح لمعجم

« دوزى » من مثل. هذا العالم الألماني ما يفصح عن سمو مكانة المؤلف والمؤلف وعظيم قدريهما ، حتى لقد هنأ به تلميذه العالم اللغوى المستشرق « دى خويه » وهو من أعظم الدارسين لفقه العربية وأصولها .

والخلاصة أن أعمال « دوزى » فى مجال التاريخ والأدب وتحقيق المخطوطات النادرة بهذه الصورة العلمية الدقيقة وما نشره من أبحاث ودراسات ونقود ، ومحاضراته العلمية فى ميادين الأدب العربى والتاريخ والسياسة الإسلامية الأندلسية والعلاقات بين المجتمع العربى والمجتمعات الأخرى وفى الفلسفة ما يجعل منه قمة فى كل هذه الميادين ، وتجعل منه العالم الأسمى والباحث اللوذعى البعيد عن التعصب إلا للعلم الصحيح ، فقد كان يعنيه أن يخلف من بعده تراثا غير مغموز ، فكان له ما أراد ، وحسبه هذا من ثواب لا يلى . ولا ينفد .

ولقد اكبرت أكثر من حكومة والمجالس العلمية والأكاديميات فى أوربة ما قدمه دوزى من الآثار الفكرية التى كانت مصابيح فى طريق التنوير ، فقامت إسبانيا - كما أشرنا - باختياره عضوا مراسلا لأكاديمية التاريخ الأسبانية بمدير ، وكرمه بلجيكا فاخترته عضوا فى أكاديمية العلوم بكونينهاجن ، ثم تلتها روسيا القيصرية فجعلته العضو المراسل لأكاديمية العلوم فى سنت بيترسبرج .

ثم شهد العام التالى (١٨٧٩ م) عالمنا المؤرخ « رينهت دوزى » يقتعد مكانه عضوا فى الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية Deutsche Morgenlandische Gesellschaft ، ثم اختير عضوا مراسلا فى ١٨٨٠ م بالأكاديمية فى رومة المعروفة فى الأوساط العلمية باسم Academia dei Lincei ثم اختير أستاذ شرف فى المعهد الأسباني الشهير Istitucion libre de Ensenanza وإذا لم يكن قد نال حظه فى الجامعات العربية فما هو ذا اليوم بعد موته بأكثر من قرن يكتب لاسمه أن يكون مذكورا على السنة الناطقين بالضاد فى ترجمته لكتابه عن الأندلس الإسلامية ، ومن ثم فهو حى بأبحاثه ومؤلفاته ومترجماته وتحقيقاته . والذكر للإنسان عمر ثانى .

ان هذا الرجل الذى أدان التاريخ بما تركه من آثار فكرية ، ولم يكن ليهده لحظة إلا ليعود فيتابع نشاطه المرموق قد غلبه الموت فاطفا شعلة حياته المتقدة يوم ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م فطويت صفحة ناصعة مشرقة لمستشرق كان أول من اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية تأليفا وتحقيقا وتدريسا ونقدا .

لقد مات دوزى قبيل انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولى فى لندن ،
والذى كان مقدرًا أن يرأسه ، وانهقد المؤتمر ودوزى تحت الثرى ، ولكن
قرىء بحثه الذى كان قد أعده ليلقيه فى هذا الجمع من كبار العلماء ، وبذلك
ظل صوته فى الجامع العلمية حيا وميتا •

فتحية تقدير لهذا المستشرق لما ترك من آثار علمية سعد بها من
قرأوه مؤلفا ، وعرفوه محققا ، وتعلموا على مؤلفاته فى حياته وبعد موته •

وهنيئا لهولندية أن أنجبت هذا العالم الفذ والمؤرخ الحجة
واللغوى الكبير والباحث المدقق الذى ظهر تأثيره بالروح العربية الاسلامية
فى أنه نعت نفسه فى بعض ما كتب « بالعبد الفقير الى رحمة ربه » •
وانا جبيعا لفقراء الى رحمة الله تعالى •

وما لنا الا أن نقول رب انى لما انزلت الى من خير فقير •

د • حسن حبشى

القاهرة ١٩ رجب ١٤١٥ هـ
أول يناير ١٩٩٤ م

مقدمة المؤلف دوزى

للطبعة الأولى من كتابه الذى نترجمه الآن

لقد ظل تاريخ اسبانيا - لا سيما مسلميها - مجال دراستى الأثير الذى صرفت همتى لانجازه على مدى عشرين سنة كاملة من غير انقطاع ، وأمضيت قبل الشروع فى وضع هذا الكتاب الحالى ردحا غير وجيز من عمري فى جمع مادته المبعثرة فى مكتبات أوربة التى قل أن تخلو احداها منها ، ثم عملت الى النصوص المتعلقة بالموضوع فقارنت بعضها ببعض ، وقمت بنشر عدد ليس بالقليل منها .

ومع ذلك فانى لأقدم هذا التاريخ للقارىء الا وأنا وجل غاية الوجل ، وهائب كاشد ما تكون الهيبة نظرا لجدة موضوعه .

وقد أشرت فى موضع (١) غير هذا الى أن الكتب التى عاجلته قد جانبتها الدقة لاعتمادها أساسا على كتاب « كوندية » ، وهو رجل لم يكن فى متناول يده من مادته الا التافه الضئيل والنزر اليسير ، كما كانت تعوزه معرفة اللغة العربية معرفة صحيحة تمكنه من فهم ما تحت يده ، هذا الى جانب أنه كان يفتقد الحاسة التاريخية فقدانا تاما ، ومن ثم لم تكن مهمتى قاصرة على إلقاء الضوء على الحقائق التى فسرها من سبقونى تفسيراً خاطئاً وأدت بهم الى الخروج منها بنتائج مغايرة ، بل رأيت الضرورة تلزمنى بالفحص حتى أصل الى الأصول الأولى لموضوع مسلمي اسبانيا اذا ما أردت أن أحمله - ولأول مرة - ينبض بالحياة على صفحات التاريخ ، واذا كانت جدة هذا الموضوع واحدة من العوامل التى تجذب النفوس اليه فان هذه الجدة كانت فى الوقت ذاته مصدر كل الصعاب التى صادفتها .

وأعتقد أنى لا أكون مجانباً الحقيقة ان قلت انى أكاد أكون قد رجعت تقريبا الى معظم المخطوطات الموجودة فى أوربة ، المتعلقة بتاريخ مسلمي الأندلس رجوعاً مكننى من دراسة موضوعي والامام به من شتى جوانبه .

(١) وأتصد بذلك الطبعة الأولى من أبحاثى عن تاريخ اسبانيا وأدبها فى العصر الوسيط :

Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge.

ولما لم يكن هدفى هو كتابة مؤلف علمى جاف أقصره على طبقة معينة من الناس فقد حرصت على إيراد جميع الأحداث التى وصلت الى، وتحاشيت اتخام صفحات كتابى هذا بالتفاصيل الزائدة المملة . كما عانيت من جانب آخر بالالتزام بالمقاييس الأدبية التى تجعل الصدارة فى التأليف التاريخى لحقائق طبقة معينة يكون كل ما عداها تبعاً لها ، ولهذا فكثيراً ما وجدت نفسى مضطراً ليس فقط لأن أجمل فى سطور قليلة ثمرة اطلاع أسابيع عدة بل وجدتني مرغماً - زيادة على ذلك - على السكوت عن أمور جمة ليست بذات أهمية كبيرة لا يتمشى إدراجها هنا مع خطئى العامة .

ولقد رميت من ناحيه أخرى الى أن أضع بين يدي القارىء فى وضوح تام كل الأحداث التى خيل الى أنها أصدق ما تكون لرسم صورة صحيحة لازمانها ، لذلك لم أتردد فى بعض الأحيان من أن أهدهد وقع مأساة التاريخ السياسى بأحداث عارضة ، وفى رأى أن التاريخ فى مجموعته يبدو باهت الصورة مجوجاً لا تقبل عليه النفوس اذا خلا من هذه التفاصيل المشوقة لما تلقى من أضواء جانبية على العادات التى عاصرت هذا التاريخ ، كما أننى قنع بأنه لا يلائم موضوعى تلك الأساليب التى يعتمد عليها ذلك النفر من المؤرخين الذين يجعلون الصدارة فيما يكتبون للصوميات الواسعة الفضفاضة ، ولا يكثرثون بالشخصيات العامة ولا الآراء أو الميول التى تعبر عن ذواتهم .

وبالإضافة الى ذلك فانى لم أدخر جهداً فى الالتزام فى « تاريخى » هذا بالواقعية الدقيقة لقناعتي بأن مزيداً من التوسع لن يسبغ عليه مزيداً من الحيوية والرونق ، لذلك تجنبت الاطالة السقيمة حتى لا تطفىء هذه الاطالة ما يجدر بهذا التاريخ من الوضوح ، ومن ثم لم أكثر فيه من الملاحظات ، ولم أثقله بالنصوص ، ولم أتخمه بالاقتباسات ، اذ ينبغي أن يكون المكان للحقائق وحدها ، والتزمت بالأسلوب العلمى فحرصت أشد الحرص على بيان المصادر التى قامت عليها الحقائق التى توصلت اليها .

★ ★ ★

وانه لمن الحق أن أشير الى أن أقساماً من هذا الكتاب قد تمت كتابتها قبل ظهور أبحاث جديدة معينة أفادت النقد التاريخى ، فالفصول الأولى مثلاً من مجلدى [عن الفتن الأهلية] قد تمت كتابتها قبل ظهور المقال القيم عن « محمد وأصول الاسلام » فى مجلة Revue de deux Mondes بقلم الصديق العظيم العلامة رينان ، فقد كان كثير من الخواتيم التى توصل اليها كل منا تطابق الواحدة منها الأخرى الا أن كلا منا كتب ما كتب مستقلاً عن الآخر .

كذلك بقى فى عنقى واجب كريم هو أن أشكر هؤلاء الأصدقاء
الأساتذة : مول ، ورايت ، وديفر يميرى ، وتورنبرج ، ودوجات ،
وكالديرون ، ودى سلين الذين وضع بعضهم المخطوطات تحت تصرفى ،
أو تفضلوا فى رقة وفضل فأمدونى ببعض المقتطفات والمقارنات بين بعض
المخطوطات والبعض الآخر .

و • دوزى

ليدن فبراير ١٨٦١ م

كلمة المستشرق الفرنسي

ليفى بروفنسال

(فى تقديمه للطبعة الجديدة من تاريخ دوزى عن تاريخ الأندلس الذى نشرته مكتبة بريل بليدن ، واشرف على طبعه والذى اعتمدناه فى ترجمتنا العربية باجزائها المختلفة) .

يجمع المستشرقون والمؤرخون على أن ظهور كتاب « تاريخ مسلمى اسبانيا » للعالم الهولندى البارز « رينهرت دوزى » الذى تقوم دار بريل بطبعه ، والذى أوشكت ثلاثة أرباع قرن تمضى على ظهوره - هو خطوة كبيرة للامام بفترة من تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، وكان تاريخ تلك الحقبة مقبورا فى الظلام الدامس .

لم يكن الأمر قاصرا على أن يبعث هذا الموضوع بأكمله ، بل لأنه كان عملا تدعمه دعما قويا أسس علمية جادة كل الجهد ، لأنه خلاصة العديد من مطالعات دوزى ذى القدرة على ما بذله من جهد انتزع الإعجاب به حتى اليوم ، وذلك برجوعه فى مادته الى الأصول الأولى فى الحوليات العربية واللاتينية والاسبانية ، والتى كان معظمها لا يزال غير منشور ومطويا رهن المخطوطات المبعثرة فى أوربة وكانت هذه الأصول قادرة على القاء شئ من النور على تاريخ الاسلام السياسى والاجتماعى فى شبه جزيرة ايبيريا .



ولقد ظل تاريخ « دوزى » منذ صدوره عام ١٨٦١ م كتابا من عيون الكتب الكلاسيكية ، كتبه صاحبه بالفرنسية بالأسلوب الذى ربما كان متأثرا قليلا بروح العصر واعتورته هنات طفيفة ، ثم قيض له ان يترجم الى الألمانية مرة ، وأخرى الى الانجليزية ، ومرتين الى الاسبانية ، ودلت هذه الترجمات على خطورته ، كما دلت الفترات الفاصلة بين كل ترجمة وأخرى على قدر هذا الكتاب العظيم ، الذى نفتت طبعته الأولى الأصلية الموضوعة بالفرنسية وأصبحت نادرة الوجود .

كان هذا هو السبب الذي حدا بمكتبه أ . ج . بريل (التي اشتهرت منذ أزمنة بعيدة بالدراسات الشرقية متجلية في مطبوعاتها الهامة) ، أقول كان هذا السبب الذي حدا بهذه الدار الى اعادة طبع نفس كتاب تاريخ دوزي ، فطلبت اليها أن نتحمل عبء اعداد هذه الطبعة الجديدة ، وكان دورنا في هذه المهمة متمسما بالدقة والتروى والاكتفاء باعادة تقويم ما يحتاج الى تقويم كلما وجدنا ذلك ممكنا وجعله مطابقا لاسلوب وقتنا ، وكذلك تعديل رسم أسماء الاعلام العربية طبقا للرسم الذي تألف المستشرقون عليه .

كما عنيانا بأن نضع في الملاحق ترجمة النصوص العربية التي لم تتوفر لدوزي للانتقال بها . ولقد كان شاغلنا الشاغل على اللوام هو ألا نجري الا في أضيق الحدود ما يلزم من التعديل في المظهر العام لهذا العمل الجليل الذي سيظل الى مدى طويل محافظا على قيمته ، ولن يسقطه مرور الزمن ولا القدم من مكانته العالية التي يتبوؤها .

أ . ليفي بروفنسال

كلمة شكر

ليس بشاكر الله من لا يشكر الناس •

أرى لزما على ان أقدم بالشكر الى الأستاذ الدكتور سمير سرحان
الذى لا يالو جهدا فى امداد القارىء العربى - أيا كانت ثقافته - بكل ما هو
ثمين فى شتى مجالات التنوير الفكرى •

كما أشكر الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان الذى كان حريصا على
أن أقدم هذه الترجمة قبل غيرها للنشر فاستجبت له سعيدا •

وأشكر الدكتور فريد ليمهاوس Dr F. Leemhuis مدير المعهد
الهولندى للآثار المصرية والبحوث العربية بالقاهرة والسيدة
أنيتا كايترز Mrs. Drs. A. Keizers أمينة المكتبة لتيسيرهما لى كل المراجع
والأبحاث التى احتجت الرجوع إليها •

وأشكر زوجتى السيدة بدرية محمود الدخاينى لمراجعتها معى بعض
فصول هذه الترجمة واعدادها كل ما ترجمته للطبع •

حسن حبشى

القاهرة أول يناير ١٩٩٤

الفصل الاول

بيان موضوع هذا الجزء من الكتاب • طبقات المجتمع
الاسباني قبل الفتح واوضاعها الاجتماعية والاقتصادية •
فساد النظام الاداري • فوضى المتبربرين الذين حكموا اسبانيا
وفصائلهم • مقاومة اتباع القديس اوجستين لهم • اهتمام
الكنيسة بمصالحها الخاصة وتقديمها اياها على اوضاع الشعب
التابع لها • انتشار الرق واستفحال شان الاسترقاق •
اضطهاد اليهود •

اسبانيا وقت الفتح العربى

موضوع هذا الجزء هو بيان الأحوال التى يسرت على المسلمين فتح اسبانيا ، وتلخيص النتائج الهامة التى تمخض عنها هذا الفتح ، واستعراض مافرضه الفاتح من وضع على السكان النصرارى ، وأثر حكمه فى مصير طائفة بائسة وفيرة العدد ونعنى بها طائفة الرقيق والعبيد ، وتفصيل خبر المقاومة الطويلة العنيفة التى نهضت بها شتى طبقات المجتمع والتى كان قوامها طوائف النصرارى والمولدين والحضرين والجبلين وملاك الأراضى الأثرياء والعبيد الطلقاء ، وساعد عليها تعصب الرهبان وحماسة نساء لبسن مسوح التقوى والشجاعة ، وظهور جيل جديد كان أقوى من الجيل الواهى الذى سبقه والذى كان موجودا بأسبانيا فى فجر القرن الثامن للميلاد .

كانت أسبانيا وقت أن تطلعت إليها أنظار المسلمين شديدة الضعف ، ميسرة تماما على من يغزوها ، ويرجع ذلك الى ما كان عليه مجتمعها من وضع مؤلم ، يتسم بالوهن الذى لم يكن جديدا عليها بل كان متاصلا فيها منذ وقت بعيد ، فلم تكن تفترق فى شىء - أيام كانت ولاية رومانية - عن بقية الأجزاء الأخرى من الامبراطورية أيام أن كانت تحت حكم القياصرة الأواخر من حيث الوضع المحزن ، حتى ليقول أحد (١) كتاب القرن الخامس للميلاد انه لم يعد للامبراطورية من كل ما كانت تملكه سوى الاسم » .

أضف الى هذا أننا نجد فيها قلة من الأثرياء يملكون مساحات شاسعة من الأراضى المعروفة باسم « لاتيغونديا » شبه الاقطاعية ، وتقوم الى جانبهم فئة ضخمة من البرجوازية المنهارة والعبيد ورقيق الأرض .

عل أن الأثرياء وأصحاب امتيازات وجميع الذين يشغلون المناصب السامية فى الامبراطورية وهم الذين انغردوا وحدهم دون سواهم بأن

يسموا بالأمراء ، والذين كانوا ينفردون بأن تساق اليهم القصاب الشرف ، وكان هؤلاء كلهم معفون من جميع أنواع الضرائب التى تحملت عبأها الطبقة الوسطى وحدها ، كما كان هؤلاء المتميزون يتقلبون فى مطارف النعيم ، ويعيشون عيشة الترف والبلهنية فيسكنون القصور المظلة على الأنهار الجميلة ، والواقعة على سفوح تلال تلاصقها كرمات العنب وأشجار الزيتون ، وحيث يقضى أصحابها أيامهم فى اللهو والسباحة والمطالعة والقنص والولائم .

أما قصورهم فقد كسيت أبهاؤها بالطنافس الشامية والايرانية المطرزة المشاة ، فإذا حلت ساعة الأكل أثقل الخدم الموائد بأشهى أنواع اللحوم وفخر الأنبة ، وترى الضيوف متكئين على سرر مغطاة بمفارش أرجوانية يتطارحون الشعر ، ويلقون السمع الى أجواق العازفين ويتطلعون الى الراقصات (٢) .

ولم تؤد حياة البلهنية هذه الا الى مضاعفة بؤس العدد الكبير من أهل البلاد ، ومع أن العامة من أهل المدن الذين يقومون بالاضطرابات لم يكونوا شديدى الشعور بهذا الوضع الا أن عليية القوم كانوا يخشون شرهم ويراعون شعورهم فيطعمونهم على حساب سواهم من المواطنين ، ويعطونهم بالمناظر المثيرة المبثثة السوقية .

أما الطبقة الوسطى المعروفة بالكوريال (أو صغار الملاك) الذين يسكنون المدن ويقومون بتصريف الامور المحلية فقد كانوا فى أشد حالات الضيق من جراء الضرائب الرومانية .

أما النظام الادارى الذى كان مفروضا فيه حماية الناس من الطفيان فقد أصبح وسيلة لتحقيق جميع أنواع الاغتصاب والابتزاز ، بل صار ضحية له ، ذلك أن قسطنطين الأول قطع المصدر الرئيسى لدخل المدن والولايات باستيلائه على ممتلكاتها فى نفس الوقت الذى تضخمت فيه المصروفات الحكومية نظرا لازدياد البؤس العام ، ومع ذلك فقد كان مقدرا فى أعضاء الكورى - واعنى بهم سكان المدينة المالكين لعقار يزيده على خمسة وعشرين فدانا ولا ينتمون للطبقة ذات الامتيازات - أن يقوموا بسداد ما يعجز عن سداذه المزمون وذلك بدفعهم اياه من جيبيهم الخاص . وعجز صغار الملاك عن تحطيم هذا الالتزام الذى تاصل وأضحى كلا موروثا الى حد غدا معه مرتبطين بالأرض ارتباطا لا يستطيعون معه بيعها دون ترخيص من الامبراطور الذى كان يعد نفسه المالك الحقيقى لجميع أراضى الامبراطورية ويعتبر رعاياه عمالا بها ، وكثيرا ما دفع اليأس صغار الملاك

الى ترك وطائفتهم وقراهم للانخراط فى سلك الخدمة الحربية او الاسترقاق .
غير أن الحكومة .- بعينها النفاذة ويدها الحديدية - كانت قلعة تفشل فى
كشف أمرهم وان كشفتهم أعادتهم قسرا الى طائفتهم ، فان لم يقدر لها
النجاح فى ذلك أحلت مكانهم رجالا ذوى سمعة سيئة أو أشرا أو هراطقة
أو يهودا أو رجالا من طريدى العدالة ، ذلك لأن مرتبة صفار الملاك
أو الكوريال التى كانت فى السابق مرتبة شرف وامتياز أصبحت سبة
وعقوبة (٣) .

أما بقية الشعب فكانت اما مزارعين أو عبيدا ، وان لم تكن العبودية
الزراعية قد تلاشت غير أنه منذ مستهل العهد الاستعماري أخذ الاسترقاق
فى الانتشار بسبب عاملين أحدهما ما عاناه الرقيقون الأحرار من الفقر
والضيق الشديد ، وثانيهما هو ارتقاء أحوال عبيد الأراضى ، ومن ثم
كانت هذه الحال وسطا بين الحرية والاسترقاق ، الذى لم يكن له فى
بادئ الأمر من قانون سوى العرف أو التعاقد ، ثم أصبح منذ عهد
دقلديانوس (٤) - مسألة نظام عام ومهمة حكومية وموضوعا يشغل على
الدوام بال الدولة التى اضطرت - بأى ثمن - أن تدفع الفلاحين الى المزارع
المهجورة ، وبالجند الى الجيش ، ومن ثم صار لهذا النظام أسلوبه الذى
يميزه عن سواه وأصبح له عسكريه وقوانينه الخاصة به ، أما عمار
الأراضى الذين عهد بهم الى مالك الأرض الذى كانوا يأخذون جزءا معيناً
من غلته - فقد أصبحوا من بعض الوجوه - فى حال أحسن من الرقيق ،
اذ أبيع لهم الزواج الذى حرم على الرقيق ، وصار فى استطاعتهم امتلاك
الأراضى دون أن يتمكن سيدهم من مصادرة أملاكهم وان حرم عليهم
التصرف فيها بالبيع دون رضاه ، ثم انهم كانوا فى نظر القانون فى مرتبة
فوق مرتبة الأفتان ، فكانوا يدفعون للدولة ضرائب شخصية ، وينخرطون
فى سلك الجيش ، لكنهم كانوا يشبهون العبيد فى توقيع العقوبات
الجثمانية عليهم ولا يحق لهم التحرر ، ولم يكونوا عبيدا للشخص بل
للأرض فتراهم مرتبطين بالأرض - التى يزرعونها - برباط غليظ موروث
لا تنفصم عراه ، ومن ثم لا يستطيع المالك أن يبيع أرضه من غير عمارها ،
أو العمار من غير الأرض (٥) التى هم عليها .

أما أشد الطبقات بؤسا فكانت طبقة الرقيق الذين يباعون
أو يتهادهم أصحابهم كالأنعام والمتاع وكان عددهم ضخما اذا قيس
بالأحرار ، حتى ليقول سنيكا « ان البعض اقترح ذات مرة فى مجلس
الأميان تمييز الرقيق بلباس خاص بهم ، فرفض القوم اقتراحه » مخافة
الا يابه به زقيقتنا » .

وقد حدث فى عهد اوجستوس (٦) أن طليقا كان يملك ما ينيف على أربعة آلاف عبد على الرغم من نكباته الجسام التى منى بها أيام الحروب الاهلية ، وقد أخذ عدد الرقيق فى التزايد - بدلا من النقصان فى أخريات أيام الامبراطورية ، وكان عند أحد أهالى غالة (٧) المسيحيين خمسة الاف منهم ، وعند آخر ثمانية آلاف ، يعاملون أقسى معاملة (٨) ، فقد أمر أحد السادة بجلده عبد له ثلاثمائة جلدة لأنه تركه ينتظر الماء الساخن ، غير أن الآلام التى كان ينوقها هؤلاء التعساء على يد ساداتهم كانت لا تقاس قط بما يلاقونه على أيدي رفاقهم الموكول اليهم مراقبتهم (٩) .

لم يكن أمام عمار الأرض وصغار الملاك والرقيق لتجنب اضطهاد ساداتهم وظلم كبار الملاك والحكومة لهم سوى سبيل واحد هو الهروب الى الغابات وتكوين العصابات وقطع الطرق ، وعاشوا فيها عيشة الانسان البدائى واقتصوا من ظالميهما لما تحلوه على يدهم من الآلام وذلك ينهب دورهم الفخمة ، وأخفوا يتفنونون فى عقاب الغنى الذى يوقعه سوء طالعهم فى أيديهم (١٠) ، وكان يحدث فى كثير من الأحيان أن تنضم أعداد كبيرة من تلك العصابات بعضها الى بعض ، ويؤلفون من بينهم جماعة واحدة لا تكتفى بقطع الطرق بل تهدد المدن والمجتمع نفسه ، وحدث فى عهد الامبراطور دقلديانوس أن اتخذت هذه العصابات فى غالة موقفا تهديديا مما حمل أولى الأمر على نسب أحد القياصرة للزحف عليهم بجيش ضخم (١١) .

كان لابد لمثل هذا المجتمع الذى نخرته الفاقة أن يسقط عنه أول ضربة هجوم (١٢) عليه ، وكانت غالبية القوم لا تعبأ أن تلاقى هذا الضغط وذلك الظلم على يد الرومانيين أو غيرهم ، وكان الذين يعينهم بقاء الأمور على ما هى عليه هم أصحاب الامتيازات وكبار الملاك والأغنياء الذين دب الفساد فى معظمهم وانغمروا فى المفاسق ففقدوا كل مظهر النشاط ، ومع ذلك فقد أبدى بعضهم شيئا من الوطنية - أو شيئا من الانانية فى قول آخر - حين اجتاحت التبريرون الولايات الرومانية ، لكن ذهبت أدراج الرياح محاولة أشرف رقونة ، فى وقف تقدم القوط (١٣) الغربيين .

وحدث فى عهد هونوريوس أن عبر « الألان » و « الوندال » و « السويف » نهر الراين وأعملوا القتل والدمار فى غالة ، وهددوا اسبانيا التى ظلت جمهرة سكانها ترقب مصيرها فى كثير من عدم المبالاة

مع الهدوء والسكينة ، دون أن يبذلوا أية محاولة لصعد الخطر ، غير أن آخر شرفيين من الأثرياء وهما « ديسم » و « قرنيان » فرقا السلاح في عمار الأرض (١٤) وتحصنا معهم في ممرات البرانس ، وحالوا جميعا بين المتبربرين وبين دخول اسبانيا ، وبذلك كان من السهل الدفاع عن هذا القطر ، لكنهما وقعا في الأسر وقتلا على يد قسطنطين منازع قيصر اذ رفضا الاعتراف به حين وكل حماية البرانس الى « الهونوريين » ، أعنى الى فريق من المتبربرين الذين أدخلتهم رومة في خدمتها لمقاومة غيرهم من الجرمان ، واذاً ذاك مضى هؤلاء الهون يذهبون البلد الذي عهد اليهم بالدفاع عنه ، ثم أرادوا التخلص من العقاب الذي لابد وأن ينزل بهم لقاء ما اقترفته أيديهم ففتحوا الممرات. سنة ٤٠٩ م أمام المتبربرين الذين نهبوا أهل غالة ومن ثم لم يعد أحد يفكر في المقاومة .

وعند قدوم المتبربرين الفوضويين الذين اجتاحوا البلاد كالسيل الجارف كان عليا الأهالي عاكفين على المذات آخذين بأسباب المساذل ، وفي الوقت الذي كان العدو فيه يطرق أبواب البلد كان الأغنياء يملأون بطونهم بالخمر وشهى الطعام ويرقصون ويغنون ويتبذلون مع الجوارى ، طابعين بشفاهم المرتمة قبيلات الهوى على اكتافهن العارية .

أما العامة فقد بدت وكأنما ألقت منظر الدماء وسكرت برائحة القتل فادمت أكفها تصفيقا للتصارعين، يقتل بعضهم بعضا على مسرح (١٥) البلاد ، ولم تكن هناك قط مدينة اسبانية واحدة لديها الشجاعة لتحمل الحصار ، وكان أبواب المدن كانت تفتح من تلقاء ذاتها على مصراعها أمام القبائل الجرمانية التي لم تجد أية مقاومة في دخولها فانصرفت لتخريبها واضرام النار فيها ، لكن لم يكن ثم ما يدعوهم للقتل الذي لم يكن هناك ما يحملهم على اقترافه الا رغبتهم في اشباع شهواتهم النموية .



كانت هذه أوقاتا عصيبة ، ومع أن مسلك ذلك الجيل في جنبه وانحطاطه وفساده كان يبعث على الاشمئزاز منه الا أن المرء لا يملك نفسه من العطف عليه والرثاء له رغم ارادته، ذلك أن الاستبداد الرومانى بفظاظته الفاسية لم يكن شيئا مذكورا اذا ما قيس بوحشية المتبربرين نظرا لما انطوى عليه استبداد القياصرة المستنير من شيء من النظام . أما الجرمان فقد استقلتهم الرعدة والغضب الشديد فلم يدعوا شيئا في طريقهم الا حطموه وصرعوه دون وعى ، ونزلت بالمدن والريف نكبة ليس بعدها نكبة ، وتلت تلك الانقلابات موجات أخرى لعلها أشد من سابقتها خطرا ، تلك هى المجاعة والوباء ، فكنت ترى أمهات جائعات (١٦) دفعن الجوع لذبح أطفالهن وأكل لحومهم .

واجتاح الوندال (١٧) جزائر البليار وقرطاجنة وأشبيلية حاملين معهم الخراب والدمار ، على أنه من حسن حظ اسبانيا أن هؤلاء الوندال غادروها الى افريقية سنة ٤٢٩ م مع الشرذمة الضئيلة من « الألان » الذين قدرت لهم النجاة من سيوف القوط .

بيد أن « السويف » المتوحشين الذين كانوا لا يعرفون سوى القتل والتخريب استقروا في « غاليسيا » (١٨) وأستولوا فترة من الزمن على حكمه « بتيك » وقرطاجنة ، وبهذا شمل تخريبهم جميع ولايات اسبانيا على التقريب ، ألا وهي « لوزيتانيا » و « قرطاجنة » و « بتيك » و « طرقونة » و « بشكنس » . وعمت الفوضى المربعة الولايتين الأخيرتين ، وانضم الى العصابات جمهور كبير من عمار الأرض والفلاحين المنكوبين الذين عملوا على نشر الذعر في شتى النواحي ، واذا كانوا خصوم رومة الألداء فقد كانوا يققون موقف العداء من المتبربرين ان ساعد المتبربرون رومة ولكنهم يحالفونهم ان هم ناجزوها الخصومة ، وحدث أن خرجوا بقيادة « بازل » الشجاع في اقليم « تراجنواز » وهاجموا كتيبة من المتبربرين كانت تعمل في خدمة رومة وقتلوا رجالها على بكرة أبيهم في كنيسة « تيرازون » ، وكان مطراتها من ضحاياهم ، ثم انضم بازل الى السويف ونهب معهم ضواحي « سرفسطة » وأغار على «لارده» وأسر سكانها ، كما انضم هؤلاء السويف بعد ذلك بخمس سنوات الى الرومانيين لاستتصال شافة هذه العصابات .

ولقد ذاقَت غاليسيا - أكثر من باقي الولايات الأخرى - بطش السويف وتخريبهم اياها اذ اتخذوها ملجأ لهم ومقرا لعملياتهم ، وظلوا دائبين فيها على النهب والقتل أكثر من ستين عاما حتى عيل صبر الغاليسيين التمساء فسلكوا طريقا كان من الواجب عليهم أن يسلكوه منذ البداية فحملوا السلاح وتحصنوا في القلاع القوية ، وكان الحظ يواتيهم بين آونة وأخرى حين يأسرون جماعة من العدو ثم يتراضى الفريقان ويتبادلان الأسرى والرهائن ، لكن سرعان ما ينقض السويف السلم ويعودون للنهب ، ولم يلق الغاليسيون نجاحا كبيرا في طلبهم النجدة أو التدخل من جانب حكام غالة الرومان أو من القسم الأسباني الذي كان لا يزال رومانيا .

ثم جاءت أخيرا طائفة متبربرة أخرى هي القوط الغربيون فانقضوا على السويف وألحقوا بهم هزيمة نكراء على شواطئ « أرفيجو » سنة ٤٥٦ م ، فلم تنفع هذه الهزيمة الغاليسيين بل عرضتهم لخطر جديد اذ خرب هؤلاء القوط الغربيون الجدد « راجا » ، وهم وان لم يهرقوا فيها الدماء

الا أنهم سبوا جماعة من أهلها ودنسوا الكنائس باتخاذهم إياها مرابط لدوابهم ، وجردوا الكهنة من كل ما يملكون حتى من ملابسهم ، وحذا سكان براجا وضواحيها حذو أهل « تراجنواز » فنظموا من بينهم العصابات وجماعات لقطع الطرق ولم يكن القوط الغربيون في « أسترودجا » أقل قسوة منهم في غيرها اذ كانت المدينة في يد زمرة تزعم أنها تحارب من أجل رومة في اللحظة التي دق فيها القوط أسوارها ، ونجح الآخرون فيما طلبوه من السماح لهم بدخولها كأصدقاء لكنهم ما لبثوا أن عملوا مذبحة مروعة وسبوا النساء والأطفال ورجال الدين الذين كان من بينهم اثنان من المطارنة ، كما هدموا المذابح ، وجعلوا الدور طمعة للنيران ، وخبروا ما حولها من الحقول ، وألقوا ببلنسية ما الحقوه بغيرها ، ثم مضوا بعدئذ فحاصروا قلعة قريبة من « أسترودجا » غير أن اليأس بعث في الغاليسيين قوة وحمة فاستبسلت حامية ذلك الحصن في الدفاع عنه ، وأظهرت الصبر الجميل في هذا الحصار الطويل .



عاد القوط الغربيون الى غالة فتابع السويف لصوصيتهم وشراستهم ، وقد حدث في « لوجو » أن قامت احدى عصاباتهم بمهاجمة القاعة التي انعقد بها المجلس المحلي اطمئنانا من أعضائه بأنهم في أسبوع القيامة المجيد ، فقتل هؤلاء النساء عن آخرهم ، كما أن هناك عصابة أخرى نقضت المعاهدة المبرمة حديثا وسأقت جميع سكان «قنبرة» أسرى (١٩) ، وهكذا غزى القوط اسبانيا كلها شيئا فشيئا ، وعلى الرغم من اخراج أهلها من ثلثي أرضهم الا أنهم رحبوا بهذا الاحتلال بالقياس الى ما كابده من الآلام الفظيعة على أيدي السويف .



في وسط هذه النكبات العجمة وتلك الفوضى الشاملة كانت هناك حفنة من الرجال لا تزال محافظة على شجاعتها ، ولم تأسف كثيرا على زوال العهد القديم ، بل دفعتها ظروف خاصة للوقوف الى جانب المتبريرين ضد مواطنيهم الرومان : تلك هي الصفوة المختارة من الكهنة الكاثوليك أتباع مدرسة القديس « أوغستين » ، فقد تحمل أولئك القسس منذ بدء الغزوات عذابا شديدا في سبيل قل غارب بطش المخيرين ، وأظهروا التفاؤل الشديد ازاء هذا الطوفان من النكبات ، ويدعى الكاهن الأسباني « بول أورو » تلميذ مطران « هيبون » (٢٠) - اذ أهدى اليه كتابه التاريخي وكان معاصرا لغزو الآلان والسويف والوندال - أقول يدعى هذا الكاهن أنه لما استقر المقام بهؤلاء المتبريرين في شبه الجزيرة بعد تقسيمها فيما

بينهم عاشوا الإنسيان كحلفاء وأصدقاء . وكان لا يزال هناك - حتى سنة ٤١٧ م - وهي السنة التي وضع فيها كتابه هذا - أسبانيون يؤثرون العيش في ظل المتبريين أحرارا وفقراء على حياة الاضطهاد في كنف رومة وفرضها الضرائب الباهظة عليهم ، ثم جاء بعده (٢١) بعشرين أو ثلاثين سنة قسيس آخر هو « سلفين المرسيلي » فذهب الى أبعد من ذلك ، وبني رأيه على أساس منين ، وإن ما جاء في كتابه « أورو » الذي لم يكن يتجاوز رغبة فئة قليلة مستضعفة قد أصبح - على قلم قسيس مرسيليا - عقيدة تعتقها الأمة بأجمعها (٢٢) ، وليس هناك شيء أكثر ضائفة لطبيعة الأمور أو أشد فسادا من ذلك الارتياح الذي أبداه الناس .

لكن يجب أن نقول - انصافا للحق ولشرف الانسانية - أن احساس الكرامة الوطنية لم يكن قد انحط الى هذا الدرك عند شعوب رومة الذين مروا بمحنة محرقة مفاجئة دونها الاستبداد نفسه ، وسواء أكانوا أضعف أم أجبن من القيام بطرح النير عنهم الا أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يكرهون المتبريرين ويمقتونهم ، وقد كتب « سيدون الأبول » الى أحد أصدقائه يقول له : « انك تتجنب المتبريرين الذي يقال لهم الأشرار ، وأما أنا فأتجنب الجميع حتى من يسمونهم بالأخيار » ، ولعل تفسيره للشعور الوطني أحسن من تفسير القسس الذين يحاولون تعليل الغزو بأنه نعمة من الله . غير أن لهؤلاء القسس العذر فيما كتبوا ، ذلك أنهم لم يعرفوا أبدا ما هي الوطنية ، وكانوا يجهلون كل شيء عن الوطن الذي يخطرون فوق أرضه ، فالوطن عندهم هو الآخرة ، كما أنهم لا يدركون الحنان ، فلم يحرك النهب ولا القتل منهم ساكنا حتى ان « أورو » (٢٤) ليتساءل : « ماذا يهم المسيحي الطامع في الحياة الأبدية والارتفاع عن هذه الدنيا الدنية أن يعرف كيف ومتى يترك هذه الحياة ؟ » ، وقد قال ذلك بعد أن اعترف - رغم أنفه - أن السويف وحلفاءهم قد ارتكبوا كثيرا من جرائم القتل (٢٥) .

لم يكن يشغل بال رجال الكنيسة سوى مصلحة الكنيسة وحدها ، ومن ثم كان حكمهم على كل حادثة سياسية متأثرا بمقدار ما يعود على الكنيسة من فائدة أو ضرر ، ولما كانوا هم أبطال النصرانية فقد احتقروا الوثنيين وجمهورا كبيرا من المسيحيين الذين لم يتمكن الايمان من قلوبهم حين عزوا المصائب التي حاقت بالامبراطورية الى تركها العبادة القديمة وقالوا ان المسيحية أضرت بالعظمة الرومانية القديمة التي كانت آلهتها الوثنية يومذاك احفظ لهذه العظمة ، فرد القسس على أولئك الكفرة بالبرهنة لهم على أن نكد الطالع قد لازم العالم الروماني على الدوام ، وأن سوء الأحوال ليس من الخطورة بالدرجة التي يزعمونها (٢٦) ، وهذا قول كبير القسس المعروف صاحب كتاب « مدينة الله » .

أخذ رجال الدين بعد ذلك يؤكدون الحقيقة القائلة بأن الحاجة الى
 بث أفكار جديدة كالأفكار المسيحية تتطلب ، جالا غير رجال العهد القديم
 أو طبقة الأشراف الرومانيين الذين نشأوا بالتصراية منذ أن صارت
 النصرانية دين الدولة ، ولكنهم كانوا في الواقع أبعد الناس عن الامتثال
 للناحية الخلقية الجادة التي نادى بها هذا الدين ، كما كانوا أشد الخلق
 كفرا بعقائده ، فلم يشغلوا أنفسهم بغير المآذب والملاذات والترويح عن
 النفس ، وأنكروا كل شيء حتى خلود الروح (٢٧) . ولقد كتب «سالفين
 وهو في سورة غضبه الديني يقول : « ان القوم هنا يؤثرون الملائه على
 الكنائس ، ويولون ظهورهم للمذابح ، ويقبلون على الملائه ، فهم يحبون
 كل شيء ويحترمون كل شيء الا الرب فهو في المنزلة الدنيا عندهم ، حتى
 لتراهم يضيقون بكل شيء يمت الى الدين بصله ما » (٢٨)

لم تكن أخلاق المتبربرين دوى هذه الأخلاق مرتبة ، واضطر الكهنة
 للاعتراف بأنهم ظلمة أشرار ، وخونة فجار ، أو بكلمة واحدة أنهم أشد
 ايفالا في الفساد من الرومانيين (٢٩) ، ولقد صدقوا اذ قانوا ان هناك
 تشابها قويا بين رذائل كل من المتبربرين والفسقة ، لكن قد يكون من
 احقاق الحق أن نقول ان المتبربرين كانوا أكثر من الرومان تمسكا بالتعاليم
 التي يلقيها اليهم كهنتهم (٣٠)، كما كانوا متدينين بطبيعتهم ، فان ألم بهم
 الخطر لم يطمعوا في غير رحمة آلهتهم ، وكان ملوكهم يلبسون مسوحهم
 قبيل المعركة ويصلون ، مما كان مدعاة سخرية القواد الرومان بهم ، فان
 كتب لهم النصر نسبوا الفضل الى الله ، ثم انهم كانوا يحترمون رجال
 الدين سواء كانوا من الأريوسيين أم من الكاثوليك الذين يحترقهم الرومان
 الهازئون بكل ما هو كاثوليكي (٣١) ، أفعجيب بعد ذلك اذا اجتذبت
 المتبربرون عطف القسوس عليهم ؟؟ . . .

لا مشاحة في أنهم كانوا وثنيين يتلقون تعاليمهم على أيدي « معلمين
 رديئين » (٣٢) ، لكن ما الذي يدعو الكهنة الكاثوليك لليأس من هدايتهم ؟
 ترى أي مستقبل زاه كان يمكن أن يتفتح أمام الكنيسة لو أنها نجحت
 في تنصيرهم ؟

لقد كان ذلك أمل بعيدى النظر من أهل كل ولاية ، ولم يكن ذلك
 أدنى للتحقيق في مكان ما منه في أسبانيا منذ أن جب الملك « ريكارد »
 ورجاله القوط الغربيون الوثنية الأريوسية واعتنقوا الكاثوليكية سنة
 ٥٨٧ م ، ومن ثم اضطلع رجال الدين كل الوسائل لتهديب القوط
 وهدايتهم ، وكانوا قبل مجيئهم الى أسبانيا قد ألموا بشيء من مبادئ

التهذيب الرومانى نظرا لتجولهم مدى نصف قرن من الزمان فى ربوع الولايات الرومانية ، فأدركوا فوائد الحضارة والنظام ، ولقد كان من العجيب أن ترى سلالة المتبريرين الذين كانوا يذرعون غابات ألمانيا يعكفون على الكتب تحت ارشاد المطارنة ، ولدينا مراسلة فريسة بين الملك « ركسفت » وبين « بروليون » مطران سرقسطة يشكره فيها الملك على تفضله بتصحيح كتاب بعث به اليه ، ويتحدث الملك الى المطران عن الخطأ والسهو وتصحيح الناسخين (٣٣) .

غير أن الأساقفة لم يقصروا نشاطهم على هداية الملوك وتثقيفهم فى الدين بل أخذوا على عاتقهم أيضا وضع القوانين للدولة والتشريع للحاكم ، فقالوا فى فتاويهم (٣٤) ان المسيح قد اصطفاهم دون غيرهم مهذبين الأنام .

وحدث فى أحد اجتماعاتهم فى مجمع طليطلة أن خر الملك ساجدا باكيا أمام رجال الدين وهو بين عظماء دولته ، متوسلا اليهم أن يشفعوا له عند الرب ، وأن يمنحوا الدولة القوانين الرشيدة (٣٥) ، وأفهمه المطارنة أن التقوى من أولى فضائل الملوك الذين عليهم أن يتيقنوا أن الامتثال لأوامر الأساقفة هو التقوى (٣٦) ، حتى لقد كان أشد الملوك خلاعة يلزم نفسه بالصبر على الفروض الدينية فى الاحتفالات العامة (٣٧) .

بهذه الوسيلة ظهرت قوة جديدة فى الدولة ابتلعت جميع القوى الأخرى ، وظهرت كأنها تهذب الأخلاق والنظم ، وتطلع الرقيق اليها عساها تكفكف دموعهم وتمسح بكفها آلامهم ، وكانوا موضع عطف الكهنوت الكاثوليكي ومحبة الأبوية أبان سيادة الهرطقة الأريوسية ، ففتح لهم مستوصفاته ، ووهب « ملسون » أسقف ماردة التقى أوشاب كنيسسته مبلغا كبيرا من المال حتى يستطيعوا أن يحيطوا به فى عيد القيامة فى ثياب حريرية ، ولما حضرت الوفاة هذا القديس حرر من رق العبودية أخلص رجاله بعد أن ضمن لهم موارد العيش الملائم (٣٨) ، وكانت العقيدة السائدة أن الكهنوت ماضون فى معو الرق باعتباره مخالفا لروح الانجيل على الأقل ان لم يكن لنصه . وكان من المؤكد أن تحقق الكنيسة تحقيقا عمليا - وقد أصبحت قوية - هذا المبدأ النبيل الذى بشرت به عاليا أيام ضعفها (٣٩) .

لكن يا للغلظة العجيبة !!

لقد تناسى الكهنوت - حين وصلوا الى القوة - المثل العليا التى نادوا بها وقت فقرهم كما تناسوا سخرية الناس بهم واضطهادهم وتشردهم ، أما وقد أصبح الأساقفة ملاك أراض واسعة وقصور رائعة حافلة بالمبيد

فقد رأوا أنه لم يحن بعد زمن تحرير العبيد الذى يجب أن ينتظر تحقيقه قرونا لا يعرف عددها . وإذا كان القديس « ايزيدور » قسيس الفرما فى صحراء البرية يقفر مصر قد تعجب من أن يسترق مسيحي تابعا له ويجعله ملك يمينه فان هناك قسيسا آخر هو « ايزيدور » أسقف أشبيلية المعروف (الذى ظل أمدا طويلا روح مجامع طليطلة وكان مجد الكنيسة الكاثوليكية كما سماه الآباء أعضاء المجمع الثامن) أقول ان هذا القسيس لم يقتبس فى كلامه عن الرق عبارات سميه بل اقتبس مبادئ حكيى العصر القديم وأعنى بهما أرسطو وشيشيرون فقله قال الفيلسوف اليونانى « ان الطبيعة خلقت البعض ليحكموا وخلقنا الآخرين لطاعتهم » وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس من الظلم أن يقوم بالخدمة قوم لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ، وجاء نفس الشيء على لسان « ايزيدور » الاشبيلي (٤٠) ، غير أنه ناقض نفسه لأنه أقر بأن جميع الناس متساوون أمام الله ، وأن خطيئة الانسان الأولى التى اعتبرها أصل العبودية قد كفر عنها بالفداء ، ونحن أبعد ما نكون عن التفكير فى لوم الكهنوت لعدم تحريرهم العبيد أو محاربة فكرة أولئك الذين يصرون على أن العبد لم يكن أهلا للحرية . ولسنا نرغب فى محادلتهم ولكننا نكتفى بأن نقرر أمرا تمخض عن نتائج هامة جدا ألا وهو أن علم تبصر الكهنوت أدى بهم الى ألا يحققوا أبدا أمل الرقيق المتعساء الذين ازدادوا شقوة بدلا من أن تتحسن أحوالهم ، ولقد فصل القوط الغربيون فعل بقية الشعوب الجرمانية الأصل فى الولايات الرومانية الأخرى حيث فرضوا السخرة على الرقيق .

ثم ان هناك ظاهرة بينة وان خفيت - كما يبدو - على الرومان وهى أن العائلة المستترقة كانت تؤدى فى الغالب لمولاهها خدمة معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء كزراعة الأرض حيناً ، والصيد حيناً آخر ، ورعى الأغنام تارة ، والتجارة تارة أخرى ، وفى غيرها الحداة ، وهكذا دواليك (٤١) . ويستحيل على العبد أو القن أن يتزوج دون رضا مولاه ، ويبطل زواجه ان تم بغير الحصول على موافقة سيده ، ويحال بينه وبين امراته بالقوة ، وإذا اقترن أحد الأرقاء بامرأة فى خدمة سيد آخر تقاسم السيدان بالتساوى الأولاد الناتجين عن هذا الزواج . وكان قانون القوط الغربيين فى هذه الأحوال أقل انسانية من قانون الامبراطورية ، ذلك أن الامبراطور قسطنطين [الأول] حرم فصل النساء عن أزواجهن ، والأولاد عن أبويهم ، والاخوة عن أخواتهم (٤٢) . وعلى وجه العموم فليس يخامر أحدا الشك فى أن وضع الطبقة المستترقة لم يكن محتلا أيام القوط ، ويتجلى ذلك عندما يتأمل الانسان قوانينهم العديدة الفظة ضد العبيد

والرقيق الهاربين ، حتى اننا نرى فى القرن الثامن أن العبيد الأشتوريين الذين بقيت ظروفهم مماثلة لظروف غيرهم فى جميع نواحي أسبانيا قد انقلبوا ضد ساداتهم .

وإذا كان الأساقفة تقاعدوا عن عمل شيء ما للأخذ بيد العبيد فانهم لم يؤدوا أية خدمة للطبقة الوسطى ، اذ ظل الكوريال – كما كانوا فى الماضى – مرتبطين بالأرض ، أضف الى ذلك أنه لم يكن من حق أى حضرى بيع أملاكه (٤٣) .

كذلك ورث ملوك القوط عن الأباطرة فكرة الأموال الأميرية مع بقية التقاليد الرومانية الأخرى ، والظاهر أن التلاميذ قد بزوا أساتذتهم ، ومن ثم بقيت الطبقة الوسطى تعيسة مهضومة الجانِب باعتراف المجامع ذاتها (٤٤) ، وهكذا ظلت حية جميع مبادئ العهد الرومانى من تركيز الثروات الضخمة فى أيدي فئات قليلة ، كما استمر الرق ، وبقيت السخرة العامة التى كان الفلاحون بمقتضاها مرتبطين بالأرض ، والملاك بالأملاك وياليت الأمر اقتصر على أن هؤلاء الذين ادعوا أن المسيح اختارهم لهداية البشر قد أبقوا الأمور على ما هى عليه بل انهم للأسف اضطهدوا – وهم فى سورة تعصبهم – جنسا كانت له الكثرة العددية فى اسبانيا وأسرفوا فى اضطهاده ، وكان ذلك من الأمور المتوقعة .

ولقد أصاب [ميشيل] أحد ثقات المؤرخين محجة الصواب حين قال : « كلما خطر لانسان من أهل العصور الوسطى آن يتساءل كيف أن هذه الجنة المثالية فى عالم خاضع للكنيسة لا تتحقق فى عالمنا الأرضى هذا الا على شكل جحيم بادرت الكنيسة الى خنق روح المعارضة اذا أحسبت بها قائلة : « ذلك من سخط الرب وتلك جريمة اليهود » ان قتلة سيدنا لم ينالوا عقابهم بعد » ، واذا ذاك يثب الناس على اليهود .

ولقد بدأت الاضطهادات سنة ٦١٦ م زمن سيسبوت Sisebut فصدر الأمر بتنصير اليهود فى مدة عام واحد ، فاذا انتهت المدة المضروبة وبقي أحدهم على ملته جلد مائة جلدة ونفى وصودرت أملاكه . ويقال ان هناك أكثر من تسعين ألف يهودى تعمدوا بدافع الخوف ، ولكنهم كانوا أقلية اذا قيسوا بمن ظلوا على نحلتهن ، ولسنا فى حاجة لان نقول بأن تنصر هؤلاء المتنصرين انما كان فى الظاهر ، فقد استمروا على ختان أطفالهم خفية ، وممارسة بقية شعائر الديانة الموسوية سرا . ومن ثم ألا يحق لنا أن نقول ان محاولة اصطناع الشدة فى سبيل حمل هذا الشعب الكثيف على اعتناق النصرانية بالقوة كانت محاولة فاشلة ؟ .

والظاهر أن أساقفة مجمع طليطلة الرابع قد أدركوا ذلك الأمر من تلقاء أنفسهم قسمحوا لليهود بالبقاء على دين أسلافهم ، لكنهم أشاروا بانتزاع أطفالهم منهم لينشئوا على المسيحية ، ثم مالبث الكهنوت أن تخلوا عن هذا الجزء الضئيل من التسامح فعادوا يتهجون أفضح الإجراءات معهم حين نص مجمع طليطلة السادس على عدم السماح للملك ما بتصريف أمور المملكة ما لم يقسم - قبل كل شيء - على إصدار مراسيم عامة ضد ذلك الجنس « المزدول » .

لكن على الرغم من جميع تلك التشريعات والاضطهادات بقي اليهود في أسبانيا ، وامتلكوا الأراضي بطريقة غريبة (٤٥) غير عادية مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن القوانين التي وضعت ضدهم كانت قلما تنفذ بحذافيرها ، وذلك لأن الرغبة الصادقة كانت تعوزها القوة الكافية للتنفيذ .

ولقد ظل اليهود أكثر من ثمانين عاما يتجرعون غصص الآلام صابرين ، حتى اذا عيل صبرهم أزمعوا على الثأر من مضطهديهم ، فما وافت سنة ٦٩٤ م - أعني قبل الفتح العربي لآسبانيا بسبع عشرة سنة - حتى أضرموا ثورة شاملة مع اخوانهم اليهود الذين يسكنون الجانب الآخر من العسوة الذي ينزله كثير من القبائل البربرية التي تدين بالموسوية ، وحيث كان هذا الجانب ملجأ لليهود المنفيين من أسبانيا ، لذلك اتفقوا فيما بينهم على أن تثور عدة نواح دفعة واحدة في اللحظة التي يرسو فيها يهود افريقية على شواطئ أسبانيا ، بيده أن الحكومة علمت بالمؤامرة قبل موعد تنفيذها ، سرعان ما اتخذ الملك « ايجيكا » EGICA الاحتياطات اللازمة ، ثم عقد مجععا في طليطلة وأفضى الى أعضائه الروحانيين والعلمانيين بمشاريع اليهود « الاجرامية » ، وكلفهم باستعمال الشدة في معاقبة هذا الشعب « الملعون » ، فلما استمع الأساقفة الى بيانات بعض اليهود التي تتلخص في أن المؤامرة كانت ترمى الى تهويد اسبانيا اشتد بهم الغضب منهم والسخط عليهم ، وصادروا جميع أملاك اليهود وحرموهم حريتهم ، وجعلهم (٤٦) الملك عبيدا للنصارى بل ولأولئك الذين كانوا حتى هذه اللحظة عبيدا لليهود ثم حررهم الملك (٤٧) ، وفرض على السادة ألا يسمحوا لعبيدهم الجدد بممارسة شعائر الدين القديم ، وأمرهم بانتزاع أبنائهم منهم حين بلوغهم السابعة من عمرهم ، ثم ينشئونهم على النصرانية ، كما حرم التزاوج بين اليهود بعضهم وبعض ، فلا يستطيع العبد اليهودي أن يتزوج الا من أمة نصرانية ، ولا تتزوج الجارية اليهودية الا عبدا مسيحيا (٤٨) .

لا مشاحة في أن هذه المراسيم قد طبقت بحذافيرها إذ لم يعد الأمر قاصرا هذه المرة على عقاب «الكفرة» بل شمل المتآمرين الخطرين أيضا ، ومن ثم ففي الوقت الذي غزا فيه المسلمون شمال افريقية الشرقي كان يهود اسبانيا يرزحون تحت نير شديد الوطأة قل أن يحتمل ، فكانوا يتطلعون في لهفة الى لحظة خلاصهم ، فلا عجب ان رأوا أن العناية الالهية قد قيضت لهم منقذين هم الفاتحون [العرب] الذين فرضوا عليهم جزية تافهة ، وردوا عليهم حريتهم ، وسمحوا لهم بممارسة شعائهم جهرا (٤٩) .



كان اليهود والرقيق والطبقة الوسطى المعوزة أعداء الداء لهذا المجتمع المتصدع الذي كانت عوامل التخلل تنخر فيه من كل النواحي ، ومع ذلك فلم يكن لأصحاب الامتيازات قوة يدفعون بها الغزاة غير أولئك العبيد من النصارى واليهود .

ولقد رأينا آنفا أنه في أواخر أيام الامبراطورية الرومانية انخرط رقيق الأرض في سلك الجيش وأبقى القوط على هذا النهج ، ولم تكن هناك أية ضرورة تدعو لتحديد عدد العبيد الذين ينبغي على كل مالك أن يقدمهم طالما كانوا محافظين على روحهم الحربية ، لكنهم حينما مالوا فيما بعد للثراء من وراء عمل العبيد والرقيق صار من الضروري جعل التجنيد في الجيش اجباريا ، وذلك ما شعر به الملك « فامبا Wamba » إذ تشكى في أحد مراسيمه من أن الملاك المهتمين بزراعة أراضيهم لا يكادون يجندون واحدا من عشرين من عبيدهم حين تدعو الضرورة الى حمل السلاح ، وأمر أن يجند كل مالك - قوطيا كان أم رومانيا - عشر عبيده (٥٠) .

والظاهر أنه قد صدر أمر بعد ذلك يقضى بتجنيد نصف (٥١) عبيد كل مالك ، وبذلك زاد عدد العبيد في الجيش على عدد الأحرار حتى ليتمكن أن يقال ان الدفاع عن الدولة أصبح موكولا في جوهره الى أولئك الذين كانوا يؤثرون الاتفاق مع العدو على الدفاع عن مضطهديهم .



الفصل الثامن

حركة موسى بن نصير التوسعية • ضعف قبضة ييزنعة على
ممتلكاتها • خبر الكونت يوليان وابنته مع الملك لذريق آخر
ملوك القوط الغربيين • الحملة على الجزيرة الخضراء • حملة
طارق بن زياد واصطدامه بلذريق الذي استعان بابن غيطشة
واتباعهما الناقمين عليه • انتصارات العسكر الاسلامي •
الاضاع العامة بعد دخول العرب مباشرة • حرية الملكية
للمسيحيين الاسبان • تحسن ظروف الحياة العامة للطبقات
الدنيا والعبيد • الاحوال العامة بعد قرن من الفتح • تدمير
طبقة المولدين وتحركاتهم الثورية •

فتح العرب لاسبانيا

لقد رأينا آنفا كيف أن حالة أسبانيا ازدادت سوءا فى عهد القوط عما كانت عليه زمن الرومان ، وذلك لأن جرثومة الانحلال أخذت تنخر منذ زمن بعيد فى جسم الدولة التى بلغت غاية قصوى من الضعف حتى أصبح من اليسير سحق البلد فى طرفة عين بجيش قوامه اثنا عشر ألف رجل تساعده الخيانة (١) .

ولقد مد موسى بن نصير والى أفريقية حدود الدولة حتى بلغت المحيط ، ولم تستعص عليه غير مدينة « سبته » التى كانت تابعة اذ ذاك للامبراطورية البيزنطية التى كانت تسيطر من قبل على ساحل أفريقية بأجمعه ، غير أن بعد الامبراطور [البيزنطى] عنها بعدا عظيما جعله عاجزا عن مد يد المساعدة الفعالة اليها مما عمل على توطيد علاقة سبته مع اسبانيا [أكثر من توطيدها مع بيزنطة] ، وقد حث أن أرسل يوليان (٢) - حاكم سبته - ابنته الى بلاط طليطلة لتنشأ نشأة تتكافأ وشرف أصلها ، غير أنها لسوء الحظ راقت فى عينى الملك لذريق فثلم شرفها (٣) ، فدفعت سورة الغضب العارم أباه يوليان لموادة موسى بن نصير وفتح أبواب أسبانيا له بعد أن عقد معه معاهدة يستفيد منها . ثم حدثه يوليان عن اسبانيا ، وأغراه بالوثوب عليها لفتحها ، وتعهد له بوضع سفنه تحت امرته ، فكتب موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه فى الفتح ، فتخوف الوليد من المشروع ، ورد على موسى أمرا اياه أن يغزو اسبانيا بجند خفاف ، وحذره من أن يعرض جيشا كبيرا للخطر فيما وراء البحر .

وحينذاك ندب موسى أحد مواليه واسمه « أبو زرع طريف » الى اسبانيا فى أربعمائة رجل ومائة فارس ، وعبرت هذه الحملة المضيق فى أربع سفن أمدها بها يوليان ، فنهبت أرباض « الجزيرة الخضراء » ثم عادت

الى أفريقية فى يوليو سنة ٧١٠ م [= ٩١ هـ] ، فلما كانت السنة التالية اغتنم موسى بن نصير فرصة ابتعاد لذريق عن أسبانيا لانشغاله باخماد ثورة الباشقاوية ، وندب لها مولى آخر من مواليه هو طارق بن زياد قائد مقدمة جيشه ، وعقد له الراية على سبعة آلاف مسلم معظمهم من البربر ، وصحبهم يوليان ، وتمكنوا من عبور المجاز بعضهم اثر بعض على السفن الأربعة التى استعملها طريف من قبل اذ لم يكن للمسلمين سواها ، ثم جمع طارق صحابه على الجبل الذى لا يزال يسمى الى اليوم بجبل طارق والذى تقوم على سفحه مدينة قرطاجة (٤) Carteya التى سير طارق ضدها كتيبة بقيادة أحد الضباط العرب القلائل الموجودين فى جيشه وهو عبد الملك من قبيلة معافر (٥) ، فما لبثت قرطاجة أن سقطت فى يد المسلمين (٦) .

حينذاك تقدم طارق الى الأمام حتى اذا بلغ « البحيرة » (٧) تناهى الى سمعه أن الملك لذريق زاحف عليه بجيش كالدبى كثرة ، ولما لم يكن عنده طارق سوى أربع سفن فقد كان من العسير عليه العودة بجيشه الى افريقية لو أنه فكر فى ذلك ، لكن هذا الخاطر لم يدر أبدا بحسبانته ، فقد تكاثفت الرغبة والطموح والحماسة على دفعه للتقدم ، فطلب من موسى المدد فأمدته موسى بخمسة آلاف رجل من البربر أركبهم السفن التى ذأب على بنائها منذ رحيل قائده ، وبذلك بلغت قوة طارق اثنى عشر ألف رجل ، وهم قلة اذا قيسوا بجند لذريق الكثيف ، غير أن الخيانة كانت متفشية فيه فأضرته وساعدت المسلمين .

كان لذريق قد اغتصب التاج الذى على مقره ، واذا كان اعتماده على كثير من الأمراء فقد خلع عن العرش سلفه « غيطشة » ، والظاهر أنه قتله مما أدى الى تكوين حزب مناهض له يحركه ويفقيه أخوة الملك السابق وبنوه . وسعى لذريق فى ضم وجوه هذا الحزب الى جانبه ، فدعاهم لمساعدته وهو ماض لقتال طارق ، فأجابوه لطلبه امثالاً للقانون الذى يحتم عليهم طاعة الملك ، وان كانت صدورهم منطوية على كراهيته وعداوته وعدم الثقة به ، فاتفقوا فيما بينهم على التخلل عنه حين مواجهة العدو ، ولم يكن معنى ذلك أنهم يرغبون فى تسليم وطنهم الى البربر ، اذ ما كان لهذا الخاطر أن يدور قط بخلداهم لا سيما وهم يتطلعون لاسترداد السلطان والعرش مما لا يتسنى لهم اذا هم أسلموا البلد للأفريقيين ، اعتقاداً منهم - عن حق - أن البربر لم يطؤوا أرض المملكة للاستقرار ولتأسيس دولة لهم ، بل كانوا يحسبونهم قسموها للسلب فقط ، فكانوا يقولون : « ان

كل ما ينشده هؤلاء الأعراب إنما هو الغنيمة فحسب ، فإن هم أصابوها عادوا أدراجهم الى افريقية » .

ثم ان هؤلاء المتمردين كانوا يطمعون أن يفقد لذريق في الهزيمة سمعته كقائد شجاع منتصر مما يزكى مطلبهم في التاج ، فان قتل كان ذلك أجدى لهم . والخلاصة أن أنايتهم سيطرت عليهم فلم ينظروا الى المستقبل البعيد ، فكان تسليم وطنهم للعرب فوق ارادتهم وعلى غير هواهم .

وبدأت المعركة عند شاطيء بكة (٨) « يوم ١٩ يوليو سنة ٧١١ م (= ٩٢ هـ) وكان ابنا غيطشة على جناحي الجيش الاسباني ، وكان معظم رجالهما من عبيدهما الذين استجابوا لأوامر سادتهم فما لبثوا أن ولوا العدو ظهورهم .

أما القلب فقد قاوم فترة من الوقت ، وكان بقيادة لذريق نفسه الذي لم يلبث هو الآخر أن فر ، واذ ذاك استحر القتل في صفوف رجاله على يد محاربيهم . والظاهر أن لذريق ذاته كان بين القتلى اذ كان هذا آخر العهد به ، وبقيت البلاد بلا ملك يسوسها في وقت كانت أحوج ما تكون فيه الى من يدبر أمورها .

واغتتم طارق هذه الفرصة فأخذ في التوغل في البلاد بدلا من العودة الى افريقية كما كان المتوقع وكما أمره موسى ، ولقد ساعد هذا التوغل على سرعة انهيار الامبراطورية الواحية ، كذلك يسر الأمر على الغزاة موقف المتنمرين والمضطهدين والعبيد الذين لم يحركوا ساكنا خشية أن يؤدي الأمر الى نجاة سادتهم . كما أخذ اليهود في الثورة في كل مكان وفي التمرد على الاسبان ، وراحوا يعاونون المسلمين .

وانتصر طارق انتصارا آخر قرب استجة ECIZA ومن ثم زحف بمعظم جيشه على طليطلة ، وبعث السرايا ضد قرطبة و « أرشذونة » و « البيرة » فاستسلمت أرشذونة دون مقاومة وهرب سكانها الى الجبال واعتصموا بها ، وخضعت البيرة ELVIRA بعد مقاومة عنيفة فعهد بحراستها الى حامية قوامها اليهود والمسلمون ، كما أن أحد الرعاة العبيد مكن العرب من الاستيلاء على قرطبة اذ دلهم على ثغرة نفذوا منها الى المدينة، وخان اليهود المسيحيين في طليطلة ، وهكذا ضربت القوضى بأجرانها على جميع النواحي وخيل الى الناس أن الأشراف والقسيس قتلوا وعيهم حتى ليقول مؤرخ مسلم(٩) ان الخوف ملأ قلوب الكفار ، والواقع أن الاضطراب كان عاما ، وخلت قرطبة من الأشراف اذ غادروها ، ولم يعد لهم أثر في

طليطلة فقد التجأوا الى « غاليسيا » حتى ان المطران نفسه غادر أسبانيا والتمس النجاة في رومة . أما الذين لم يحاولوا الهرب فقد طمعوا في الحصول على الأمان أكثر من طمعهم في الدفاع عن أنفسهم ، ومن هذا الفريق أمراء بيت غيطةشة ، ولما كانوا يعدون خيانتهم لأبناء جنسهم دليلا على ترحيبهم بالمسلمين فقد أجابهم العرب الى ما سألوهم اياه من استرداد أملاك التاج التي لا يحق أن يتمتع بها أحد سوى الملوك ، وكانت هذه الأملاك تتألف من ثلاثة آلاف مزرعة ، ثم اختير « أوباس » - أحد اخوة الملك - حاكما على طليطلة .

وهكذا شاعت الصدفه الطيبة أن تؤدي الغزوة البسيطة الى الفتح ، واستاء موسى لهذه الخاتمة أشد الاستياء ، فهو وان كان يتطلع الى فتح اسبانيا الا أنه كان يطمع في أن يتم هذا الفتح على يديه هو لا على يد أحد سواه ، فحسد طارقا على ما ساقه هذا الغزو له من البطولة والخير ، وكان من حسن حظه أنه لا يزال في شبه الجزيرة مجال للعمل إذ لم يكن قد تم لطارق الاستيلاء على جميع المدن أو احتجان جميع ثروات البلد ، فصمم موسى اذ ذاك على الذهاب الى اسبانيا ، وما وافى شهر يونيو سنة ٧١٢ م [= رمضان ٩٣ هـ] حتى عبر المضيق وفي صحبته ثمانية عشر ألف عربي استولى بهم على مدينة شذرنة ، واتفق معه من انضم اليه من الاسبان على تسليمه « قرمونة » فجاءوا مسلحين الى أبوابها متظاهرين بأنهم هربوا من العدو ، وسألوا أهلها الاذن لهم بدخولها فأدخلوهم ، ثم ما لبثوا أن اغتبنوا فرصة الظلام ففتحوا أبوابها للعرب .

لقى العرب مشقة في الاستيلاء على اشبيلية التي كانت أكبر مدن أسبانيا ثم استسلمت بعد حصار دام شهورا عدة ، كما قاومت « ماردة » مقاومة عنيفة وان انتهت بالاستسلام في أول يونيو ٧١٣ م [= رمضان ٩٤ هـ] ، فزحف موسى بعدئذ الى طليطلة ومضى طارق لمقابلته مظهرا له آيات الود والولاء وترجل من بعيد حين رآه ، غير أن موسى كان متلفعا له على ضيق وضغن فجلده وسأله عما دعاه الى مخالفته اذ واصل الزحف الى الأمام وقد أمره بأن يعود الى افريقية غداة الغزو .

وتم فتح أسبانيا - عدا بعض ولايات الشمال - دون صعوبة اذ لم تكن تمت جدوى تعود على البلاد من المقاومة في وقت ليس لديها فيه من ملك يدبر أمورها ، ومن ثم تأتي للأسبان الحصول على الشروط الملائمة ، على حين أنهم كانوا يفقدون أملاكهم لو أنهم حاولوا الوقوف في وجه المغير ثم انتهى الوقوف الى الاستسلام (١٠) له .

لم يكن الفتح على وجه العموم نكبة كبرى ، وليس من شك في أنه قد صحبه في البداية شيء من الاضطراب كما حدث ابان غزو القبائل

الجرمانية من نهب كثير من النواحي واحراق بعض المدن وشنق الاشراق الذين لم يسعفهم الوقت بالنجاة والفرار وقتل الاطفال ، لكن سرعان ما أحمدت الحكومة العربية هذه الاضطرابات وقضت على الأساليب الوحشية فعادت الطائنية ترفرف على الناس ، وقابل الشعب المتنمر فى هدوء ما قدر له أن يلقاه ، والواقع أن الاحتلال العربى كان أخف كثيرا من وطأة الاحتلال القوطى ، اذ أبقى الفاتحون للمغلوبين قوانينهم وقضائهم، ورأسوا عليهم قوامس أو حكاما من نفس جنسهم وكلوا اليهم جميع الضرائب الواجب دفعها ، وعهدوا اليهم بفرض المنازعات التى قد تنشعب فيما بينهم .

أما أراضى المناطق التى فتحت قسرا كأمالك الكنيسة والأشراق الهاربين الى الشمال فقد تقاسمها الغزاة وان بقى بها العبيد الذين كانوا فيها من قبل ، وسار العرب على هذا المنوال فى كل ناحية ، واقتصر عمل الأهالى على ممارسة (١١) الزراعة التى ترفع الفاتحون عنها ، وفرضوا على العبيد ما كانوا يقومون به فى الماضى من الفلاحة ، على أن يسلموا الى الملك المسلمين أربعة أخماس الغلة وغير ذلك مما يزرعون .

أما الذين استقروا فيما امتلكته الحكومة - وهو شيء كبير لاشتماله على خمس الأراضى المصادرة - فلا يقدمون سوى ثلث المحصول الذى كانوا يدفعونه من قبل لخزانة المولى ، ثم تبدل الأمر فيما بعد فتحول قسم من أملاك الحكومة الى اقطاعيات أقطعت للعرب الذين جاءوا للاستقرار فى أسبانيا ، وإلى رفاق السمع ، وإلى الطلبة البلجية الشامية ، ولم يكن هناك فارق بينهم وبين المزارعين النصارى فى تلك الناحية سوى أنهم كانوا يقدمون ثلث غلة أرضهم الى أصحاب اقطاعيات بدلا من تقديمه للحكومة .

أما بقية المسيحيين فقد توقفت حالتهم على المعاهدات التى تمكنوا من عقدها والتى استفادوا من بعضها فائدة كبرى ، فاحتفظ سكان « ماردة » - مثلا - الذين كانوا بها وقت الاستسلام بجميع ما يملكون ، ولم يأخذ الفاتحون سوى متعلقات الكنائس وتحفها ، كما أنهم لم يأخذوا شيئا قط من نصارى الولاية التى كان يحكمها « تدمير » ولا من مدنها « لورقه » و « ميلة » Mula و « لهنث Orihuela » بل كان كل ما هنالك أنهم تعهدوا بدفع الجزية على شكل مال وثيراب (١٢) .

وعلى وجه العموم فانه يمكن القول بأن المسيحيين احتفظوا بمعظم أملاكهم ، بل لقد أصبح لهم الحق فى التصرف فيها بالبيع وهو حق كان محرما عليهم أيام القوط ، غير أن الحكومة فرضت عليهم دفع جزية سنوية

قدرها ثمانية وأربعون درهما عن الغنى ، وأربعة وعشرون عن المتوسط ،
 واثنا عشر درهما عن العامل (١٣) ، وكانت الجزية تقسم على أقساط ، يدفع
 كل قسط منها في نهاية كل شهر قمرى (١٤) ، بيد أنها رفعتها عن النساء
 والأطفال والرهبان والزمنى والعمرى والمرضى والمتسولين . أضف الى ذلك
 'أنه كان مفروضا على الملاك دفع « الخراج » وهو ضريبة تجبى عن المحصول
 وتحدد طبقا لطبيعة أرض كل كورة ، وكان متوسطها فى العادة عشرين
 فى المائة ، ووضعت الجزية عمن يسلمون ، أما الخراج فيستمر رغم اسلام
 المالك .

لم تكن حال النصارى فى ظل المسلمين شديدة الوطأة اذا هي
 قورنت بما كانوا عليه من قبل ، زد على ذلك أن العرب كانوا شديدى
 التسامح فلم يضيقوا الخناق قط على أحد ما فى الناحية الدينية ، ولم
 تكن الحكومة تميل لدفع المسيحيين الى اعتناق الاسلام حتى لا يخسر بيت
 المال الشئ الكثير (١٥) ، ثم انها لا تعتمد الى ذلك الأمر الا اذا كانت شديدة
 التعصب وهو شئ نادر قليل الحدوث ، ولم يجحد النصارى جميلها هذا ،
 فكانوا راضين عنها لتسامحها واعتدالها ، وآثروا حكمها على حكم القبائل
 الجرمانية والفرنجة (١٦) ، فانهدمت الثورات أو كادت طوال القرن الثامن
 للميلاد ، ولم يشر المؤرخون الا الى ثورة واحدة قام بها نصارى « باجة »
 الذين يظهر أنهم كانوا آلة فى يد زعيم عربى طماع (١٧) ، ويبدو أن
 القسس أنفسهم لم يكونوا ناقلين على الحكومة - ولو فى البداية على
 الأقل - رغم ما تدفعهم طبيعتهم اليه من نقمة عليها ، ويمكن للمرء أن يكون
 لنفسه فكرة عن وجهة نظرهم حين مطالعته لحواليات لاتينية ألقت فى
 قرطبة سنة ٧٥٤ م [= ١٣٧ هـ] وهى الحواريات المنسوبة خطأ لابيزيدور
 الباجى ، وعلى الرغم من أن مؤلف هذا السفر من رجال الكنيسة الا أنه
 أميل للمسلمين من أى مؤلف أسباني آخر من أهل القرن الرابع عشر ،
 ولا يعنى هذا أنه كانت تنقصه الوطنية بل كان على العكس من ذلك يندب
 سوء طالع اسبانيا ويمقت الحكم العربى ، غير أن كراهيته للفاتحين
 تنلخص فى أنه يراهم رجلا من غير جنسه أكثر مما يكره فيهم أنهم على
 دين غير دينه . كذلك نرى أن الأمور التى أثارت غضب رجال الدين فى
 فترة أخرى لم تدفعه هو لقول أية كلمة تنطوى على ذمهم ، فهو يشير مثلا
 الى زواج عبد العزيز بن موسى من أرملة للدريق دون أن يستنكره أو
 يتأقف منه ، بل الظاهر أنه كان يراه أمرا طبيعيا (١٨) .

وكان الفتح العربى - من بعض الوجوه - خيرا على اسبانيا فقد
 أحدث ثورة اجتماعية خطيرة وقضى على شطر كبير من المساوىء التى كانت
 البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون ..

أما سلطان أصحاب الامتيازات والكهنوت والأشراف فقد تضاعف الى حد الثلاثي ، وظهرت الملكيات الصغيرة نظرا لتوزيع الاراضى المصادرة على عدد كبير جدا من الناس مما انطوى على الخير العميم ، وكان من أحد الأسباب التى أدت الى ازدهار الزراعة فى اسبانيا العربية .

كذلك عمل الفتح على تحسين حال الطبقات الدنيا ، وكان الاسلام أميل من النصرانية لتحرير العبيد الذين يشسوا من تحريرهم على أيدى القسس أيام الحكم القوطى ، فقد أمر الرسول [صلعم] تنفيذا للشرعة يعتق الرقيق ، وذكر أن تحرير رقبة عبد عمل يثاب المرء عليه أعظم الثواب وغالبا ما يعتق العبد بعد بضع سنوات من شرائه لا سيما اذا اعتنق الاسلام (١٩) .

كذلك تحسنت حال رقيق الأرض الموجودين فى أملاك المسلمين فأصبحوا زراعا وتمتعوا بنصيب من الاستقلال وصار لهم مطلق الحرية فى زراعة الأرض وفق ما يشتهون لعدم تنزل سادتهم الى احتراف الفلاحة .

أما الطبقات الأخرى من النصارى فقد يسر لها الفتح سبيل التحرر اذ لم يكن عليها - اذا شاءت - سوى الهروب الى أرض مسلم والنطق بهذه الكلمات « أشهد ألا اله الا الله » ، وأن محمدا رسول الله » ، وبهذه الوسيلة ازداد عدد الطلقاء ، واذن فلا محل للعجب للسهولة التى جبوها بها المسيحية .

على الرغم من سلطان القسس العظيم الذى تمتعوا به منذ زمن القوط الا أن النصرانية لم تتأصل فى اسبانيا التى كانت خالصة الوثنية وقت أن اتخذ قسطنطين المسيحية ديناً للدولة ، ثم بقيت اسبانيا زمناً مقيمة على الولاء للعبادة القديمة حتى لقد كانت الوثنية والنصرانية تتنازعان البلد وقت الفتح العربى مما دفع القسس الى تهديد « عباد الآلهة الكاذبة » واتخاذ الاجراءات الحازمة ضدهم (٢٠) . أما أولئك المسمون بالمسيحيين فقد كانت النصرانية كلمة تجرى بها شفاهم أكثر مما تمس شفاف قلوبهم ، فقد احتفظ سلالة الرومان بالشك الذى امتاز به أسلافهم . أما أبناء القوط فلم يشغلوا أنفسهم كثيرا بالمسائل الدينية الا بمقدار ما شغل به الاريوسيون أنفسهم ، اذ سرعان ما تكتلكوا حين تكتلك الملك ويكارد .

أما سادة المملكة القوطية الأغنياء الذين شغلتهم أمور غير هذه الأمور والذين رفضوا الهرطقة وتنازعوا فيما بينهم فى العقائد والأسرار وحكم الدولة واضطهاد اليهود فلم يجدوا وقتا يصرفونه فى « أن يجعلوا

أنفسهم صفارا مع الصغار ، في التحدث إليهم في المبادئ الأولية للحقيقة
الا بمقدار سعادة الأب بالتمتع مع طفله ، كما يقول سانت أوجستين ،
ومع أنهم اعتنقوا النصرانية الا أنهم لم يكونوا يميلون إليها .

ومن ثم فليس عجيبا أن يستسلم العبيد عن طيب خاطر لما عرضه
عليهم الفاتحون [المسلمون] من الحرية لقاء اعتناقهم الاسلام ، وكان
بعض هؤلاء التعساء لا يزال على وثنيته ، أما البقية فلا تعرف عن النصرانية
الا التافه الضئيل ، ذلك أن التعاليم الدينية التي تلقوها كانت بدائية جدا
لا تنقش غلة ولا تبسل ظمأ ، وكانوا لا يدركون أسرار الكاثوليكية
ولا الاسلام (٢١) ، وكان كل ما عرفوه وأدركوه ادراكا تاما هو أن
القساوسة فجعوهم فيما منوهم به في بعض الأيام ألا وهو التحرر من
الرق والعبودية ، وكان كل ما يتطلعون اليه هو التخلص بأى ثمن من
النير الذي يرسفون فيه ، ولم يكونوا هم وحدهم الذين نبذوا العبادة
القديمة بل فعلهم كثيرون من الخاصة مدفوعين الى ذلك اما برغبتهم
في التخلص من دفع الجزية أو المحافظة على أملاكهم ما دام الفاتحون
لا يقيمون وزنا للمعاهدات ، واما لأنهم كانوا مؤمنين إيمانا صادقا بقدسية
الاسلام .



لم نشر حتى هذه اللحظة الا الى التحسن الذي أحدثه الفتح العربى
فى أوضاع البلد الاجتماعية ، غير أن الانصاف يقتضينا أن نقول انه اذا
كان لهذا الفتح محاسنه من عدة وجوه فله أيضا مساؤه من وجوه أخرى .
كانت الحرية الدينية مطلقة .

لكن كانت الكنيسة مقيدة تقاسى المذلة الصارمة ، فقد انتقل
حق دعوة المجامع للانعقاد وتعيين الأساقفة وخلصهم من أيدي ملوك (٢٢)
القوط الى سلاطين العرب (٢٣) ، كما انتقل فى الشمال الى ملوك
الاستوريين (٢٤) ، وكان هذا الحق الخطير مصدرا دائما للشور والعيوب
والفضائح للكنيسة حين أصبح فى أيدي أعداء المسيحية ، ذلك أنه لو حدث
أن رفضت جماعة من القس حضور مجمع من المجامع فانه يكون فى قدرة
السلطان أن يحل مكانها رهطا من اليهود والمسلمين (٢٥) ، كما كانت
وظيفة الأسقف تمنح لمن يغلى فى الثمن ، وبذلك يعهد النصرانى بأعز
مصالحهم وتمدساتهم الى هراطقة وفسقة ممن كانوا ينصرفون عن أعياد
الكنيسة الرسمية الى موائد رجال الحاشية من العرب ، وعهدوا بها الى
ملاحدة كفار يجاهرون بنكران الحياة الثانية ، والى ساقطين لا يكفون
ببيع أنفسهم بل يقلعون على بيع أتباعهم (٢٦) . وقد حدث فى احدى

المرات أن شكاً جياة الضرائب من فجاح كثير من نصارى مالقة فى التهرب من دفع الجزية بالاختفاء ، وحينذاك تقدم « هوستيجيسيس » أسقف أبرشية مالقة وتعهده بتزويد الجياة بثبت كامل بأسماء جميع المزمين بدفع الجزية ، وأوفى الأسقف بمعهد ، وفى أثناء جولته السنوية سأل أبناء أبرشيته أن يوافوه بأسمائهم وأسماء أقاربهم وأصدقائهم زعماً منه أنه يسجلها فى ثبت عنده ليدعو الله لكل فرد من أفراد رعية كنيسته ، فجازت الحيلة على النصارى الذين لم يظنوا ظن السوء فى نوايا راعيهم ، وبذلك لم يتأت لشخص ما أن يهرب من الجزية ، ومن ثم عزف الجياة جميع من يجب عليهم دفعها ، وكان الفضل فى هذا راجعاً الى سجل الأسقف « هوستيجيسيس » (٢٧) .



لما ثبتت دعائم الاحتلال الأجنبى لم يعد العرب يراعون العهود كما كانوا يراعونها وقت أن كانت قوتهم لا تزال مزعزة ، يؤيد ذلك ما حدث فى قرطبة فقد هدمت جميع كنائسها عن آخرها ، ولم يبق لمن بها من النصارى سوى الكاتدرائية المهداة الى القديس « فنسانت » والتي كان استئناؤها بعد عقد معاهدة ظلت مرعية الجانب بضع سنوات (٢٨) ، غير أن قرطبة ما لبثت أن ازداد سكانها بمن قدم اليها من عرب الشام ، فضاقت مساجدها بهذا العدد الوفير من المصلين، فرأى الشاميون أن يغلوا بقرطبة ما فعلوه بدمشق (٢٩) وحمص (٣٠) وبعض البلدان الأخرى فى وطنهم حيث أرغموا من بها من النصارى على التنازل لهم عن نصف كنائسهم لتحويلها الى مساجد ، واستصوبت الحكومة وجهة نظرهم هذه فارغمت المسيحيين على التخلي عن نصف بيعهم ، وكان هذا بلا شك انتهاكاً ونقضاً للعهد المبرم بين الجانبين .

ثم حدث فيما بعد فى سنة ٧٨٤ م [١٦٨ هـ] أن طلب عبد الرحمن الداخل من النصارى أن يبيعوه النصف الآخر فأصروا على رفض طلبه قائلين انهم لو باعوه ما أراد لما بقى لهم مكان يؤدون فيه شعائر دينهم ، ثم تم الاتفاق على أن يتنازل له النصارى عن احدى الكنائس نظير مائة ألف دينار (٣١) بعد أن أذن لهم بإعادة بناء الكنائس التى هدمت (٣٢) ، وأنصف عبد الرحمن القوم هذه المرة الا أنه لم يتبع هذه الحطة على اللوام ، فقد كان هو الذى نقض المعاهدة التى أبرمها أعداء غيطشة مع طارق والتي أقرها الخليفة ، كما صادر أراضى « أردبست » أحد أشراف الأمراء لا لسبب الا لأنه رآها أكبر من أن تكون لمسيح (٣٣) ، كما تناول التغيير والتعديل معاهدات أخرى بطرق قسرية حتى لم يكده يبقى لها أثر ابان القرن التاسع ، زد على ذلك أن الفقهاء أخذوا ينادون بأن الحكومة ينبغى أن تظهر تحمسها للدين بزيادة الضرائب المفروضة على المسيحيين (٣٤) ،

فبالفت في ذلك ، وما جاء القرن التاسع الا وقد أملق كثير من الجماعات النصرانية ومن بينهم نصارى قرطبة (٣٥) .
ومجمل القول أنه حدث في اسبانيا ما حدثت في جميع البلدان التي فتحتها العرب ، اذ امتاز حكمهم في البداية باللين والانسانية ثم تحول الى عنف مرهق (٣٦) .



ومع ذلك لم يكن النصارى أكثر الناس تدمرا بعد قرن واحد من الفتح بل كان أشد المتكوبين به أولئك العلوج الذين سماهم العرب بالمولدين ، ولم يكن الأعلاج جسيهم على نمط واحد من التفكير فكان فيهم من يسمون بالنصارى (٣٧) التوابين Ch ristiani Occulti ونعني من أسرفوا في الندم على ردتهم ، وكانوا أشد القوم تعاسة لعدم استطاعتهم العودة الى النصرانية اذ لا يعرف الشرع هودة ازاء الردة ، فالعلج اذا أسلم - وقد يكون ذلك في لحظة يأس أو ضعف أو انهيار عزيزة أو في لحظة ضنك لا يجد فيها المال لدفع الجزية (٣٨) ، أو اذا خاف أن يحكم عليه بما يدنسه (٣٩) - أقول اذا أسلم العلج تحت ظرف من هذه الظروف عد مسلما على الدوام ، فان ارتد جرم وسفك دمه ، وكان ينكل بأبناء العلوج اذا هم رغبوا في العودة الى حضن الكنيسة ، وبذلك يضرس الأبناء بما فعله الآباء لأن الشرع يعتبرهم مسلمين ما داموا قد ولدوا على فراش أب مسلم ، ويحق عليهم القتل ان هم جبوا الاسلام .

لذلك كان من الطبيعى أن يتدمر المولدون ويرمضهم الندم ، غير أنهم كانوا أقلية ضئيلة العدد ، أما معظمهم فكانوا صادقى التعلق بالاسلام . وان كان لهم أيضا ما يحملهم على الشكوى ، وقد يبدو ذلك عجيبا لأول وهلة ، اذ كيف يتأتى لهؤلاء المولدين - وأغلبهم من الطلقاء الدين حسن الفتح أحوالهم - أن ينقموا على العرب ؟ ... ليس ذلك بمستغرب أبدا « فالتاريخ مليء بأشباه هذه الحوادث ، اذ ليس من الضرورى دائما أن يكون السير من سوء الى أسوأ هو الدافع الى الثورة ، وكثيرا ما يحدث أن يتحمل شعب من الشعوب أشد النكبات وكأنه غير شاعر بها ، وتفرض عليه أصرم القوانين فلا يثن منها ، لكنه لا يلبث أن يشور حالما تنتهى هذه الحال » (٤٠) .

أضف الى هذا أن الوضع الاجتماعى أثقل كاهل العلوج وأمض نفوسهم ، فقد جرى العرب على منعهم من الوظائف ذات الرواتب الكبيرة فى جميع دواوين الحكومة لشكهم فى صدق ايمانهم ، وأسرفوا فى التعالى عليهم ، ولما كان خاتم العبودية لا يزال واضح المعالم على جباه جماعة تحررت منذ زمن قريب ، فقد كان العرب يسمونهم بالعبيد أو أبناء العبيد (٤١) على الرغم من أنه كان بينهم كثيرون من أشراف البلد وأثرى ملاكه ، فأئف

المولدون من تلك المعاملة ، وكانوا يشعرون بمكانتهم وبما لديهم من القوة المادية لأنهم يؤلفون غالبية الشعب ولم يقبلوا أن تكون القوة وقفا على فئة قليلة منطوية على ذاتها ، وعز عليهم أن يظلوا فى هذا الوضع الاجتماعى المهين ولم يعودوا يحتملون احتلال جماعة من الجند الأغراب ينزلون فى معسكرات بعيد بعضها عن بعض ، وعن ثم حملوا السلاح وشرعوا فى نضالهم العنيف .

واتخذت ثورة العلوج التى ساهم فيها النصارى على قدر طاقتهم مظهرا يخالف مظهر كل ثورة أخرى فتمردت جميع الولايات والمدن الكبرى ، كل على حدة ، وفى أوقات مختلفة ، بيد أن هذا الاختلاف كان عاملا على طول الصراع وشدته كما سيراى القارىء فيما بعد .



الفصل الثالث

اوليات عهد عبد الرحمن الاول الطيبة • الامير هشام يختار
فضاته من تلاميذ مالك بن انس • الفقيه يحيى بن يحيى
البربرى وازدياد شأنه • انقلاب الفقهاء على الأمير • تأمرهم
عليه ومحاولتهم عرض الحكم على ابن شماس ولكنه يفدر
بهم • القبض على بعض المتآمرين • وقوف غريب الشاعر
ضد الحكم • أطباع عمروس الشخصية تدفعه للتآمر على بنى
جلدته • الخيانة - المذبحة فى شيوخ طليطلة •

يوم الحفرة ونتائج

كان عدد المولدين (١) عظيما في العاصمة وكان معظمهم من الطلقاء الذين يمارسون فلاحه الأرض التي اشتروها أو ممن يعملون في أراضي العرب (٢) ، وقد مكنتهم حكمهم وقوتهم واقتصادهم من أن يصيبوا حظا من الرفاهية ، يتجلى ذلك في سكنهم على الخصوص في الرض (٣) الذي كان من أجمل ضواحي المدينة ، غير أنه كانت تسيطر عليهم نزعات ثورية ، كما أسلموا قيادهم - في عهد الحكم الأول - الى الفقهاء الطامحين الذين جروهم الى ثورة أدت الى نكبة فظيعة وقعت بهم .

لقد كان عبد الرحمن الأول أحرص على سلطانه من أن يأذن للفقهاء ورجال الدين بممارسة أى سلطة للتدخل في أساليبه الاستبدادية ، لكن نفوذ هذه الجماعة ما لبث أن ازداد زيادة كبيرة أيام ولده وخليفته هشام الذي كان في حقيقته رجلا متدينا ومثلا للفضيلة ، والذي تساءلت رعيته وقت اعتلائه العرش عما اذا كان يؤثر الخير أو يقيضه اذا خير بينهما ، ذلك أنه كان يظهر الطيبة والسماحة في بعض الظروف (٤) ، ويبدى في ظرف أخرى رغبة في النار ويجنح للقسوة (٥) ، غير أن الشك تلاشى في هذه الناحية حين تنبأ له أحد المنجمين (٦) بالموت المبكر (٧) ، فعزف منذ هذه اللحظة عن جميع الملذات الدنيوية ولم يعد يشغل نفسه الا العمل لأخراه وأخذها بالاحسان ، فراج يقتصد في ملبسه ويذرع بمفرده شوارع العاصمة مخالطا الأهل ، ويعود المرضى ، ويدخل أكواخ الفقراء . ودفعته الشفقة الزائدة الى الاهتمام بكل ما يتعلق بالأمم وحوائجهم وطالما كان يخرج من قصره متسربلا بالظلام - والسماء تمطر - يحمل الأدوية لعبادة ناسك متدين ويجلس الى جوار فراشه يؤانسه (٨) ، وكان حرصه الشديد على التزام فرائضه الدينية قد دفع رعيته للاقتداء به ، وكان يصر الصرر

بالأموال يبعث بها في الليالي المطيرة المظلمة إلى المساجد فتعطي لمن
نعمرها (٩) .

في هذا الوقت بالذات قام في الشرق مذهب فقهي جديد على رأسه
فقيه المدينة : مالك بن أنس أحد أصحاب المذاهب الأربعة السنية في
الاسلام (١٠) ، وكان هشام شديد الاحترام له (١١) ، وكان مالك شديد
الكراهية لساداته العباسيين منذ أن جرموه لنصرته أحد العلويين ضدهم
فضربوه حتى انخلعت كتفه (١٢) ، ومن ثم راح يكتم اعجابه بالسلطان
الأندلسي - منافس جلاليه - قبل أن يعرف إلى أي حد يستحق هذا الحاكم
تقديره ، بيد أنه مال إليه كل الميل حين أخذ تلاميذه الأندلسيون يمجّدون
أمامه تقوى هشام وفضائله حتى عدّه المثل الكامل لما يجب أن يكون عليه
الأمير المسلم ، وجاهر بأنه الشخص الوحيد الجدير بالجلوس على عرش
الخلافة (١٣) ، فلم يفت تلاميذ مالك أن يحملوا إلى مولاهم التقدير العظيم
الذي شهد به له أستاذهم ، فعمل هشام بكل ما وسعه الجهد للدعوة في
الأندلس لمذهب مالك وحمل العلماء على السفر للدراسة في المدينة ، كما
أثر اختيار قضاته وأئمة من بين تلاميذ مالك .

وبلغت المدرسة الجديدة ذروة القوة وقت أن قبض الموت هشاماً
سنة ٧٩٦ م [صفر ١٧٠ هـ] فانخرط في سلكها كثير من الشبان اللبّيقين
الطموحين والجسورين أمثال يحيى بن يحيى (١٤) [البربري] الذي لم
ير مالك تلميذاً يبيزه في ملازمته أيامه ، والأخذ عنه ، وحدث ذات مرة أن
مر بالشارع فيل والامام أخذ في التدريس فغادر حلقته مستمعوه جميعهم
لمشاهدة هذا الحيوان العجيب عن كتب غير يحيى فقد لازم مكانه ،
فاستولت الدهشة على الأستاذ الوقور الذي لم يؤلمه أن يهجره تلاميذه
ويؤثرون على مجلسه دابة ذات أربع قوائم غير يحيى فسأله في رقة : « مالك
لا تخرج فتراه فإنه لا يكون بالأندلس ؟ » فأجابه يحيى : « إنما جئت من
بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أجيء لأنظر الفيل » ،
فسر مالك من رده وسماء منذ ذلك الحين بعقل أهل الأندلس ، وطبقت
شهرة يحيى آفاق قرطبة حتى لقد كانوا يقولون أنه أعلم علماء البلد (١٥) .
الا ؛ كان إلى جانب علمه الغزير كثير الزهو ، وبذلك جمع هذا الرجل
الفنّين حمية الثوري الحديث وبين تطلع سيد العصور الوسطى الروماني
إلى « سيطرة (١٦) » .

كان طبع السلطان الجديد مخالفاً لطبع يحيى وبقية الفقهاء
الكليين ، ولسنا نقصد بذلك أنه كان غير متدين ، فهو قد تأدّب على يد
رجل حج إلى مكة (١٧) ، وكان مولى من موالى جلده ، فنشأ منذ نعومة أظفاره

على احترام الدين ورجاله ، حتى لقد كان يأنس لمحاورة فقهاءه ، وكان شديد التوقير لشيوخه ، نازلا على مشورة قضائه حتى ولو حكموا ضد ذوى قرباه وأقرب أصدقائه اليه (١٨) بل وحتى ضلوه هو نفسه (١٩) ، ولكنه كان لا يستطيع استساعة حياة النسك التى يريد لها الفقهاء نظرا لطبيعته المرحية التى تفيض بالرغبة فى التمتع بالحياة ، وكان يعشق الطراد الذى يجونه وراحوا يكثرون من تسفيهه لديه .

وإذا جاز لهم أن يغفروا له كل ذلك فما كان لهم أن يغفروا له استثنائه بالسلطة حين أبى أن تكون فى أيديهم السيطرة التى أرادوها للتدخل فى أعمال الدولة ، فهل تراه لم يفهم أن الفقهاء المرتبطين بتحالف قوى ورباط جديد [وهو المذهب المالكي] إنما كانوا سابقا عصب الدولة وكانوا قوة يعتمد عليها السلطان ويعتد بها ؟

وانقلب الفقهاء الى معارضين أشداء حين فجعوا فى آمالهم بعد أن انتفخت أوداجهم بالتيه القوى الكامن تحت ستار الخشوع ، فأخذوا يلعنونه ويفتزون عليه شتى الافتراءات ، حتى إذا فرغت جعبتهم راحوا يعرضون به كلما ذكر اسمه ، فأمروا المصلين أن يسألوا الله له الهداية بأمثال هذه الدعوات (٢٠) : « يا أيها المسرف المتماذى فى طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون فى أمر ربه : أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك!! » .

وكان علوج قرطبة على استعداد للمشاركة فى هذا الاتجاه كما هى عادتهم ، فاستسلموا للفقهاء الذين أخذوا فى بادئ الأمر يستغفرون للمذنب الكبير ، ثم أسرفوا فرجموه ذات يوم وهو سائر فى شوارع العاصمة ، إلا أن السلطان تمكن هو وحرسه من أن يشقوا لأنفسهم طريقا بحذو السيف بين الجموع ، وانقضت الفتنة (٢١) ، وذلك سنة ٨٠٥ م [= ١٨٩ هـ] .

حينذاك تأمر يحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار (٢٢) وغيرهما من الفقهاء مع جماعة من أهل المدينة ووجوهها ، وعرضوا السلطان على ابن شماس (٢٣) ابن عم الحكم الذى أبدى لهم رغبته فى معرفة أسماء من يستطيع الاعتماد عليهم قبل موافقته على طلبهم ، فوعده المتآمرون بأعداد القائمة ، وحددوا له ليلة يجيئون فيها ، فلما غادروه انفلت ابن شماس سرا الى قصر السلطان وقص عليه جميع ما جرى ، فأنصت له السلطان وهو يكاد لا يصدق ما يسمع ، ثم قال له غاضبا : « أردت أن تغرينى بأعلام بلدى؟ والله لتصححن هنا عندي أو لأضربن عنقك!! » ، فقال ابن شماس : « ابعث الى أمينك ليلة كذا » ، فوعده الحكم بذلك ، فلما كانت الساعة المحددة أنفذ الى بيت ابن عمه كاتم سره « ابن الخدا » وغلामه الحبيب « برلنت » (٢٤) وكان أسبانيا مسيحيا ،

فاجلسهما ابن شماس خلف ستار ثم أدخل المتأمرين وسألهم : « من معكم في هذا الأمر ؟ » وأخذ كاتبه يدون أسماء المتأمرين وهم يذكرونهم ، وفيهم جماعة من المعروفين بأنهم أخلص القوم للسلطان ، فخاف « ابن الحداد » أن يذكره هو ذاته ، فرأى من الحكمة أن يفهمهم بوجوده فصوت بالقلم في الرق ، فلما سمع القوم صرير القلم هبوا فرعين وصاحوا بابن شماس : « فعلتها يا عدو الله !! » ، ونجح كثيرون منهم في النجاة اذ أسرعوا بمغادرة العاصمة وفيهم عيسى بن دينار ويحيى الذي ذهب يلتمس النجاة في طليطلة التي كانت قد تحررت من نفوذ السلطان ، وفشل بعض المنكوبين فوقع في أيدي عمال الحكومة اثنان وسبعون منهم ، وفيهم ستة من وجوه قرطبة فصلبوا عن آخرهم (٢٥) .

وجاء العام التالي ٨٠٦ م [١٩٠ هـ] فاغتنم أهالي قرطبة فرصة مغادرة الحكم العاصمة لاختداد الثورة التي قامت بها « ماردة » ضده وأضرموا نيران فتنة جديدة (٢٦) تفاقم خطرهما تفاقما حمل السلطان على الاسراع في العودة حيث أخذ النائرة ، وراح فيها أخطر العصاة ما بين مصلوب وقتيل (٢٧) .

إذا لم تكن أحداث القتل الكثيرة هذه كافية لبث الخوف في نفوس القرطبيين فإن المصير المروع الذي ألم بعد قليل بالطليطليين قد أفهمهم ان الحكم لا يتورع عن الغدر أو القتل اذا آمن بضرورتهما لردع الثوار ، وهو الذي كانت طبيعته الخيرة آخذة في السخط شيئا فشيئا من الروح الثورية التي بدأت تضطرم في نفوس رعاياه .

بقيت عاصمة القوط القديمة (٢٨) عند الفاتحين «مدينة الملوك» (٢٩) وبزت سواها من المدن في أهميتها السياسية والدينية بفضل الشرملة القليلين من العرب والبربر (٣٠) الموجودين داخل أسوارها وبفضل صيتها القديم ودراية علمائها ونفوذ فقهاؤها ، كما عرف أهلها بحبهم للاستقلال لما انطبعوا عليه من الأنفة والبطولة حتى ليؤكد أحد المؤرخين العرب أنه لم يتهدأ لحاكم آخر رعية لها ما لهذه الرعية من روح الحرية والثورة (٣١) .

أما غريب الشاعر (٣٢) (الذي كان من أسرة مولدة ومحبوبة من الجميع) فقد عملت رسائله وأشعاره على ابقاء النار مشبوبة الأوار حتى لفته خافه السلطان الذي لم يجرؤ على اتخاذ شيء ما ضد طليطلة طيلة حياة هذا الشاعر ، فلما مات أفضى الحكم الى عليج من « وشقة » اسمه عمروس بكل ما يشغل باله ضد أهل طليطلة الذين أوغلوا في الغي والفتنة وقال له : « لم يعد لي أمل في الانتصاف من أهل طليطلة الا على يدك اذ رجاء ميلهم اليك للدعوة التي أنت منها » ثم عرض عليه خطته التي وافقه عليها عمروس رغم ما انطوت عليه من فظاظة ووعده بتنفيذها ، وكان هذا الرجل

عبدا لأطباعه لا يزجرة إيمان ولا يردعه قانون ولم يتورع عن أن يقدم مواطنيه قربانا من أجل حصوله على معاونة السلطان له ، ثم استولت على مشاعره فيما بعد فكرة تأسيس إمارة تحت حماية فرنسا فخان السلطان عنده ابن شرملا (٣٣) .

عين الحكم حينئذ عمروسا حاكما لطليطلة سنة ٨٠٧ ميلادية [= ١٩٢ هـ] وكتب الى الأهالي في نفس الوقت رسالة ضمنها قوله لهم : « انى اخترت لكم عمروسا وهو منكم لتطمئن قلوبكم اليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » .

وعمل عمروس الحيلة في كسب ثقة الأهالي به واطمئنانهم اليه ، وتظاهر لهم باهتمامه الشديد بالمصلحة الوطنية ، واخذ يؤكد لهم مرارا عديدة كراهيته الشديدة للسلطان وللأمويين والعرب عامة ، حتى اذا محضه الأهالي عطفهم قال لزعماء سكان المدينة : « ان سبب الضر بينكم وبين أصحاب الأمير انما هو اختلاطهم بكم ، وقد رأيت أن أبني بناء خارج البلدة أعزل فيه أنا وأصحاب السلطان رفقا بكم فتسلموا من شرهم » .

لم يكتف أهل طليطلة بقبول العرض الذى تقدم لهم به ابن جلدتهم فقد كانت تقتهم به كبيرة حتى لقد ألحوا عليه بوجوب تشييد الحصن فى وسط المدينة وليس خارجها ، فلما تم البناء استقر فيه عمروس بجند ، وأخبر السلطان الذى بادر لساعته فكتب الى قائد من قواده قائم بحراسة الثغر الأعلى يطلب اليه أن يمدد بالرجال ، فصدع القائد بالأمر وشرعت قوات قرطبة والممن الأخرى فى الزحف ، واستعمل عليها ثلاثة وزراء ، وابنه عبد الرحمن الذى لم يكن يتجاوز حينذاك الرابعة عشرة من عمره ، ثم أسلم أحد قواده خطابا على ألا يطلع عليه الوزراء الا حين اجتماعهم بعمروس .

حين قارب الجيش طليطلة بلغه الخبر بتقهقر العدو (٣٤) ، واذا ذاك أقام عمروس أشراف قرطبة أن الكياسة تقتضيهم أن يصحبوه لزيارة ولي العهد ، فنزلوا على إرادته ، وبينما الأمير الصغير يتحدث اليهم ويحاول كسب مودتهم بما يبيديه لهم من ضروب المعاملة المستحبة خلى عمروس بالجباب الذين جاءوا لسماع رسالة السلطان التى ترشد كلا منهم الى ما يجب عليه عمله ، وكانت البقية كافية لمعرفة مضمونها لأن كل شئ كان يسير وفقا لإرادة الحاكم .

عاد عمروس الى أشراف طليطلة فوجههم مسحورين بحسن مقابلة الأمير لهم ، فقال لهم : « اسألوا ولد الحكم اللخول النكم ليرى هو وأهل عسكره كثرتكم ومنعتكم وقوتكم ، وليكرمكم بذلك وتكونوا من خواصه

فهلل الطليطليون لهذه الفكرة • والواقع أن كل شيء كان يسير بدقة واحكام ، فقد ولى السلطان عليهم رجلا اسبانيا [هو عمروس] ومنحهم الحرية التى كانوا شديدى الصبوة اليها ، كما أن حسن لقاء عبد الرحمن لهم أطمعهم فى أن هذا الأمير - حين يتولى العرش - سوف ينهج معهم منهج أبيه ، ومن ثم رغبوا اليه أن يشرف مدينتهم بالزيارة ، فتمنع عبد الرحمن فى بادئ الأمر اذ كان أبوه قد نصحه بعدم التسرع ، ثم تظاهر أخيرا بالنزول على توسلاتهم ودخل معهم الحصن بعد أن أمر بأعداد العدة للمأدبة تقام فى الغد ، وأرسلت الدعوة الى رجال فى الحاضرة والريف كانوا وجوه القوم : ثروة ومولدا •

وفى صباح اليوم التالى وفد المدعوون زرافات الى-الحصن وان لم يدخلوه الا غردا فردا من أحد أبوابه ، وصرفت دوابهم الى الباب الخلفى (٣٥) فى انتظارهم ، وكان فى الساحة حفرة يأخذون منها الطين المعد لبناء الحصن ، ويقوم على شفير هذه الحفرة سيافون يضربون عنق كل داخل ، واستمرت هذه المجزرة المروعة عدة ساعات ، ومن المستحيل تحديد عدد القتلى الذين لقوا مصرعهم فى ذلك اليوم المشئوم الذى عرف بيوم الحفرة ، وان كان بعض المؤرخين يذكر أن القتلى بلغوا السبعمائة (٣٦)، ويزعم آخرون أنهم أكثر من خمسة آلاف (٣٧) •

ولما صارت الشمس فى كبد السماء كان هناك رجل حكيم لم ير أحدا قط يخرج من الباب الخلفى أو الأمامى فثارت شكوكه ، وسأل الجمهور الواقف عند باب الحصن عما حدث للضيوف الذين وفدوا من الصباح الباكر فأجابوه : «أنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر» ، فقال الرجل : « هالقينى منهم أحد » ، ثم تمنع فى الدخان المتصاعد فوق الأسوار وصاح بهم : « يا أهل طليطلة : السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخة ! » •

وهكذا حرمت طليطلة - مرة واحدة - من أغنى أبنائها وأعظمهم نفوذا ، وخيم عليها ذهول الحزن ولم يتحرك بها أحد قط للثأر لقتلى يوم الحفرة (٣٨) •

الفصل الرابع

السلطان يستعمل الماليك الخرص • تطاول العسامة على
السلطان وعلى جنده • الفقيه يحيى يؤلب الناس على الحاكم •
نشوب معركة بين الأهالي وبين جند السلطان • هجوم عبد الله
البلنسى على الثوار • حيلة الحكم فى هزيمة الثوار • هدم
الربض والأمر بمغادرة أهله الأندلس • مغادرة أكثر أهل
الربض الأندلس إلى إسكندرية وكريت • ترحيب الأدارسة
بالمغنيين وانزالهم مدينة فاس الجديدة • الحكم يعود فيعفو
عن الفقهاء ويردهم إلى سابق مكانتهم • قصة اختفاء الفقيه
المعافى عند أحد اليهود • أبو البسام يشى بالفقيه طالوت
وينفى بخبره إلى السلطان ويسلمه إليه • السلطان يواجه
طالوت ويحاوره ثم يعفو عنه ويترد أبو البسام من مجلسه •
السلطان يدافع عن نفسه شعرا • ويبرر شدته •

تولى الحكم الأول

تركت مذبحة يوم الحفرة تأثيرا عميقا فى نفوس علوج قرطبة فركنوا الى الهدوء شبع سنوات تلاشى بعدها أثر هذه التتمة لاسيما حين قامت طليطلة من جديد فحطمت القيد وازداد التقارب يوما بعد يوم فى العاصمة بين أعلاجها وفقائها وتواصلوا بالشجاعة ، ولم يعد فى قوس صبرهم منزع لنقمة مولاهم السلطان الذى يظهر انه أخذ على عاتقه افهامهم استحالة قيامهم بأية ثورة ، فأحاط المدينة بالحصون الشامخة ، واستكثر فى حرسه من الفرسان الممالك المسمون بالخرص لأنهم كانوا من الزوج أو العبيد الأعاجم الذين لا يعرفون العربية (١) .

غير أن هذه الاحتياطات كانت أدعى الى هياج النفوس منها الى حملها على الطاعة ، فتزايدت كراهية المنذرين قولاً وعملاً لاسيما فى المنطقة الجنوبية التى زحزحت بما لا يقل عن أربعة آلاف شخص ما بين فقيه وطالب فقه ، وما كان أنكد حث الجند الذين تحدثهم أنفسهم بالسير فرادى أو فى جماعات صغيرة فى شوارع هذه الناحية الضيقة الملتوية ، إذ لا يكاد الناس يرونهم حتى يأخذوا فى سبهم وضربهم ولا يحجمون عن قتلهم دون أن يأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة ، حتى لقد كانوا يتناولون على « الحكم » نفسه وتنطق الألسن بلعنته ، وإذا صعد المؤذن للصلاة سمع الحكم - الذى كان عليه الحضور الى المسجد - أصواتا بين الصفوف تقول (٢) : « الصلاة : يا محمور الصلاة » ، وكانت هذه الصيحات تتردد كل يوم دون أن يفلح رجال السلطة فى الضرب على أيدي المنذرين لها ، وقد حدث ذات مرة أن تطاول رجل من العادة فجابه السلطان بالنسب فتعالى نصيح الجماعة له ، فذهل الحكم وأسخطه فترض سيته التوكية لهذه الأناشيد الوضيعة ، فعمد الى عشرة من زعماء مشيخة الأئمة وسلمهم ، ثم أئاد على الغلال العشرة التى كان أبوه قد رفعها ، غير أن هذا الإجراء لم يقلل أمة

القرطبيين ولم يزغزع عنادهم ، بل أخذ محرضوهم العاديون فى اثارة مشاعرهم ، وعاد يحى الى العاصمة ، وكان له من خطبه وذيوخ صيته ما مكنه من قيادة الحركة وتوجيهها ، وأصبح الناس قاب قوسين أو أدنى من الثورة التى شاعت الصدفة أن تعجل بها أسرع مما كان ينتظر .

ففى شهر رمضان (٣) من سنة ١٩٨ هـ [= مايو ٨١٤ م] اغتنم الوعاظ فرصة الصيام لزيادة اضرار حقد الشعب على السلطان ، وحدث أن ذهب أحد مماليكه للبحث عن صيقل فى الربض وناوله سيفه ليصقله له ، فطلب اليه الانتظار قليلا حتى يفرغ مما فى يده ، فانكر الجندى الانتظار وأمره أن يستجيب له فى لحظته فلم يجبه الصانع بل أفهمه وجوب التريث حتى يحين دوره ، فغضب الجندى وضرب الرجل بسيفه ضربة صرخته ، فلما شاهد القوم هذا المنظر استبد بهم الغضب وتعالص صيحاتهم بأن قد دنت اللحظة التى يتخلصون فيها من هؤلاء الجند السفلة ومن مستأجرهم الطاغية ، وسرت حماسة الثورة الى الضواحي الأخرى فزحف على القصر جمهور كبير سلع نفسه فى أقصر وقت بكل ما وصلت اليه يده ، ومضى يلعن جند السلطان ومواليه وعبيده الذين كانوا يعرفون ألا أمل لهم فى الحياة ان هم وقعوا فى أيدي الثائرين ، وفروا من أمامهم للاحتباء وراء أسوار قصر السلطان .

وأشرف الحكم من سطح قصره على هذه الجموع المزمجرة التى تهدر غضبا كأنها أمواج البحر المذبذبة ، وتصرخ صرخات مفزعة ، فرأى السلطان أن العنف كفىل بتبديد شملها وسرعان ما فوض ذلك الى فرسانه ، لكن ما كان أشد خيبته حين لم يتزحزح القوم كما كان يأمل ، بل استبسلاوا فى مقاومة الضغط وتكاثروا على الفرسان وأرغموهم على الارتداد (٤) .

وبلغ الخطر غايته .

وعلى الرغم من تحصين القصر الا أنه لم يكن من المنعة بالدرجة التى تمكنه من مقاومة هجمات الثوار طويلا ، ودب اليأس فى قلوب المدافعين الشجعان الذين أدركوا انهم سيقتلون بلا رحمة ان ظفر بهم الثوار ، وبقي الحكم وحده - رغم يأسه هو الآخر من نجاح المقاومة - يرقب الأمور ثابت الجنان ، ثم دعى غلامه النصرانى «برلنت» ، وأمره أن يذهب الى امرأة له سماها له وأن يطلب منها قارورة الغالية ، فوقف الغلام مبهوتا فلما منه أن السلطان أخطأ فى منطقته ، واتهم الخادم سمعه ، فكرر عليه الأمير كلامه قائلا : « انطلق يا ابن اللخناء فعجل !! » فمضى برلنت وعاد بالقارورة الى السلطان الذى أخذها منه وأفرغها على رأسه ولحيته فى هدوء يخيل لرائيه معه أنه فى موقف يتأهب فيه للذهاب الى احدى جواريه بالقصر ، فاختلط الأمر على برلنت الذى لم يستطع كتمان دهشته وقال له : « يا مولاي ... أهذا يوم الغالية ؟ أهذا يوم تتطيب فيه يا سيدى وقد

تري ما نحن فيه ؟ » فحقن الحكم وسبه وأتم تعطيل نفسه ثم قال له :
« بما يصرف رأسى - ان قطع - من رموس العمامة ان لم يكن مضمخا
بالغالية ؟ ... امض فاطلب حديرا (٥) الى هنا (٦) ! » .

كان حدير قائما بحراسة حبس الدويرة الذى زج فيه الحكم بكثير
من الفقهاء ممن قبض عليهم ابان الثورات السابقة لكنه أبقى على حياتهم ،
أما فى هذه المرة فقد رأى أن الفقهاء والشعب يعملون على حرمانه من
الحياة ، ومن ثم قرر ألا يبقى هؤلاء السجناء من بعده ، فلما قدم اليه
حدير حيث هو قال له : « اذا أظلم الليل أخرج هؤلاء المشايخ واضرب
رقابهم وصلبهم ، فاضطربت أوصال حدير فزعا من سماعه الجريمة التى
يأمره مولاه باقترافها فقال له : « يا مولاي والله انى لأكره لك ولنفسى
أن أكون غدا أنا وأنت فى زاوية من زوايا جهنم ، تهر الى وأمر اليك ،
لا تنفعنى ولا أنفعك » ، ففضب الحكم من كلامه وأعاد عليه أوامره فى
لهجة قاطعة ، ولما رأى استحالة تغلبه على مخاوفه خلعه من منصبه واستدعى
اليه ابن نادر [البواب] وكان صاحب حدير وأقل منه ترددا ، فتعهد
[ابن نادر] بتنفيذ أوامر السلطان بكل دقة (٧) .

ونزل الحكم من على السطح متدعرا من رأسه الى قدميه وطاف بجنده
ثابت الجنان ، وردت كلماته النارية اليهم شجاعتهم التى ولت ، ثم استدعى
اليه ابن عمه عبيد الله [البلنسى] أبسل محاربى ذلك العصر ، وطلب
اليه أن يقود كتيبة ممتازة من جنده يشق بها طريقه بين الثوار ويضرم
النار فى الرضى ، مقدرا ان سكان هذا الحى سيتركون أماكنهم حين يرون
منازلهم تحترق فيمضون اليها سراعا لآخاد النار ، واذا ذاك يمضى عبيد
الله فيهاجمهم من الامام ، وينسل الحكم بمن بقى من جنده فيكر عليهم
من الخلف .. وما أشبه هذه الحيلة الناجحة بالحيلة التى ضمنت النصر
لمسلم فى وقعة الحرة مما لم يفت المؤرخين العرب (٩) .

وفتح باب القصر بفتة وخرج منه عبيد الله ، فرد القوم ناحية باب
الجسر ، وسار بفرقتة مهاجما الشوارع الكبيز والرملة وعبر النهر عند
مخاضة فيه بعد أن ضم الى جانبه جنود « القنباية » الذين رأوا ما صنعه
الحكم منذ بدء الفتنة ، فاضرم النار فى دور الرضى الجنوبى ، وصدق
الحكم فيما توقعه فقد غادر الأهالى أماكنهم من أمام القصر حيث شاهدوا
نصاعد اللهب [من دورهم] وخفوا لانقاذ نسائهم والذرارى ، واذا ذاك
أحيط بهم فجأة من خلفهم وقدامهم ، فدب الذعر فى نفوس هؤلاء
المنكوبين ، وجسرت فيهم بعدئذ مذبحة شنيعة ، وذهبت أدراج الرياح
توسلات القرطبيين ولم يجدهم القاؤهم السلاح نفعا ، فقد لقي المئات منهم
حتفهم على أيدي أولئك الخرص القساسة ، والأعاجم الذين لا يفهمون
توسلات المغلوبين على أمرهم ، ولم يبقوا الا على ثلاثمائة من وجوههم

أخذوهم الى السلطان كمظهر من مظاهر ولائهم له ، أما البقية الباقية منهم فقد أمر السلطان بصلبهم منكسى الرؤوس على طول شاطئ النهر (١٠) .

مضى الحكم بعد ذلك يشاور وزرائه فيما ينبغي عليه اتخاذه : أيعفو عن الثوار الذين نجوا من الموت ؟ أم يأخذهم أخذ عزيز جبار فيقتلهم على بكرة أبيهم ؟ ٠٠٠ فتشعبت الآراء ، غير أنه مال للأخذ برأى المعتدلين (١١) الذين أشاروا عليه ألا يسرف في انتقامه ولكنه أمر أن يهدم الربض القبلي عن آخره ، وأن يغادر أهله الأندلس في فترة ثلاثة أيام ، فان تخلف أحد منهم بعد ذلك صلب .

حمل أولئك المنكوبون ما استطاعوا حمله من المتاع وغادروا بنسائهم وأولادهم البقعة التي استقبلوا فيها الحباة والتي لن يقدر لهم أن يشاهدوها بعد ذلك أبدا ، ولم يسمح لهم السلطان بالخروج جميعا معا ، فمضوا في شراذم صغيرة ، وتربص لهم في الأخوار وخلف الصخور جماعات من الجند والشطار الذين راوحوا يتهبون ما معهم ، حتى اذا بلغوا ساحل البحر الأبيض المتوسط أبحر بعضهم شطر غرب افريقية ، والبعض الآخر الى مصر ، وكان هؤلاء الآخرون قرابة خمسة عشر ألف رجل غير النساء والأطفال ، ثم أرسوا على مقربة من الاسكندرية ، ولم تستطع الحكومه منعهم من ذلك لأن مصر التي كانت دائمة الثورة على العباسيين كانت في هذه الفترة نهب الفوضى الشاملة .

ولم يجد المنفيون بدا من التقرب الى اقصى قبيلة عربية في تلك الناحية ، وكان هذا ما فعلوه . لكنهم ما كادوا يشعرون بقدرتهم على التخلص من حماية هؤلاء البدو لهم حتى نقضوا عهدهم معهم ، وشبت الحرب بين الطرفين وهزموهم في البرية ثم استولوا على الاسكندرية ، وعلى الرغم من أنهم هربوا مرارا عدة الا أنهم تمكنوا من البقاء في تلك المدينة حتى سنة ٨٢٦ م [٢١١ هـ] حين أرغمهم أحد قواد الخليفة المأمون على التسليم له (١٢) ، واذا ذاك ركبوا البحر الى جزيرة أقریطش التي كانت لا تزال تابعة للإمبراطورية البيزنطية ففتحوها ، وأقام شيخهم أبو حفص عمر اللوطي (١٣) دولة ظلت تحكمها حتى استردها البونان (١٤) سنة ٩٦١ م [٢٥٠ هـ] .

لما الجماعة الأخرى التي كانت تتألف من ثمانية آلاف أسرة قام تصادف مثل هذه الجماعة في موطنها الجديد ، ففي هذا الوقت بالذات كان الأمير ادريس يعمل في بناء عاصمة جديدة سميت قضا بعد نفاس وتند بذل جهده لجذب الأحناف إليها بعد أن أيدت رعيته - ومعظمها من البدو الرحل - بفارسة تدعى اذ كانوا يترددون أن يتنزلوا الحضر . ومن ثم

سهل على الأندلسيين المنفيين السماح لهم بالإقامة فيها على أن يتعهدوا بالركون الدائم الى الهدوء ، وكذلك قدمت جماعة من العرب من القيروان استقرت بفاس وكان كل من هؤلاء العرب وأحفاد الأيبيريين الرومان يحقد أشد الحقد على الآخر ، وعلى الرغم من استقرار الشعبين معا على أرض واحدة الا أن كلا منهما ظل بمعزل عن الآخر ، حتى اذا كان القرن الرابع عشر للميلاد كان من اليسير أن يعرف المرء أول مطالعته وجوه كلا الفريقين أن كلا منهما ينتمى الى جنس غير جنس الآخر وذلك لتعارض أذواقهما وحرfehهما وأخلاقهما ، وكان كلا منهما أبى الا المحافظة على هذا التباين الجنسي فكان العرب عمالا وتجارا ، واحترف الأندلسيون فلاحا الأرض واكتسبوا قوتهم بشق النفس . أما العرب فقد أثروا واغتنوا ، ولما كان العربي يحب الرفيق الجميل والزينة والطلاوة فى كل شيء فقد عد الأندلسى خشنا جافا مقترا على نفسه ، وكان الأندلسى من جانبه يعتبر العربي رخوا يبعثر أمواله فى التنافه ، وربما كان الأندلسى راضيا بقناعته وحياته الساذجة التى ألفها ، أو أنه كان يخفى وراء استخفافه الكاذب حسدا تنطوى عليه نفسه تجاه ثروة جاره ، ولقد خاف الأمير ادريس أن تنشب المنازعات والخصومات بين الفريقين المستوطنين ففصل بينهما ، وجعل لكل منهما ناحية خاصة به ، وحيه الذى فيه مسجده ودوره بل وأسواره ، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فقد ظل العداء العنيف مستحكما بين العرب والأندلسيين لعدة قرون ، وكثيرا ما كانت الأرض الحرام الواقعة على شاطئ النهر والتى لا تزال تفصل الى اليوم هذين الحيين بعضهما عن بعض مسرحا للحروب بينهما (١٥) .

بعد أن شاهد القرطبيون مصارع آبائهم ونسائهم وأبنائهم ونفيهم تكفيرا عن تمردهم ، اذا بهم يرون الفقهاء - وكانوا أكثر منهم ايفالا فى الجرم - وقد عفت الحكومة عنهم ، ولم تكد الثورة تنتهى حتى ضرب الحكم لهم المثل الأعلى على تسامحه ، ذلك أنه كان قد صدر الأمر بالقبض على كل مشتبه فيه ، متهم بالعمل على بعث الفتنة وقتله حتى ولو لم يشترك فيها عن قصد ورضى ، وحدث أن عثر عمال الشرطة على فقيه مختف فى حريم جاز له من القضاة فهموا بقتله فصرخت النساء وأعولن فبادر القاضى - الى دفع الشرطة عنه وحاول عبثا اطلاق سراحه بقوله لهم : « انه سليم الناحية وليس فيه مما تظنون شيء » فدفعه رئيس الشرطة قائلا له بخشونة : « ليس هذا من شأنك ولا مما عصب بك ، انظر فى أحكامك ودع ما لا يعنيك » واذك أسرع القاضى الى القصر وطلب مقابلة السلطان وقال له اذ أذن له : « أيها الأمير ، أصلحك الله ، ان قریشا حاربت النبى صلى الله عليه وسلم وناصبته العداء ، ثم انه صفح عنهم وأحسن اليهم ، وأنت أحق الناس بالاعتداء به لقرابتك منه ، ، ثم قص عليه

ما جرى ، فألان كلامه قلب السلطان الذى لم يكتف باطلاق سراح السجين بل زاد قأمن غيره من الفقهاء (١٦) الذين هرب أكثرهم الى طليطلة فى طلب النجاة ، ورد عليهم أملاكهم ، وأذن لهم بالاقامة أنى شاءوا من جهات الأندلس عدا قرطبة وضواحيها (١٧) ، حتى لقد عفى عن يحيى بن يحيى الليثى الذى آوته احدى القبائل البربرية ، وسمح له بالعودة الى البلاط وحياء ثانية بمطفه (١٨) .

لكنه استثنى من هذا الأمان جباة كان منهم طالوت من قبيلة معافر اليمنية ، وهو من تلاميذ مالك ومن أشد المحرضين على الفتنة ، وكان قد استخفى عند يهودى عاما سنم بعده حبسه الاختيارى هذا رغم اكرام اليهودى له وتعظيمه اياه ، فقال لمضيفه : « قد عزمت غدا على الخروج وقصد دار أبى البسام الكاتب لأنه قرأ على ، ولى عليه حق التعليم ، وقد بلغنى أن له جاهاً عند هذا الرجل فعسى هو يشفع لى عنده فيؤمننى ويدعنى فى بلدى ! » فرد عليه اليهودى قائلاً : « لا تفعل فما آمنهم عليك ، والله لو أقمت عندى بقية عمرك ما أملتى ولا ثقل على » ، فأبى طالوت الا مغادرة بيت اليهودى رغم الحاحه عليه بالبقاء عنده ، فلما كان مساء اليوم التالى انتهن فرصة الفلاس وانسل تحت جناح الظلام الى قصر أبى البسام الكاتب .

ما كاد أبو البسام يرى الرجل الطريد يدخل بيته حتى هش له ، وكان يظن أنه على بعد مائة فرسخ عن قرطبة وقال له : « مرحبا بك أين كنت فى هذه المدة ؟ » ، فقص عليه حرص اليهودى عليه واخفائه اياه ، ثم أضاف يقول : « اشفع لى عند هذا الرجل صاحبك فعسى يؤمننى فى نفسى وبين على بتملكى فى بلدى » ، فأجابه أبو البسام (١٩) : « الأمير - أبقاه الله - نادم على ما كان منه ، فابق عندى الليلة » .

واطمأن طالوت الى كلام صاحبه أبى البسام ونام ليلته قرير العين مطمئن البال ، ولم يخطر بباله أن مضيفه الذى أحسن استقباله وطمأن خاطره مفكر فى القدر به وتسليمه الى الأمير ، لكن الحيانة كانت قد عشت فى صدره ، فما طلع الصباح حتى مضى الى القصر بعد أن احتاط ألا يهرب الفقيه ، وقال للأمير وعلى شففته بسمه خبيثة : « كيف رأيك فى كبش سمين على منودته اليوم سنة ؟ » فلم يظن الأمير لحقيقة ما تنطوى عليه هذه العبارة وقال جادا : « اللحم المشبع ثقيل ، واللحم الصخراوى أخف وأعذب ! » فتابع الكاتب كلامه قائلاً : « غير هذا أريد .. عندى طالوت » فسأله : « وأين ظفرت به ؟ » قال : « أنى لطفى عليه » .

واذ ذاك أمر الحاكم باحضار طالوت الذى ارتعدت فرائصه خوفا حين دخل مجلس الأمير ، لكن الحكم لم يظهر له الغضب بل عاتبه فى لهجة

رفيقة قائلا : « أخبرني يا طالوت لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر
أكان يزيدك في البر والاكرام على ما كنت أفعله بك ؟ هل أوردت على
قط حاجة لنفسك أو لغيرك الا سارعت الى اسعافك فيها ؟ ألم أعدك في
علتك مرات ؟ ألم تتوف زوجتك فقصدتك الى بابك ومشيت في جنازتها
راجلا من الريض ثم انصرفت معك راجلا حتى أدخلتكَ منزلك ؟ فما الذي
بلغ بك حتى لم ترض الا بسفك دمي وهتك ستري واباحة حرمتي ؟ » .

فأفرخ روع طالوت بما سمع واعتقد أن حياته لم تعد في خطر واسترد
رباطة جأشه وثباته ، واعتقد الحكم أنه هاجه لكن طالوت. لم يتأثر قط ،
وكبر عليه أن يقر بأنه كان جاحدا يده ونعمته عليه ، وعز عليه أن يعترف
بجرمه في حقه وأجابه في كبرياء : « ما أجد لنفسى في هذا الوقت مقالا
خيرا لي من الصدق ، أنفضتكَ الله فلم ينفعك عندى كل ما صنعت » .

فلما سمع الحكم هذه الكلمات التي هي أشبه بالتحدي احتدم
غاضبا ، لكنه سرعان ما كظم غيظه وقال له في هدوء : « والله لقد بعثت
فيك وما في الأرض عقاب الا وقد مثلته بين يدي لأوقعه بك ، فانا أعلمك
الذي تبغضني له صرفني عنك ، فانصرف عني في حفظ الله آمنا ، والله
لا تركت برك وما كنت عليه في جانبك حياتي ان شاء الله ، فليت الذي
كان لم يكن » .

أفهل مان في الامكان أن يفهم الأمير فقيها في لهجة أرق وأعذب من
هذه اللهجة أن الله قد نهى عن الكراهية ؟ ومع ذلك فقد تظاهر طالوت بعدم
فهمه الدرس الذي تلقاه ، ولعل كبرياه المتأصلة في نفسه غشت روجه
فلم تستطع اذ ذاك ادراك ما قال ، ولم تنفرج شفاهه عن كلمة شكر ،
ولم يجب الا على الشطرة الأخيرة من كلام الأمير فقال : « لو لم يكن خيرا
لكان خيرا لك » ، وكان ذلك تهديدا للأمير بأفطع عقاب في الحياة الأخرى ،
غير أن الأمير - رغم يقينه بأن الحق في جانبه وليس في جانب الفقهاء -
كظم غيظه الى أقصى حد ، وتظاهر بعدم سماع كلام طالوت وقال له :
« أين ظفر بك أبو البسام ؟ » .

فأجابه طالوت : « والله ما ظفر بي وانما أنا أظفرته بنفسى وقصدته
لوصلة كانت بيني وبينه » .

قال : « فأين كنت في عامك هذا ؟ » قال : « عند رجل بالمدينة من
اليهود ! » .

وحينذاك التفت السلطان غاضبا الى أبي البسام الذي ظل معتصما
بالصمت طوال الحديث وقال له : « يا أبا البسام : رجل من اليهود حفظ

فيه محله من الدين والعلم ، وخطر بنفسه وأهله وولده وماله معي ، وأردت أنت أن تنسبني فيما أنا نادم عليه ٠٠٩ أخرج والله لا رأيت لك وجهها أبدا ! » .

وفقد الوزير الحائن مكانته عند السلطان منذ تلك اللحظة ، أما طالوت فقد ظل ينعم حتى موته بعطف الحاكم الذي شرف جنازته بالسير فيها (٢٠) .

على الرغم من قسوة الحكم على عمال الرض : تلك القسوة التي شابته قسوته على أهل طليطلة إلا أنه لم يصطنع هذه الفظاظاة إزاء الفقهاء الذين كان بعضهم عربا والآخرين بربرا ، ولما كان الحكم عربيا خالصا فقد كان يقيس الأمور بمقاييسين : فبينما هو يؤمن بجواز كل شيء حيال سكان البلد الأصليين الذين كان شديد الكراهية لهم ، إذا بنا نراه يعفو عن التوار من هم من بنى جنسه ، وإن كان المؤرخون العرب يفسرون رحمته بالفقهاء تفسيراً آخر حين يرجعونها إلى تأنيب ضميره له (٢١) ، ولا نحب أن ننكر على الحكم أنه رغم قسوته وضراوته في بعض الأحيان إلا أنه كان يتسم على الدوام بروح انسانية تؤنبه أحيانا على الخطايا التي كان يرتكبها وهو في سورة غضبه وشدة حنقه ، كما حدث عندما أطاح برؤوس الفقهاء المحبوسين في حبس الدويرة ، غير أنه يخيل إلينا أن الموالي الأمويين - في أثناء تدوين تاريخ مولاهم - كانوا يحاولون عبثا تمجيد ذكرى أمير اعتبره رجال الدين في قرارة الجحيم (٢٢) فبالغوا في تصوير ندمه ، لأنه لو حكمنا بشهادة الحكم نفسه - أعنى بالأشعار التي قالها لابنه قبل موته بقليل ، فمن المؤكد أنه كان مؤمنا بأنه كان محقا فيما فعل ، وها هي أبياته التي نختم بها هذه القصة (٢٣) إذ يقول :

رأيت صدور الأرض بالسيف راقعا	وقدما لأمت الشعب منذ كنت يافعا
قسائل ثغوري عل بها اليوم ثغرة	أبادرها مستنضي السيف دارعا
وشافه مع الأرض الفضاء جماجما	كأحقاف شريان الهبيد لوامعا
تنبيك أنى لم أكن في قراعهم	بوان ، وقد ما كنت بالسيف قارعا
واني وإن حادوا جزاعا من الردى	فلم أك ذا حيد من الموت جازعا
حميت ذماري فانتبهت ذمارهم	ومن لم يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبا	سقيتهموا سما من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم	فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهاك بلادي اننى قد تركتها	مهادا ، ولم أترك عليها منازعا

الفصل الخامس

أربعة يسيطرون على الأمير ويوجهونه : فقيه ومغن وامرأة
• وخصى • استفادة الفقيه يحيى المعنوية من ثورة الربض •
• شخصية زرياب المغنى وأثره فى الحياة الاجتماعية بالأندلس •
• أهل الأندلس يقلدون زريابا فى عاداته وأسلوب عيشه •
• طروب وموقعها عند أمير الأندلس • علاقتها بالخصى نصر •
• الفتنة الأهلية فى كورة مرسية بين اليمنية والمعدية • عصابة
• هاشم الحداد وتمرده ومصرعه • العليج ميسرة • الفتنة بين
• المولدين والنصارى فى طليطلة •

عهد عبد الرحمن بن الحكم

لم يقدر لبلاط سلاطين الأندلس أن يزدهى ازدهاءه أيام عبد الرحمن الثانى بن الحكم وخليفته الذى أكثر حوله من الخدم والحشم تقليدا منه لخلفاء بغداد فى اسرافهم العظيم وتشبها بهم فى حياتهم الفخمة ، ومن ثم جمل عاصمته فأكثر من بناء الجسور وتشبيد المساجد وإنشاء الحدائق الفسيحة الغناء تشقها القنوات التى تجلب إليها المياه من الجبال (١) .

وكان [عبد الرحمن بن الحكم] يحب قرض الشعر ، وإذا لم يكن جميع الشعر المنسوب إليه من نظمه فلا أقل من أنه كان كريما فى وصله الشعراء الذين يذبون عنه ، هذا الى لطف معشره ، ولين جانبه ، وطيبته التى قاربت حد السذاجة ، حتى لقد كان يأبى معاقبة خدمه وهم يسرقونه أمام عينيه (٢) ، وقد سيطر عليه فى حياته أربعة أشخاص : فقيه ومغن وامرأة وخصى .

فأما الفقيه فهو يحيى بن يحيى البربرى الذى عرفناه أكبر محرض على ثورة الربض ، وقد علمه فشله فى هذه المحاولة أنه لم يسلك جادة الصواب ، وأيقن أنه لا يجوز للعالم الدينى الذى يتطلع للسطوة أن يناصر الأمير العداء ، بل عليه أن يحتال فينال عطفه عليه ، ويعتمد على معاونته إياه ، وعلى الرغم من أن طبيعة يحيى الجريئة الشديدة الحمية قد رضخت - بعد لآى - للدور الذى ألزم نفسه القيام به الا أن عدم تقيده بقواعد السلوك وصراحته الجافة لم تصرف عنه الحاكم الممثلة الذى كان كثير التدين رغم أخذه نفسه بدراسة الفلسفة (٣) ، وكان يعتبر غلظة يحيى غضبة للحق ، ومن ثم كان يتغافل عن ألفاظه الجريئة المثيرة ، وكان يطبع ما يفرضه عليه هذا المعلم القاسى من العقاب الشديد (٤) ، ويطأطئ رأسه أمام هذا الواعظ الدينى فيترك له تدبير الشؤون الدينية وإدارة القضاء ، ولقد تمتع

يحيى بنفوذ عظيم لشدة احترام السلطان له وتأيد معظم الفقهاء إياه ، وخوف رجال الطبقة الوسطى (٥) منه ، ولا تباط مصلح الشعب به منذ الثورة ، والتفاف جماعة من الشعراء حوله (٦) وهم جماعة لا تحتقر معونتها ، ومع ذلك فلم يكن له أى عمل رسمى ، وإذا كان كل شئ رهن اشارته فمرجع ذلك الى ذبوع صيته وشهرته لا لشيء سواه ولم يكن يحيى يتردد عن الاستبداد رغم أنه كان من المنادين له ، فكان له على القضاة - إذا رغبوا البقاء فى وظائفهم - أن يكونوا آلات صماء تنفذ رغائبه . أما السلطان الذى كانت تخالجه فى بعض الأحيان الرغبة فى التخلص من سيطرة يحيى عليه فقد اقتصر عمله على تولية القضاة (٨) ، وكان يحيى يحطم كل من يجروء على الوقوف فى سبيله ، وجرت عادته على أن يقول للقاضى الذى لا يرغب فيه « استعف » (٩) ، فيستعفى .



أما الشخص الآخر الذى برز فى حياة السلطان فهو زرياب المغنى الذى لم يكن دون يحيى نفوذاً وان كان نفوذه فى ناحية أخرى ، فقد وفد زرياب من بغداد ، وكان فارسي الأصل كما يظهر من اسمه ، ومولى من موالى الخلفاء العباسيين ، وكان قد أتقن الغناء على يد المغنى الشهير اسحق الموصلى الذى سأله هرون الرشيد ذات يوم عما اذا كان لديه مغن جديد يقدمه اليه فقال له اسحق : « عندي يا أمير المؤمنين تلميذ يحسن الغناء وهو مولى لكم ، وسمعت له نزعاً حسنة ، ونغمات رائعة اذا أنا وقعته على ما استغرب منها ، وهو من اختراعى ، وأحس أن يكون له شأن » ، فقال الخليفة : « هذا طلبى فأحضرنى » .

لم يكده زرياب يتقدم للخليفة حتى نال عطفه لدماثة خلده ورقة أحاديثه ، فسأله هرون عما يحسن من الغناء فقال : « أحسن منه ما يحسنه الناس ، وإن أكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن الا عندك ولا يدخر الا لك ، فإن أذنت غنيت ما لم تسمعه أذن قبلك » ، فأذن له الخليفة ، فلما أحضروا له عود أستاذة اسحق رفضه وأبى الا عوده الخاص به ، فسأله هرون حينئذ : « لما ترفض عود اسحق ؟ » فقال : « لى عود نحتة بيدي ، وأرهفته بأحكامي ولا أرتضى غيره وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه ، فإن كان مولاى يبغي فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى » ، ثم شرح له الطريقة التى اتبعها فى صنع هذا العود ، ثم غنى للرشيد أغنية نظمها فى مدحه فاستخفه الطرب حتى زاح يؤنب الموصلى لتأخره فى تقديم هذا المغنى العجيب حتى هذه اللحظة ، فاعتذر اسحق ، وصدق فى قوله ان زرياباً تعد اخفاء عبقريته ، ثم لما خلى الموصلى بتلميذه قال له : « ان الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة لا حيلة فى جسمها ،

وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك ، وقصد [أنا] منفعتك ، فاذا بي قد آتيت نفسي في مأمنها بادنائك من أمير المؤمنين ، فمن قليل تسقط منزلتي عنده وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما لا أصاحبك عليه حتى ولو كنت ولدى ، ولولا رعى لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على أن أذهب نفسك أو يكون فى ذلك ما كان ، فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما : اما أن تذهب عني فى الأرض العريضة لا أسمع بخبرك بعد أن تعطينى الايمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، واما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا منى ، فخذ الآن حذرك فلست والله أبقي عليك ولا أدع اغتيالك ، باذلا فى ذلك بدنى ومالى فاقض يا زرياب قضاءك !!

فبادر زرياب بالسفر فى الحال وغادر بغداد بعد أن اخذ المال الذى أرفده به اسحق ، الا أن الخليفة لم يلبث أن أمر اسحق باستقدام تلميذه فأجابه : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه فما يرى فى الدنيا من يعدله ، وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعارته فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفيا عني ، وقد صنع الله خيرا فى ذلك لأمر المؤمنين فانه كان به لم يغشاه فيفرغ من رآه » ، فتأسف الخليفة لرحيل المغنى الشاب الذى كان يؤمل له مستقبلا طيبا ، ولم يخالجه شك فى صدق ما حكاه اسحق له .

والواقع أنه كان هناك جانب من الحق فى رواية المغنى الكبير ، فقد كان زرياب يؤمن بأنه يسمع فى نومه عزيف الجن فيهب من رقاده فرعا ، ويدعو الى فراشه جاريته : غزلان وهنييدة بعوديهما ويلقنهما النحن الذى سمعه فى سباته ، ويأخذ هو فى كتابته ، ولم يكن ذلك من الجنون فى شيء كما يعرف اسحق ذلك تمام المعرفة ، وأى فنان يؤمن بالجن أو ينكره لم تمر عليه هذه اللحظات التى يكون فيها تحت سيطرة عاطفة يصعب تجديدها ؟ ولكنها على أية حال أشبه ما تكون بطاقة فوق طاقة البشر .

وذعب زرياب يفتش عن حظه فى المغرب ، فلما بلغ افريقية كتب الى الحكم أمير الأندلس مبديا له رغبته فى الإقامة ببلاطه ، فوقع هذا الكتاب من نفس الحكم موقع الرضا والقبطة وأجابه ملحا عليه أن يبادر ما وسعته الجهد الى الحجى الى قرطبة ، ووعد بالعتاء الجزيل ، فمهر زرياب حينئذ مضيق طارق مع نسائه وأولاده ، لكنه ما كاد يغادر السفينة وينزل فى الجزيرة الخضراء حتى كان الحكم قد ودع الحياة ، فارتعج بالزرياب وشكر على العودة الى افريقية لولا أن أقبل المنصور - المغنى اليهودى - الذى كان الحكم قد ندبه لاستقباله فأغراه بالتخلي عن هذه الفتوة ذاتها له

أن ولع عبد الرحمن بن الحكم بالغناء ليس دون ولع أبيه به ، ولا مرأى في أنه لن يقصر عنه في وصله ، وبرهنت الحوادث على صدق قول «المنصور» ، فلما سمع عبد الرحمن بن الحكم بخبر مقدم زرياب كتب اليه يدعو للحضور الى بلاطه ، وطلب الى عماله أن يتلقوه أحسن لقاء ، وعهد الى كبير غلمانة أن يصله بالبغال وغيرها من الهدايا .

وبلغ زرياب العاصمة قرطبة فأنزله السلطان في بيت ضخم ، وأذن له بثلاثة أيام يستجم فيها من وعناء الرحلة ، فلما انقضت هذه الأيام دعاه الى قصره وبدأ حديثه معه بأفهامه الشروط الهائلة التي يشترطها ازاء اقامته في قرطبة ، اذ أجرى عليه معاشا قدره مائتا دينار كل شهر ، وأربع هبات في السنة ، وألف دينار في كل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة في كل من يومي المهرجان والنوروز ، هذا الى مائتي قنطار من الشعير ومائة من الحنطة في العام ، وأذن له في استغلال عدد معين من الدور والضياح التي تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار ، ثم سأل عبد الرحمن أن يغنى له فغنى فأطربه غناؤه حتى استخفه السرور ولم يعد يستسيغ غناء أحد سواه ، وعاش عنده أطيّب عيش ، وكان السلطان يحب الحديث اليه في التاريخ والشعر وجميع الفنون الأدبية التي كان هذا المغنى العجيب ملما بها كل الامام .

وكان زرياب الى جانب قرضه الشعر واستظهاره عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني مع أصواتها عارفا بعلمى الفلك والجغرافية ، ولم يكن ثم أقيم من سماع حديثه عن البلدان المختلفة وعادات سكانها ، وكانت روحه وذوقه وجميل شمائله تبرز علمه الواسع ، وليس هناك من يدايته في أحاديثه النيرة ولا فيما وهبه الله من غريزة تقدير الجمال واكباره الفن في كل شيء كما لم يكن هناك من يفوقه في كياسته وأناقته أو في اعداده المآدب ، فكان الناس يعدونه رجلا عظيما ونموذجا لكل ما يتعلق بالذوق الرفيع ، وبذلك أصبح مشرع اسبانيا العربية .

وكانت اصلاحاته عظيمة متعددة فأحدث انقلابا جوهريا في العادات ، وإذا كان الناس قد ألفوا ارسال شعورهم الى الورا في غدائر طويلة ، وأن يفرقوها في الوسط من الجبين ، وأن يستعملوا على المنضدة أواني من الذهب أو الفضة ، وأسطة من التيل ، فقد أصبحوا الآن يعقسون شعورهم في حلقات ، وأضحت الأوعية من الزجاج ، والأسطة من الجلد وهو ما يحبه زرياب ، كما كان يحدد نوع الملابس التي تنبغى لكل فصل من فصول السنة ، وحجب الى عرب الأندلس طعام «الهليون» الذي لم يكن يخطر لهم على بال ، وسميت باسمه بعض أنواع الطعام التي ابتدعها .

والخلاصة أن القوم أخذوا يترسمون خطاه في كل شيء من دقائق الحياة حتى لو تفه هذا الشيء ، وظل اسم هذا الابهوري اللطيف حيا على الألسن حتى نهاية الحكم الاسلامي في الأندلس الذي لم يوجد في تاريخه اسم ينازعه البقاء سواء في ذلك العلماء البارزون أو الشعراء المفلقون والأسخياء العظام وكبار الحجاب والأمراء (١٠) .

لم يكن زرياب كما يبدو كثير الانغمار في السياسة رغم ما كان له من تأثير على عبد الرحمن ، وهو تأثير أدركه الشعب الذي كان يؤثر أن يرفع الى زرياب شخصا ما يريد أن يوصله الى سمع السلطان (١١) ، وكان زرياب يؤمن بأن الحياة أجل من أن تقضى في بحث أمور الدولة أو تدبير المؤامرات أو الجدل ، ومن ثم ترك أمر هذا كله للسلطانة «طروب» وللخصي «نصر» (١٢) .



أما طروب فكانت امرأة أنانية طموحة خلقت لتدبير المؤامرات ، وكانت شديدة التطلع للمال فكانت في بعض الأحيان تبيع - لا حبها اذ ليس لها من النساء حب - ولكنها كانت تبيع ما تملك في سبيل شراء عقد بضمن خرافي ، وأحيانا بأكياس المال التي يسد بها زوجها بابها حين ترفض فتحه له (١٣) .

وقد عملت فظاظة قلبها وطمعها وريائها على شدة ارتباطها برجل جشع قاس ، ذلك هو «نصر» الخصي الذي كان ابن اسباني أعجمي اللسان (١٤) ، يضمن الكراهية الشديدة للمسيحيين المتمسكين بعقيدتهم ، وهي كراهية لا تكون الا في قلب مرتد .



تلك كانت حال البلاط في هذه الحقبة .

أما البلد فكان أبعد ما يكون عن الاستقرار والطمأنينة ، اذ شبت في كورة «مرسية» حرب بين اليمنية والمعدية دامت سبع سنوات ، كما كانت «ماردة» دائمة الثورة ، اذ كان مسيحيوها على اتصال بلويس التقى والتشاور معه (١٥) .

كذلك ثارت طليطلة .



لم تكد تنقضى سنوات قلائل على يوم الحفرة حتى استرد أهل طليطلة استقلالهم وخرّبوا «حصن عمرون» فاحتال الحاكم من جديد

لاسترداده ، فغادر قرطبة متظاهرا بالزحف على « قطالونيا » وعسكر في كورة « مرسية » حيث أنبأه جواسيسه باهمال الطليطيين حراسة أبواب مدينتهم ليلا اعتقادا منهم أنهم بمنجاة من الخطر ، فأسرع الى أحد هذه الأبواب ، ثم أضرم النيران في جميع دور الجبال التي بالمدينة (١٦) وكان من بينها بيت علج صغير اسمه « هاشم » اضطر للرحيل الى قرطبة وهو في حال عوز شديد واحترف الحدادة لكسب قوته ، ولما كانت نفسه تضطرم بالرغبة في النار لما نزل بمواطنيه من الاهانات فقد دبر مؤامرة مع عمال طليطلة ثم غادر بعدها قرطبة للعودة من جديد الى وطنه الأول حيث تزعم العامة وأخذوا يتصيدون جند عبد الرحمن بن الحكم وأخوانه سنة ٨٢٩ م [= ٢١٤ هـ] ، ومضى هاشم بعد ذلك يذرع رحاب البلد بعصابته لا يصادف قرية من قرى العرب أو البربر الا نهبها وأحرقها ، وأخذت هذه العصاية تزداد قوة يوما بعد يوم ، فانضم اليها من كل ناحية العمال والفلاحون والعبيد والمغامرون من كل الفئات ، فأمر عبد الرحمن عامله على الثغر الأعلى « محمد بن وسيم » بالزحف على هؤلاء لكنهم أرغموه على التقهقر . ودأب هذا الحداد - مدة عام كامل - على التخريب دون أن يخشى عقابا ، وأخيرا بعث السلطان بنجيدات الى عامله وأنبه على تقاعسه . فأعاد الكرة مهاجما وانتصر هذه المرة ، واستمرت المعركة بضعة أيام انتهت بهزيمة المتمردين وقتله (١٧) . لكن طليطلة كانت لا تزال حرة .

ومن ثم أمر السلطان في سنة ٨٣٤ م [= ٢١٩ هـ] الأمير « أمية » بمحاصرتها ، فاستبسل أهلها في صد هجمات هذا القائد الذي خرب الأرباض المجاورة لهم ، لكنه اضطر الى رفع الحصار والعودة الى قرطبة ، فلما رأى الطليطليون جيش العدو يغادر أرضهم صمموا على مناوشته أثناء إرتداده ، الا أن أمية كان قد ترك في قلعة رباح قوة من الجند بقيادة « ديسرة » العلج الذي رصد للطليطليين كميناً حين ترامي اليه خبر ما اعتزموه ، وباغتتهم بالهجوم عليهم وأعمل فيهم نقلة عظيمة ، وجاء الخبر الى ميسرة كما هي العادة برؤوس أعدائه من سقطوا في المعركة ، غير أن هذا القائد الناج كان لا يزال مقيماً على حبه لأبناء جنسه فما كاد يرى رؤوس القتلى حتى ثارت عاطفته الوطنية وداخله الشك على إخلاصه للمحتدي على أمره ، ثم لم يلبث الا أياماً تلالاً مات بعدها حزناً وكمداً .



على الرغم من أن السلطان كان قادراً على أن ينكب طليطلة بن حين وآخر الا أنه كان عاجزاً عن استرقاقها لما كان أوفاق يسودها ، كما أن سوء الطالع أبى الا أن ينسرم حبل هذا أوفاق ، ونحن ان كنا نجعل ما جرى بالمدينة الا أن الواوادة التي وقعت بعد عام ٨٧٣ م نستخلص على الظن به قورع الفتنه والشقاق فيها بين المولدين والمساوي ، ذلك ان زعيما

طليطليا يدعى « ابن مهاجر » - وكان على ما يظهر من المولدين ، غادر طليطلة مع أعوانه وذهب يعرض خدماته على قائد قلعة وباح الذى بادى الى قبول عرضه وتشاور مع أولئك المهاجرين ، فقر الرأى على محاصرة المدينة واجاعتها ، وعهد الى الأمير الوليد - أخى السلطان - بمحاصرتها حصارا دام مدة عام خربت المجاعة أثناء طليطلة ، واذاك ندب القائد العربى رسولا من قبله أشار على أهلها بالتسليم ، ذاكرا لهم أنهم ان لم يستسلموا طوعا استسلموا كرها ، وان الخير لهم فى اغتنام هذه الفرصة المتاحة لهم لعرض حاجاتهم ، فأصر أهل البلد على الرفض ، وكان من سوء حظهم أن هذا الوسيط الذى شاهد شجاعتهم من قبل قد شاهد الآن تدهور وضعهم وسوء حالهم ، فلما انكفأ الى قائده حثه على تسعير القتال ، فنزل الوليد على اشارته وخرب طليطلة يوم ١٦ يونيو ٨٣٧ م [= ٢٢٣ هـ] بعد أن ظلت تتمتع ثمانية أعوام بالاستقلال التام ، ولا يفيدنا المؤرخون عن الطريقة التى عامل بها السلطان سكان المدينة ، بل ان كل ما يذكرونه هو أن عبد الرحمن أخذ منهم الرهائن وأعاد بناء حصن عمروس (١٨) .



وشهدت السنوات الأخيرة من عهد عبد الرحمن محاولة نصارى قرطبة القيام بثورة ذات طابع خاص ، وهى الثورة التى نلقت اليها الآن نظرا للقارىء ، وقد أمدنا مؤرخو منتصف القرن التاسع اللاتين بكثير من التفاصيل عنها وعن أسلوب حياة مسيحيى قرطبة ومشاعرهم وأفكارهم ، وسنحاول جهد ما أمكننا عرض صورة تفصيلية صادقة لها .



الفصل السادس

حسن معاملة السلطة الحاكمة لتصارى قرطبة ورد الفعل
من جانبهم • استعرا ب المسيحيين عامة وميلهم الى الآثار
الفكرية العربية والاسلامية • تدهور الأدب المسيحي • رد الفعل
من بعض المسيحيين • المؤلف يوضح الجهل المسيحي والأوربي
بالاسلام ونبيه • دفاع المؤلف عن سماحة الاسلام • تطور
المقاومة المسيحية • تطلع بعض الجماعات المسيحية للموت على
يد السلطة الحاكمة • شخصية ايولوج واسرته ، الفارو
المتعصب • وقوع ايولوج في حب فلورا ابنة احد المسلمين •
تأثير أمها المسيحية عليها • شخصية فلورا • هربها هي
واختها من اخيهما المسلم • عودة فلورا والمواجهة بينها وبين
اخيها المسلم • صبرها على التعذيب • هروبها للمرة الثانية •
أول لقاء بينها وبين ايولوج وحبها لها • هروبها للمرة
الثالثة •

ايولوج وقلورا

لم يلاق الفريق الأكبر من نصارى قرطبة - وهم أكثر النصارى ثقافة - ما لقيه اخوانهم من الاضطهاد ، بل تركت لهم الحرية فى ممارسة شعائر دينهم ، ومن ثم شملهم السرور (١) وعمتهم الغبطة وانخرط الكثيرون منهم فى الجيش ، وتولى البعض منهم أرفع المناصب فى البلاط وفى قصور السادة العرب الأغنياء (٢) ، وراحوا يقلدوهم فى كل شيء يفعلونه ، فاصطنع بعضهم الحريم (٣) ، كما بهر الأدب العربى الكثيرين من أصحاب الذوق الرفيع فاجتذبهم اليه حتى نبذوا الأدب اللاتينى وانصرفوا للكتابة بلغة الفاتحين دون سواها انصرفا حمل أحد كتاب ذلك العصر على التحسر ، ولما كان هذا الكاتب أحسن وطنية من أغلب مواطنيه فقد قال : « لقد هام أبناء جلدتى النصارى بقراءة أشعار العرب وأقاصيصهم (٤) وأصبحوا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ، لا يهدفون من وراء ذلك الى دحضها بل يريدون التمتع بديباجتها العربية المشرقة ، فأين هو اليوم ذلك العالم الذى يقرأ الشروح اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ، وأين ذلك الذى يدرس الاناجيل وسير الرسل والحواريين والأنبياء ؟ » وأسفاه . ان جميع شباب النصارى الموهوبين لا يعرفون غير العربية والأدب العربى ، وهم شديداً الانكباب على مطالعة الكتب العربية ودراستها ، كما يسخون كل السخاء فى تكوين المكتبات الكبيرة ويشيرون أنى كانوا الى روعة هذا الأدب ، فاذا حدثتهم عن الكتب المسيحية أجابوك سآخرين بأنها آتفه من أن تستحق عنايتهم أو يبذلوا فيها اهتمامهم » .

فيا لعظم الفجيرة ويا هولها !!

« لقد تناسى المسيحيون كل شيء حتى لغتهم ، وقل أن تجد واحداً فى الآلاف من بيننا يستطيع تحرير خطاب باللاتينية الصحيحة الى صديق له ،

فان جئت الى العربية وجدت الكثيرين منهم يتكلمون هذه اللغة في أسلوب عذب وعبارة سلسلة، وينظمون القصائد الرائعة التي تبرز من الناحية الفنية قصائد العرب أنفسهم (٥) * وأخيرا فليس من الغريب أن نرى هذا الايثار للأدب العربي والهجران التام للأدب اللاتيني ، اذ لم يعد بقرطبة شيء من كتب شعراء العصر القديم (٦) ، ولم تعد كتب اللاهوت تجتذب إليها كثيرا من الرجال العلمانيين ، واتسم الأدب المعاصر بسمات الانحطاط الشديد ، أما من بقى ينظم باللاتينية فقد نسي (٧) قواعد النظم ، وأضحى الشعر أبياتا (٨) مقفاة لا يهتم المرء فيها الا بمرعاة التفاعيل ، ومن ثم كان نظما مبتسر الأسلوب مبتذله *

واستعرب نصارى قرطبة واطمانوا للاحتلال الأجنبي ، ولكن كانت هناك بعض استثناءات لهذه القاعدة ، اذ لم تمت روح الكرامة الوطنية واحترام النفس في جميع القلوب ، فكان هناك رجال كرام أنفوا أن تكون النبذالة سر تقدمهم في قصور العظماء ، وغاظهم أن يروا مدينتهم الوطنية التي لا تزال تزدهر باسمها القديم قد أصبحت مقر السلطان (٩) ، وحسدوا ولايات شمال الأندلس الصغيرة التي صليت بحرب دائمة ولكنها نحتت في التحرر من النير العربي وآل حكمها الى الأمراء المسيحيين (١٠) ، وأقضت الآلام المبرحة مضاجع هؤلاء المتذمرين الوطنيين ، كما دأب السلاطين - بين حين وآخر - على اصدار أوامر واتخاذ اجراءات تعمل على زيادة جرح كبرياء أولئك النصارى وعقائدهم ، من ذلك مثلا ارغامهم على الختان كالمسلمين سواء بسواء (١١) ، وكان القسوس أشد هؤلاء الناس سخطا وتاصلت في نفوسهم كراهية شديدة ضد المسلمين لاسيما وأن هؤلاء القسوس كانوا يعتنقون أفكارا سيئة عن الرسول [صلعم] وعن المبادئ التي جاء بها ، مع أن فهمها كان ميسرا جدا عليهم نظرا لتقلبهم بين العرب ، لكنهم انصرفوا عن الرجوع الى المصادر الموجودة في متناول أيديهم ، وآمنوا بما لقنهم اياه الجاهلون وما راج من الخرافات المستحيلة عن الرسول [صلعم] ، من ذلك أن ايولوج ، الذي لا يشك في أنه كان أعلم قسس هذا العصر وأعرف القوم بالعربية معرفة تمكنه من أن يقرأ في سر مؤلفا تاريخيا في هذه اللغة - أقول أن ايولوج هذا لم يذهب الى الكتب العربية يلتمس فيها أخبار حياة محمد [عليه الصلاة والسلام] بل راح يطلبها في مخطوط لاتيني وقع في يده عن طريق الصدفة وقد وجده في دير « بامبلونة » ، فكان مما قرأه فيه « ان محمدا - وقد اقتربت منيته - أنبا أصحابه أن الملائكة سترفعه ثالث أيام موته ، فلأزم أصحابه جسده في انتظار المعجزة ، فلما انصرم اليوم الثالث دون أن يروا ملكا تركوها ظنا منهم أن ملازمهم

اياها منعت الملائكة من القدوم . واذا ذاك جاء الكلاب فالتهمت بعضها ، ودفن المسلمون ما تبقى منها ، ومن ثم رروا قتل عدد كبير من الكلاب سنويا انتقاما منها » وقد علق ايولوج على هذا بقوله : « تلك هي معجزات (١٢) نبي المسلمين » .

ولم يكن المام القسس بمبادئ وتعاليم محمد [صلعم] بأحسن من المامهم بتاريخه ، وكان طبيعيا أن يصطلم من تشبعوا بأفكار الزهد ومن حرم عليهم حب النساء بفكرة تعدد الزوجات وما بالجنة من حور عين (١٣) ، ولعل أعجب العجب ما تخيلوه من أن النبي [صلعم] يناقض ما بشر به المسيح ، فيقول ألفارو : « ان عدو مخلصنا قد قدس اليوم السادس (١٤) من أيام الأسبوع الذي ينبغي أن يكون يوم حزن وصيام ذكرى لآلام سيدنا يسوع المسيح فجعله يوم لهو وفحور ، ولقد أمر المسيح تلاميذه بالعفة أما هذا فقد دعاهم للانغماس في الملذات ، واذا كان المسيح قد دعى الى الزواج فقد جاء هذا ودعا الى الطلاق » (١٥)

على أنه من المستحيل أن نعتز في العهد الجديد على ما ينسبه ألفارو الى السيد المسيح في قوله : « وقد أمر المسيح أن يمتنع المرء عن زوجته أيام صيامه ، أما هذا فقد أمر بأن تكون أيام الصوم هذه على الخصوص أيام متعة جسدية » (١٦)

ومع أن ألفارو كان قليل العلم بكثير من أمور البلاط الا أنه كان يعلم بمدى سيطرة يحيى على عبد الرحمن بن الحكم وذلك حين لم يمسك السلطان عن النساء خلال شهر الصوم (١٧) .

من هذا يستدل على أنه كانت لدى القسس فكرة خاطئة كل الخطأ عن الدين الاسلامي الذي كان اخوانهم النصارى يعرفونه أحسن منهم ، والذين حاولوا افهامهم أن محمدا [صلعم] قد بشر بدعوة خلقية بحتة (١٨) ، لكن محاولتهم هذه ضاعت أدراج الرياح ، ودأب رجال الكنيسة (*) على ادراج الاسلام في نفس مرتبة الوثنية الرومانية واعتباره عبادة أصنام من ابتداع الشيطان (١٩) .

غير أننا اذا أردنا معرفة سر مقتهم هذا لوجب أن نفتش عنه في طبع العرب وليس في الدين الاسلامي ذاته ، ذلك أن انهماكهم في الملذات وكثرة ما حياق بالقسس كانا من المظالم والصوامل التي عملت على بث الكراهية في نفوس القساوسة الذين كانوا يحبون الرياضة الروحية العميقة والنسك الشديد والتشدد في التوبة ، واذا كان المسلمون الكبار أذكى من أن يضايقوا النصارى بسبب عقيدتهم فإن العامة - كما مى في كل مكان - كانت لا تتسامح معهم ، وكانت اذا رأت قسيسا في

الشارع صاحبت به « هذا هو المجنون » وترنمت سساخرة بالصليب ، ورجله الصبية بالحجارة ، وطالما سمعهم القسيس أثناء الجنائز يقولون « لا يرحمهم الله » ، وفي الوقت نفسه تتساقط على الموكب الأقنار والحجارة ، وإذا قرعت نواقيس الكنائس للصلاة هم المسلمون رؤوسهم وقالوا : « يالها من جماعة ساذجة منكوبة أفسدها قسيسها ، وما أشد حماقتها إذ تؤمن بنا يلفنونها إياه من المغتريات ، ألا لعنة الله على أولئك الخادعين » ، وكان كثير من المسلمين ينفرون من النصارى أو على الأقل من قسيسهم ، فإذا كلموهم وقفوا على بعد منهم حتى لا يمسسوا ملابسهم (٢٠) كما يقول ايولوج .

إلا أن هؤلاء المعتبرين إنجاسا الذين كان الاتصال بهم كالاتصال بالأجرب والذين كانوا يرددون كلمات المسيح إلى تلاميذه « سيكرهمكم الجميع من أجل اسمي » قد تذكروا جيدا أن نظامهم كان أقوى نظام في الدولة وقت أن كانت السيادة للنصرانية في أسبانيا ووقت أن شيدت الكنائس الفخمة في كل مكان (٢١) .

وأحس القسيس والرهبان والقلّة من العلمانيين الذين يفكرون تفكيرهم بجرح كبريائهم ، وأحنقتهم الشتائم التي كانت تنهال عليهم ، فانطلقوا يعملون في حماسة ، ولم يركنوا إلى اجتراد آلامهم في صمت . ولم يعودوا يقنعون بالتذوّر التي لا تجدى ولا يتمزيق نفوسهم غضبا ، بل قام هؤلاء الرجال المتحمسون في المدن البعيدة عن مركز الاحتلال الإسلامي ونجحوا في رفع راية الثورة وأصبحوا مقاتلين .

أما في الجبال فقد سلكوا سبيل الحرية التي يحياها أهلها وعاشوا عيشة قطاع الطرق .

وسواء أكانوا جنودا في طليطلة أو شطارا في جبال مالقة فقد أعلنوا على المسلمين حربا تفوق الوصف .

وأما في بلد السلطان فقد استحال عليهم القيام بثورة مسلحة ، ومن ثم سلكوا سبيل الاستشهاد ، ولأزم القسيس بيوتهم لا يبرحونها إلا للضرورة القصوى (٢٢) تفاديا لاهانة العامة لهم ، وطالما تظاهروا بالمرض فيلازمون فراشهم طوال يومهم تهربا (** من الجزية التي تصر الدولة على أخذها منهم (٢٣) في نهاية كل شهر ، فكان من جراء انزوائهم الطويل وملازمتهم الوحدة والتأمل وانطوائهم على أنفسهم أن نمت فيهم الكراهية السوداء وكانوا يشعرون بالسرور كلما تزايدت هذه البغضاء في نفوسهم وفي تذكّركم ما يجد من الآلام ، وكانوا يستيقظون عند

غروب الشمس ويجلسون للقراءة فى صمت الليل الرهيب امام ضوء مصباح خافت تتذبذب شعلته (٢٤) ويطالعون اصحاحات معينة لا سيما الاصحاح العاشر من انجيل متى (٢٥) وكتابات آباء الكنيسة وحياة القديسين التى تكاد تكون الكتب الوحيدة المعروفة عندهم ، ويقرؤون قول المسيح : « ها انا ارسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، ولكن احذروا الناس لانهم سيسلمونكم الى مجالس ، وفى مجامعكم يجعلونكم وتساقون امام ولاة وملوك من اجل : شهادة لهم وللأمم . » لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدر ان يقتلها ، بل خافوا بالحرى من الذى يقدر ان يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (٢٦) .

وعرفوا من سفر الآباء ان الذين لهم ملكوت السموات هم الذين يتقدمون عن طيب خاطر لتبيل الشهادة .

غير ان الذى ألهب على الخصوص خيال هؤلاء القسس هو صورة هؤلاء القديسين الذين ذاقوا الاضطهاد على أيدي معارضيتهم والذين كانوا لا يتهربون من الشهادة بل يؤثرون هذا الضرب المقدس من الموت (٢٧) ، فأعجب القسس ايما اعجاب هؤلاء الأبطال ، واشتدت رغبتهم فى الاقتداء بهم والسير على نهجهم ، وكرهوا انه لم يقدر لهم ان يلحقوا من الاضطهاد مثل الذى لقيه هؤلاء ، ودعوا الله مخلصين ان يتيح لهم فرصة القيام بعمل عظيم فى سبيل الدين ، وان يجدوا الميتة التى لقيها خدام الرب فى أيام الكنيسة الأولى .



وتأثرت هذه الجماعة المتحمسة المتعصبة بتحريض رجلين بارزين هما القديس ايولج والعالم الفارو .

اما ايولج فكان من أسرة قرطبية قديمة عرفت بتعلقها بالنصرانية وكراهية المسلمين ، وكان جده لأبيه - واسمه ايولج أيضا - قد اعتاد - اذا سمع المؤذن يؤذن للصلاة - ان يرسم الصليب ويرتل كلمات الزمير (٢٨) : « اللهم لا تصمت ، ولا تسكت ولا تهدأ يا الله ، فها هو ذا أعداؤك يعجون ، ومبغضوك قد رفعوا الرؤس » ، وعلى الرغم من شدة نفور هذه الأسرة من المسلمين الا أن اصغر أخوة ايولج الثلاثة واسمهم يوسف كان أحد موظفى دواوين الحكومة ، واحترف أخواه الآخرون التجارة (٢٩) ، وضربت إحدى أخواتهم واسمها « أونولون » الخمار على وجهها ، اما ايولج نفسه فقد أعد نفسه منذ الصغر لخدمة الكنيسة فنشأ بين قساوسة كنيسة القديس « زويل » (٣٠) وانكب ليلا ونهارا على

الدراسة حتى بن اخوانه بل ومؤيديه أنفسهم ، ولما كان يتحرق لاستيعاب
 مالا يستطيعون تدريسه له فقد اعتصم بالصمت خوف ايلامهم ان هو
 أطلعهم على رغبته الخفية ، لكنه كان يخرج في السر ويذهب دون علمهم
 لسماع دروس أشهر فقهاء قرطبة لاسيما رئيس دير (٣١) SPERA-IN-DEO
 البليخ الذي ألف كتابا في تفنيد العقائد
 الاسلامية (٣٢) وكتابا عن استشهاد الرجلين اللذين قطعت رأسهما في
 مستهل حكم عبد الرحمن الثاني (٣٣) ، فكان لهذا الراهب المتحمس أكبر
 الأثر في نفس ايولوج الشاب ، فهو الذي بث فيه ما امتاز به طول أيام
 حياته من الكراهية العميقة الهمجية ضد المسلمين ، كما تعرف ايولوج
 أيضا في دير « سبيرا ان ديو » على شاب شريف غنى من أهل قرطبة اسمه
 « الفارو » ، ولم يكن الفارو يعد نفسه للمخدمة الكنسية لكنه كان مقيما
 على تتبع محاضرات الراهب الشهير الذي كان يشاطره نفس تلك العواطف ،
 فتفاهم ايولوج مع الفارو وأحب كل منهما الآخر وتوثقت بينهما عرى
 الصداقة فاندفع الفارو حين أخذ فيما بعد في ترجمة حياة صديقه
 - يسهب في سرور في ذكر الفترة التي أشهد الله فيها - هو ورفيقه -
 على صداقتهما الأبدية ، وهي الفترة التي كان أهم ما يشغلها فيها كتابة
 كتب في الأدب والشعر ، وهي الكتب التي أعدها فيما بعد رغم ما يرتبط
 بها من الذكريات الجميلة مخافة ألا تخكم عليها الأجيال القادمة الا بهذه
 الآثار التي تنقصها حساسة الشباب (٣٤) .



كان ايولوج في بادئ الأمر شماسا ثم صار قسيس كنيسة القديس
 زويل ، وأكسبته فضائله تقدير جميع من عرفوه فكان يحب التردد على
 الأديرة التي أصبح له فيها نفوذ عظيم ، وبالنسبة في تقواه العجيبة فكان
 يقهر جسمه بالصوم والسهرة الدائنين ، وكان يدعو الله مخلصا أن
 يخلصه من حياته التي كان منها في وزر ، ويسأله أن يدخله ملكوت
 الصالحين (٣٥) .

غير أن هذه الحياة الجافة أضاعها أشعة عذبة من الحب ،
 وهو حب طاهر عف بالغ السذاجة حتى ان ايولوج نفسه لم يكن
 يحسبه حبا فلم يفكر فيه من هذه الناحية بل كان يقصر بخطاياهم في
 سذاجة محبة الى النفوس ، ذلك أنه كانت توجد حينذاك في قرطبة فتاة
 شابة رائعة الجمال تدعى « فلورا » نشأ بينها وبين ايولوج حب روحي
 عجيب ربط بين قلبيهما ، وكانت فلورا ابنة رجل مسلم وأم مسيحية
 فاعتبرت مسلحة ، ومات أبوها وهي مازالت طفلة فنشأتها أمها النقية
 على النصرانية وعلى اكبار كل ما هو مسيحي مقدس ، غير أن أخاها - وكان
 شديد التمسك بإسلامه - أخذ يرقب عن كثب جميع خطاها ، فلم تكن

نستطيع الذهاب الى القداس الا نادرا ، وأزعجها هذا التضيق فتساءلت :
 ألم تكن مخطئة في تظاهرها بالاسلام ؟ ألم تقرأ في انجيلها الحبيب قول
 المسيح « كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبى
 الذى فى السموات ، ولكن من ينكرنى قدام الناس أكره أنا أيضا قدام
 أبى الذى فى السموات » . وكانت فلورة فتساء قويه الشجاعة جريئة
 بأسلة ، ذات عزيمة لاتقهر ، وطبيعة نافذة جسورة ، ميالة للمخاطرة ،
 ومن ثم جمعت أمرها وغادرت البيت دون أن تعلم أخاها أين هى ذاهبه ،
 واصططحت معها أختها Baldegarone « بلديجوتون » التى كانت
 تشاطرهما عواطفها ، واختفت الاختان عند النصارى ، ومنتش أخوهما
 عنهما عبثا فى جميع الأديرة ، ورج فى السجن بالقساوسة الذين ترامي
 الشك فى أن لهم ضلعا فى اختفاء الفتاتين فلم يجده ذلك نفعا ، وحينذاك
 عادت فلورا من تلقاء ذاتها الى البيت اذ لم نشأ أن تكون سببا فى
 الحاق الاضطهاد بالمسيحيين ، وجاءت الى أخيها قائلة له : « ان كنت تبحث
 عني واضطهدت رجال الرب من اجلى فما أنا ذا . . . لقد جئت اليك تدفعنى
 الهجرة لأن أقول لك ان شكوكك صادقة ، وانى مسيحية ، فحاول أن
 جرؤت - أن تفصلنى عن المسيح بتعذيبك اياى - فقد وطنت نفسى على
 احتمال كل شيء » . فصاح بها أخوها : « ما أتعسك أيتها الشقية . . .
 ألا تعرفين أن ديننا يأمر بقتل المرتد ؟ » فأحابتة فلورا : « بلى . أعرف
 ذلك ، لكننى سأصيح وأنا على المشنقة ، يا يسوع يا سيدى وربى أفض
 على حبك أمت سعيدة » فاحتدم أخوها المسلم غضبا من اصرارها وصفعها
 بشدة ، غير أن فلورا كانت أقوى من أن يؤثر فيها الألم الجسمانى ،
 فلما رأى أخوها أن شدته معها لم تجلس نفعا حاول استمالتها باللين
 فلم ينجح أيضا ، وحينئذ مضى الى القاضى وقال له : « دونك أختى أيها
 القاضى ، لقد كانت دائبة معى على تعظيم ديننا الكريم واقامة شعائره حتى
 أفسدها النصارى وأوحوا اليها احتقار رسولنا ، وجعلوها تؤمن أن عيسى
 هو الله » ، فسألها القاضى : « أحقا ما يقوله أخوك ؟ » فأجابتة : « أو تسمى
 هذا الكافر بأخى ؟ انه ليس بأخى وما ترانى الا منكرة أخوته ، وهو
 لايقول الا الكذب ، فلم أكن أبدا مسلمة ، وما عرفت قط منذ طفولتى
 غير المسيح وما عبدت سواه ربا ، وما لى عريس غيره » .

لم يكن ثمت مندوحة أمام القاضى من الحكم بقتل فلورا الا أنه عطف
 على شبابها ورقط عاطفته لجمالها ، فأمر اثنين من الشرطة ببسط ذراعيها
 والشد على رقبته وضربها بالمقارع ، ولا شك أنه كان يعتقد أن العقاب
 الجسمانى كاف لارجاع هذه الشاة الضالة الى حظيرة الايمان ، ثم أسلمها

بعد ذلك الى أخيها وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة قائلا له : « ثقها
فى ديننا فان لم تهتدى فبهاتها الى ثانية ! » .

وعاد المسلم بأخته الى البيت وعهد بها الى أهله وخاف أن تعاود
الكرة فتهرب ثانية فأحكم غلق الأبواب مكتفيا بذلك ، إذ كان هناك سور
عال يكتنف طوابق مسكنها كلها ، وفاته أن امرأة شجاعة كفلورا لاتف
فى طريقها مثل هذه العقبة ، فلم تنقض الا أيام قلائل على هذا الحادث
حتى أحست الفتاة فى نفسها قوة تدفعها لمحاولة الهرب ، ولم تكن جراحها
قد اندملت بعد تماما ، فاعتنمت فرصة ظلام الليل واعتلت سطح مسكن
قائم فى الحوش وتسلمت الحائط بخفة وتسلت حتى بلغت الأرض
سائلة وصارت فى الشارع وأسرعت تحت جنح الظلام ، وساعدها الحظ
فبلغت دار أحد معارفها النصارى واختبات لديه فترة من الزمن حيث
رأها ايولوج لأول مرة (٣٦) ، وكان لجمالها وعذب حديثها وطيب أخلاقها
ومخاطراتها الخيالية وصبرها على تحمل الآلام وتقواها الشديدة وصوفية
حماستها أثر (٣٧) بالغ على خيال القس الشاب رغم سيطرته على نفسه ،
فأحس نحوها بمحبة نافذة وحب رفيع يسميه الناس بالحب العذرى الذى
يضرم النفوس بلهيب الرغبات المقدسة .



بعد ذلك بست سنوات كان أيولج لايزال يذكر تفاصيل هذه
المقابلة الأولى التى لم تبيل ذكراها من ذهنه ، بل الظاهر أنها أخذت فى
الازدياد والحيوية بمرور السنين ، تشهد على ذلك كلماته العاطفية التى
كتبها الى فلورا حينذاك اذ يقول لها :

« أيتها الأخت المباركة الطوبانية : لقد تنازلت فأريتنى - منذ أمد
بعيد - رقبتك الممزقة بالأسواط ، وقد قصوا لك شعرك الكث الجميل
الذى كان يتهدل عليها فيسترها ، وكان لك أن اعتبرتنى أباك الروحى
واعتقدت فى العفة والطهر اللذين هما منك ، وقد مست راحتى جراحك
مساحنونا ، وكم وددت لو أبرأتها بمرور شفتى عليها ، غير أنى لا أجرؤ
على ذلك ، فلما تركتك كنت كالحالم وأخذت زفرائى تتصاعد
بلا انقطاع » (٣٨) .



وخافت فلورا أن يستدل القوم على مكانها بقرطبة فاصطحبت معها
أختها « بلديجوتون » واختبأتا فى مكان آخر ، وسنقص فيما بعد كيف
اكتشها ايولوج وأين اكتشفها .

الفصل السابع

التقاء القسيس برفكتوس ببعض المسلمين وتهجمه على دينهم • مقاضاته • مباحاته بالنيل من الاسلام وتنفيذ حكم الشرع فيه • صفة يوم مقتله • المسيحيون يعتبرونه قديسا • تنبؤه قبل هلاكه بموت نصر الخصى • تأمر طروب مع نصر الحاجب على اغتيال الأمير عبد الرحمن بالسّم • الأمير يأمره بتناول النّواء لشكّه فيه فيكون في ذلك هلاك الحاجب • قصة التاجر جان وسلاخته • اتهامه بالتجديف والحكم عليه • ظهور رد فعل مسيحي متعصب على رأسه الراهب ايساك • سيرة ايساك • تعرضه بالاساءة الى الاسلام • فريق من المسيحيين يشجب حركة التعصب عن اخوانهم في الدين • عقد مجمع ديني لمنع المسيحيين من هذا العمل • قوس بن اثنيان ابن جوليان مندوب عبد الرحمن يحضر المجمع • صفة قوس •

صور التمرد على الحكم العربي في الأندلس

في الوقت الذي استسلم فيه مسيحيو قرطبة المتصبون للإسلام
المقاسية التي ولت في الظلام والتي زاد مرارتها تقاعسهم عن العمل جرت
حادثة ضاعفت - ان كان ثم مكان للمضاعفة - من كراهيتهم وتصيبهم
فقد حدث أن كان قسيس كنيسة القديس « اسيسكل » واسمه
« برفكتس » خارجا ذات يوم لقضاء حاجات منزله حين اقتربت منه
طائفة من المسلمين وجاذبوه الحديث لالامه التام بالعريضة ، وما لبث
الحديث أن تطرق للدين فسأله رأيهم في محمد وعيسى [عليهما السلام]
فأجابهم : « أما المسيح فهو ربي ، وأما نبيكم فلا أجرؤ أن أسمعكم ما نقوله -
نحن المسيحيين - عنه ، لأنني ان ذكرت ذلك لكم ألتكم وأسلمتموني الى
القاضي الذي سيحكم علي بالموت ، لكن اذا وعدتموني ألا خوف علي
وأمتعنوني قلت لكم في صراحة ما نطالعه عنه في الانجيل وعن مكانته
عند النصارى » فقالوا له : « قل وانت آمن ، وخبرنا ما يقوله اخوانك
النصارى عن نبينا ، ونقسم ألا يمسك أدنى سوء » . فقال برفكتس :
« جاء في الانجيل انه سيقوم صحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات
وعجائب لكي يضلوا - لو أمكن - المختارين أيضا » ، ووضع برفكتس
الرسول [صلعم] مع هؤلاء [حاشا لله] ثم تحمس وأسرف في القول
أكثر مما ينبغي لسانه باللعن والهجو وتركه المسلمون يذهب سالما ولكنهم
كانوا ناقلين عليه لما قال ، ثم انقضت فترة أبصروه بعدها قادما عليهم
فاعتقدوا أنهم أصبحوا في حل من يمينهم فصاعوا بمن حولهم :
« هذا هو الفاجر الذي سب أمامنا رسولنا سببا لو سمعه أشدكم صبرا
لنفد صبره » ، فرأى برفكتس في الحال - كما يقول ايولوج « كأننا
قد أثار حلية نحل » اذ أحذقت به جمهرة غفيرة استقرهم الغضب فأمسكوا
بتلابيبه وأسرعوا به الى المحكمة حتى لقد كانت قدماه لا تمسان الأرض ،
وقال المسلمون للقاضي : « ان هذا القس جدف في نبينا ، وانك لتعرف

أكثر منا أى عقاب يستحقه هذا المجرم » ، فلما سمع القاضى شهادة الشهود سأل برفكتس ما ذا يقول ، ولم يكن هذا القس التعس ممن أعدوا أنفسهم للشهادة فاضطربت أوصاله رعبا وأنكر ما نسبوه اليه لعل فى الانكار خيرا له ، ولكن التهمة كانت لاصقة به ، فحكم عليه القاضى بالموت جزاء تجديفه فى الدين ، فقيد بالسلاسل وألقى به فى السجن منتظرا أمر نصر الحاجب بتحديد يوم يقتل فيه .

حينذاك تلاشى كل أمل للتجاة من نفس ذلك القس الذى راح ضحية غفلته فى الوثوق بقوم أسلموه للقتل فأدى يقينه باقتراب منيته الى ان نفث فيه شجاعة لم تواته لحظة مثوله أمام القاضى من قبل ، وكره من نفسه ضعف إيمانه الذى كلغه حياته وأيقن بأن ليس هناك من شيء يستطيع انقاذه أو تخفيف آلامه ، فاعتترف جهرا متباهيا بأنه جدف فى النبى [صلعم] وجرح رسالته والمسلمين وأعد نفسه لمبتة نعتها «بالامتشهاد» ، وعكف على الصوم والصلاة ولم يزر النوم عينيه الا غرارا ، وتوالت الشهور بعضها فى اثر بعض ، وكان نصرا الحاجب نسيه ، أو أنه أراد أن يطيل ميته البطيئة ، والحقيقة أن نصرا أراد المبالغة فى القسوة فصمم على أن يكون مقتل برفكتس يوم عيد الفطر .

ووافق أول شوال [سنة ٣٣٥ هـ] أول يوم من أيام الربيع وهو ١٨ أبريل ٨٥٠ م ، ومنذ فجر هذا اليوم أخذت شوارع قرطبة التى خيم عليها الصمت والتى هجرت مدى شهر الصوم تشهد منظرا حيا رائعا ، فضاقت على سعتها بهذه الجموع الفقيرة المناسبة شطر المساجد ، وخرج عليه القوم يرفلون فى ملابسهم الفخمة الحديدية ، ولبس العبيد ما تفضل به عليهم ساداتهم ، وراح الصبية الصغار يخطرون فى أبواب آبائهم الطويلة ، وسخرت كل الدواب حاملة على ظهورها أكبر عدد مستطاع من الناس ، وارتسم السرور على جميع الوجوه ، فكان الإصدقاء اذا ما تقابلوا أقبل بعضهم على بعض بالتهنئة والعناق ، ثم فرغت الصلاة وبدأ التزاور وأعدت أشهى الأطعمة وأفخر المشروبات فى كل مكان فى انتظار الطارقين ، وازدحمت أبواب الأثرياء بالفقراء الذين أخذوا ينقضون على بقايا الولائم كأنهم الغربان الجائعة ، فكان ذلك يوم عيد وحرية للنساء اللواتى يقضين العام كله خلف الأبواب المغلقة ، وراح الآباء والأزواج يجرعون الأشربة ويسكرون ، والنساء يذرعن الشوارع حاملات بأيديهن سعف النخيل ، موزعات الكعك على الفقراء وهن فى طريقهن الى المقابر ، فيثرن الفتنة تحت ستار البكاء على الموتى (١) .

فلما كان وقت الظهيرة زخر نهر الوادى الكبير بالزوارق العدة حاملة السكارى ، وتجمع أهل قرطبة فى سهل كبير على الجانب الآخر من النهر متظاهرين بسماع الخطبة لكنهم جاءوا فى الواقع للذة أخرى ، اذ مضى القوم الى برفكتس وأنباؤه أن قتله سيكون فى الساحة التى تكاثر فيها الناس ضاحكين مستبشرين ، وتبها هو لصعود النطع الا أنه امتلا غيظا وألما حين فكر أنه سيقتل وسط مظاهر السرور والبهجة الشاملة ، وأن هذه الجموع ستلهو بمشاهدة مصرعه فصاح حانقا : « اننى أتنبأ أن نصرا هذا الرجل المتكبر الذى تطاوى أمامه رقاب عظماء أشرف العائلات وأغرقها والذى يسيطر على أسبانيا - لن يرى الاحتفال السنوى بهذا العيد الذى بلغت قسوته فيه أن يقتلنى فى يومه هذا » .

وتقدم برفكتس بخطى ثابتة فلما أخذوه الى القتل صاح فيهم لاعنا كل مقدس عند المسلمين وأنذرهم بالجحيم تنتظرهم بنيرانها ، ولم يكف عن ترديد هذه الأقوال حتى صعد المشنقة تحدجه نظرات الشعب الغاضب عليه المتعجب منه ، والذى أرضاه مصرع كافر جدف فى الرسول [صلى الله عليه وسلم] .

أما المسيحيون فقد عدوا برفكتس قديسا وتقدموا الى المقصلة . وعلى رأسهم أسقف قرطبة وأنزلوا جثته فى احتفال فخم ولحدوها قبرا ضم رفات القديس « أسيسكل » وراحوا يذيعون أنى كانوا أن الله منتقم لبرفكتس الورع ، وحدث فى مساء اليوم الذى قتل فيه أن انقلب قارب بركابه المسلمين الثمانية فغرق منهم اثنان وحينذاك قال ايولوج : « لقد انتقم الله لجنديه ، ولما كان مضطهدونا قد أرسلوا برفكتس الى الجنة فقد ابتلع النهر اثنين منهم ليبعث بهما الى الهاوية » ، ثم تمت نبوءة برفكتس اذ لم يحل الحول حتى لقي نصر مصرعه ، وكان موته مباغتة مروعا (٢) . فقد راح هذا الخصى القوى الشكيمة ضحية لخيانته ، اذ أرادت السلطانة طروب أن تضمن العرش لأبنها عبد الله بدلا من محمد : أكبر خمسة وأربعين ولدا لعبد الرحمن الأوسط ، وكان محمد هذا من امرأة أخرى اسمها « بهير » . وعلى الرغم من نفوذ طروب العظيم على زوجها الا أنها عجزت عن حمله على تنفيذ خطتها فاتجهت الى نصر الذى تعرف كراهيته لمحمد وسالته أن يخلصها من زوجها ومن ابن بهير ، فوعدها الخصى باستجابة ما سالته اياه ، وأراد أن يبدأ بالأب فطلب الحكيم الحرائى الذى كان قد وفد من الشرق ثم ما لبث أن طبقت شهرته أرجاء قرطبة أثرى ثراء فاحشا من دواء صنعه يزيل أوجاع البطن ولا يعرف أحد سواه سر تركيبه ، فكان يبيع الجرعة منه بخمسين دينارا (٢) ،

وسأله نصر عما اذا كان مستعدا لمديد المعونة اليه فأجاب ان ذلك منتهى
أربه ، فحاوله الخصى ألف دينار طالبا اليه أن يهبى سما نافذ المفعول
يعرف باسم « بسون الملوك » .

وحرز الحراني ما اذا يكون مشروع الخصى فكان بين نارين : ايسم
السلطان ؟ أم يجلب على نفسه غضب الحاحب القوى ونقمة ؟ وأخيرا
أعد السم وبعث به الى نصر ، غير أنه طلب سرا في نفس الوقت الى إحدى
نساء الحريم أن تشير على السلطان بالامتناع عن تجرع الدواء الذي يقدمه
اليه نصر .

وجاء الخصى لرؤية مولاه ، فلما سمعه يشكو من تدهور صحته
حبيب اليه تعاطى دواء مفيد قال ان أحد مهرة الأطباء كان قد وصفه له ،
ثم قال له : « سأتيك به غدا يا مولاي لتشربه قبل افطارك » .

وجاء الصباح وجاء معه الخصى بالدواء ، فعالج السلطان القارورة ثم
قال لنصر : « قد يكون خطرا فجربه أنت أولا ، فأوقع في يد الخصى وشربه
وما كان له أن يرفض والا دل على سوء طويته ، وتجرحه مؤملا أن يسعفه
الحراني بما يفسد مفعول السم ، وبذلك يتفادى الشك والشبهة ، ثم
انكفا الى قصره وبعث في طلب الطبيب الحراني وأفضى اليه في اختصار
بما جرى سائلا إياه أن يبادر الى اسعافه ، فأشار عليه الطبيب بلبن
عزرة ، غير أنه جاء متأخرا (٤) ، اذ كان السم قد مزق أحشاءه وأصيب
باسهال شديد (٥)



لم يدر القساوسة المسيحيون بما جرى في البلاط ، بل كان كل
الذي علموا به أن نصرا الخصى مات بفتة ، وتردد الهمس بينهم أنه لقي
حتفه مسموما ولم يدركوا شيئا سوى هذا ، والظاهر أن البلاط حاول
إخفاء تلك المؤامرة الفاشلة التي اشترك فيها كثير من الشخصيات البارزة
والتي لا نعرف شيئا عنها الا ما ذكره أحد موالى الأمويين حين كتب ما كسب
في عصر أبيبحت فيه حرية الكلام والكتابة ، ولم يعد في الوجود أحد من
المتأمرين .

أما القسس فكان أهم ما استلقت نظرهم هو تحقق نبوءة
« برفكتس » على أفطح صورة ، وهي نبوءة كانت معروفة لكثير من المسلمين
والنصارى الذين شاطروه الحبس .



ثم كانت فظالة معاملة المسلمين لأحد التجار النصرانيين وقسوتهم عليه قد هاجت ضدهم ثائرة الجماعة المسيحية المتعصبة . فقد كان « جان » التاجر رجلا ألوا لا يخشى أحد شره أبدا ، ولم يكن يخطر في باله قط أن القدر قد كتب له أن يتعذب من أجل المسيح ، إذ لم يكن يشغله سوى عمله فنفتت سوقه وراجت تجارتها ، وكان من عادته أن يقسم بالنبي [صلعم] لترويجها ادراكا منه أن اسم المسيحي لا يكون تزكية لها في عين المسلم ، فكان يقول :

« وحق محمد صلى الله عليه وسلم . . . هذا عظيم » .

« وحق محمد صلوات الله عليه . . . لن تجدوا أحسن من هذا » .

وألّف الناس سماع هذه العبارات التي لم تضره أبدا ، غير أن منافسه - ولم تكن سوقهم نافقة كسوقه - حنقوا عليه إذ رأوا ضخامة أرباحه فتريصوا له حتى إذا سمعوه ذات مرة يقسم بالرسول قالوا له :

« انك تقسم دائما بنينا حتى ليظنك من لا يعرفك مسلما . ونصدقك الحق أنا لا نحتمل سماعك تقسم باسمه كاذبا » .

فحاجهم « جان » في بادئ الأمر بأنه لا يقصد من النطق باسم النبي [صلعم] جرح المسلمين ، فلما احتدم الجدل بينه وبينهم صاح بهم :

« لن يجرى اسم نبيكم بعد اليوم على لساني ، ولعنة الرب على أن أنا نطقت به » .

فلم يكده يفرغ من قوله هذا حتى تعالى صياح القوم بأنه جدف في الرسول وجروه الى القاضي الذي سألته الحقيقة فأجابه بأنه لم يفكر مطلقا في مثل هذه الإهانة ، وذكر له أن القوم رموه بهذه الفرية حسدا منهم له على رواج سلعته .

كان على القاضي اما أن يطلق سراحه ان آمن ببراءة ساحته ، أو يأمر بقتله ان رآه أجرم لكنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، بل اتخذ طريقا وسطا حيث أمر بجلده أربعمائة جلدة ، فحنقت العامة التي كانت ترى أن الموت هو عقوبة « جان » .

ولاقي جان عذابه ثم أركبوه حمارا ظهرا لقفا وطافوا به شوارع المدينة ، والمنادي أمامه يصيح : « هذا جزاء الساخر بالرسول عليه الصلاة والسلام » ، ثم قيدوه بالسلاسل وزجوا به في الحبس ، ولما زاره ايولوج بعد ذلك بعمدة أشهر كانت آثار الجلد لاتزال تخذد بدنه (٦)



على أنه ما كادت تمر أيام قلائل على هذا الحادث حتى ولج الميدان أولئك المتحمسون انتعصيون الذين أسرفوا كثيرا في لوم أنفسهم على تكاسلهم ، وكان منتهى آمالهم أن يموتوا على يد أعدائهم ، ولم يكن أمامهم لتحقيق هذا الهدف سوى النيل ممن صلى الله عليه وسلم فمضوا في هذا السبيل ، وكان قدوتهم في هذا المسلك الراهب « ايساك » ، وهو قرطبي المولد ، خرج من أبوين شريفيين ثريين بذلا الهمة في تثقيفه ، فأقن العربية وعين - وهو ما زال بعد حدثا صغيرا - كاتبا في بلاط عبد الرحمن الثاني ، فلما بلغ الرابعة والعشرين من عمره استيقظ ضميره فجأة فغادر البلاط ونفذ حياة الرفعة التي تنتظره ، وذهب فقبّر نفسه في دير « تابانوس » الذي كان قد شيده عمه « جريميه » من ماله الخاص في شمال قرطبة ، وكانت تحوطه الجبال الشاهقة الضاربة بقممها الى السماء والغابات الكثيفة ، وكان النظام فيه أدق منه في أى مكان آخر ، وكان هذا الدير معدودا بحق بؤرة التعصب .

ووجد ايساك في الدير عمه وعمته اليزابث وكثيرين من أقاربه الذين أسرفوا على أنفسهم في الزهد والتصوف ، فنفتت صورتهم والوحدة التي هم فيها ومنظر الطبيعة المتجهة الموحشة والصيام والتأملات والعكوف على الصلاة والتقشف وقراءة حياة القديسين . . أقول نفتت كل هذه الأمور في روح الكاهن الشاب تعصبا هو أقرب الى الجنون ، لاسيما حين ادعى أن المسيح قد طلب اليه أن يموت في سبيله ، واذ ذاك يمم وجهه شطر قرطبة وجاء الى قاضيها وقال له : « اننى راغب في اعتناق دينك ان علمتنى اياه » ، فأجاب القاضى : « على الرحب والسعة ! » ، وسره أن تكون هدايته على يده ، وأخذ يشرح له قواعد الاسلام ، بيد أن ايساك قاطعه وصاح به متهما نبيه بالكذب والخديعة ، ودعاه « وهو الرجل الدقيق الفهم » لهجر هذه العقيدة واعتناق المسيحية ففيها السلام ، فذهل القاضى لجرأة الراهب الشاب العجيبة ، وفغر فاه دون أن ينبس ببنت شفة ، وتزاحمت الدموع غضبا في عينيه ، ثم صفع ايساك صفعة قال له الراهب من أجلها : « ماذا فعلت ؟ أتجرؤ على صفع من برأه الرب على صورته ؟ ، لابد وأنتك سوف تحاسب على ذلك يوما ما حسابا عسيرا » . فقال قضائه المساعدون : « أناتك أيها القاضى وتذكر كرامتك ، وتذكر أن ديننا لا يادن لنا بسب أحد أيا كان حتى ولو كان مستحقا الموت ! » .

فقال القاضى موجها كلامه للراهب : « أيها المنكود ، لعلك مخمور أو فاقد لوعيك فأنت تهنى والا فهل تراك جاهلا أن الدين الأبدى - دين

من سببته - بلا تبصر - يدين بالموت من يجروون على الكلام عنه بهذه
اللهجة التي تحدثت بها ؟ » .

فقال الراهب فى هدوء : « أيها القاضى ، اننى فى تمام عقلى ولم أذق
الحمر أبدا ، ولكنى أعشق الحقيقة فأحببت أن أذكرها لك ولمن حولك ،
فاحكم على بالموت الذى أتمناه ولا أخافه لأننى أعرف أن السيد قال :
طوبى لمن اضطهدوا من أجل الحق ، فان لهم ملكوت السموات » .

فأخذت الشفقة القاضى على هذا الراهب المتعصب وأمر بسجنه ،
ثم مضى الى السلطان يسأله أن يأذن له فى التساهل مع هذا الرجل
الذى لا يشك فى أن به لوثة ، بيد أن عبد الرحمن كان حانقا أشد الحنق
على النصارى لاحتغالهم بجثة برفكتس ، فأمره أن يطبق القانون بحذافيره ،
ثم أراد أن يحول بين المسيحيين وبين دفن جثمان « ايساك » فى أهبه ،
فطلب إليه ان تظل الجثة على الصليب بضعة أيام مدلاة الراس ثم تحرق
ويذر رمادها فى النهر .

وتم تنفيذ هذه الأوامر يوم ٣ يونيو ٨٥١ م [= ٢٩ ذو القعدة
سنة ٢٣٦ هـ] ، لكن على الرغم من أن السلطان حرم على دير « تابانوس »
جسد ايساك إلا أن الرهبان اعتاضوا عنها برفعهم اياه الى مرتبة
القديسين ، ونسبوا اليه كثيرا من الآيات والمعجزات ، لا فى أيام طفولته
فحسب بل وقبل ولادته أيضا (٧) .

بذلك انفتح المجال أمام الجميع ، فما انقضى يومان على قتل
« ايساك » حتى قام « شانجه » الفرنسى وكان فى حرس السلطان ومن
تلاميذ ايولوج وجدف فى النبى [صلعم] فقطعت رقبته (٨) .

وفى يوم الأحد التالى ٧ يونيو ٨٥١ م [= ٣ ذو الحجة
سنة ٢٣٦ هـ] جاء الى القاضى ستة رهبان من بينهم « جيرييه »
عم « ايساك » ، وآخر يدعى « ها بنتس » وكان مقيما على اعتزال الجميع
فى قلابة وصاحوا به « انا نحن أيضا نقول لك ما قاله لك اخوانا القديسان
ايساك وشانجه » ، ثم افحشوا القول فى الرسول [صلعم] وقالوا :
« ألا فانتقم الآن لنبيك ، وعاملنا بأفطع ضروب الشدة ! » ، فضربت
أعناقهم جميعا (٩) .

أما « سسناثد » قسيس كنيسة القديس « أسيكال » فكان صديقا
لاثنين من هؤلاء الرهبان ، وقد زعم أنه رآهما ينزلان عليه من السماء
ويطلبان اليه أن ينال هو الآخر الشهادة ، ومن ثم حذا حذوهما وقطعت

رأسه ، لكنه قبل صعوده المقصلة حض الشماس بولص ، على اقتفاء أثره ،
فما انقضت أربعة أيام على مقتله حتى أطيحت رأسه هو الآخر يوم ٢٠ يوليو
١٦ محرم ٢٣٧ هـ [وتبعهم بعد ذلك راهب اسمه « تميم » (١٠) .

هكذا استشهد أحد عشر رجلا في أقل من شهرين ، فعد ذلك نصرا
للفريق المتخالي في تمصيه والذي اعتد بهذا الفوز .

أما المسيحيون الآخرون الذين كانوا لا يطلبون سوى العيش في
هدوء فقد حق لهم أن ينزعجوا من هذا التعصب الغريب مخافة أن يؤدي
بالمسلمين الى التربص بالنصارى واضطهادهم فقالوا لهم : « ان السلطان
يأذن لنا بممارسة شعائر ديننا ولا يرغمنا على شيء ما ، فما الداعي لهذا
التعصب الشديد ؟ » ان الذين تسمونهم شهداء ليسوا شهداء أبدا
بل هم قوم منتحرون ، وقد فعلوا ما فعلوا بدافع العجرفة وهي رأس
الخطايا جميعا ، ولو كانوا يعرفون الانجيل لطالعو قوله : « ليس للمفتابين
ملكوت السموات ، كما أن المسلمين يقولون لنا : لو كان الله يريد أن
يبرهن على كذب نبوة محمد [صلعم] وأنه يمد هؤلاء المتعصبين بما يبدونه
من الثبات لجاء بمعجزة نهدينا الى دينكم ، ولكن الله - بدلا من ذلك -
مكننا من حرق جثث من تسمونهم بالشهداء وذر رمادهم في النهر ،
ولن ينتفع قط رهطكم بهذا القتل ولن يضرونا بشيء . » أفلا يكون من
الجنون اذن أن ينتحروا على هذه الصورة ؟ .. فيماذا نجيب على هذه
الاعتراضات الوجيهة في نظرنا ؟ (١١) .

هذه هي اللهجة التي استعملها العلمانيون وجمهور كبير من القسس
أنفسهم (١٢) ، فنهض ايولوج ذاته للرد عليهم ، وأخذ نفسه بتأليف
كتابه *Memoriale sanctorum* الذي امتلا القسم الأول منه
بالشتم المقتدعة ضد « أولئك الذين يجروون على سب الشهداء ولعنهم
بأفواههم الدنسة » (١٣) ، وأراد ايولوج دحض مفتريات من يطرون
« تسامح المسلمين معهم » فرسم صورة قائمة الظلال للمظالم التي حاقت
بالمسيحيين عامة والقساوسة خاصة فقال :

« وأسفاه ، اذا كانت الكنيسة تعيش في اسبانيا كالزنبقة وسط
الاشواك ، واذا كانت تضيء كالشمعل بين ظهرائي شعب فاسد شرير
فلا يجب أن نعزو هذه المنة الى الكفار الذين ننحنى أمامهم عقابا لنا على
خطايانا . بل يجب أن نعزوها الى الرب الذي يقول لتلاميذه : أنا معكم
على الدوام الى نهاية العالم » .

ثم اخذ ايولوج يكديس كثيرا مما اقتبسه من الانجيل والأساطير ليبرهن على أن استشهاد المرء من تلقاء ذاته ليس واجبا فحسب بل هو عمل مقدس يؤجر عليه ويثاب من أجله ، وهو محمود عند الرب حين يقول لخصومه : اعرفوا اعرفوا أيها الكافرون يامن لايتورعون عن تهوين مجد القديسين .. اعرفوا أنكم يوم الدينونة ستقفون وإياهم وستسئلن يومئذ أمام الله عن تجديدكم !! »

ومن ثم كان حقا للحكومة العربية أن تخاف بدورها من ذلك الاتجاه الجديد للثورة التي لم يكن تعصب المتعصبين سوى مظهر من مظاهرها ، اذ كانت مزيجا من التطلع للاستشهاد ومن الرغبة الملحة في الانتقام السياسي (١٤) .

لكن كيف السبيل الى منح هؤلاء الحمقى من تقديم رؤسهم للجلاد ؟

ان الشرع صريح فى وجوب قتل كل من يسب النبي ، لكن كانت هناك طريقة واحدة لعلها هى الطريقة الناجعة ، تلك هى عقد مجمع يصدر قرارا يمنع المسيحيين من السعى وراء ما يسمونه بالشهادة ، وكان ذلك ما فعله عبد الرحمن الثانى فقد دعا الأساقفة لاجتماع أناب فيه عنه موطئا نصرانيا من رجال الحكومة ، وقد دعاه الى ذلك عدم استطاعته الحضور بنفسه بينهم .

ويشير « ايولوج » و « الفارو » فى فزع الى هذا « الكاتب » الذى يسميانه « بالمعارض » ، و « بالطاغية المتفطرس القاسى » الغنى بشروته ورذائله ، الذى ليس له من المسيحية سوى اسمه ، والذى هو فى الواقع عدو الشهداء اللدود الباغى عليهم « (١٥) » ، فكانا يكرهانه ويستنكفان منه حتى عن التفوه باسمه الذى لم نصرفه الا عن طريق المؤلفين العرب (١٦) من أنه كان يدعى « قومس بن أنتنيان بن جوليان » وكان رجلا لبقا فطنا أجمع المسلمون والمسيحيون على السواء (١٧) على تمكنه من العربية قراءة وكتابة ، فحببه ذلك الى رئيسه عبد الله بن أمية (١٨) ، ودنت منزلته من السلطان نفسه فعظم نفوذه فى البلاط أثناء الفترة التى نتكلم عنها ولم يكن يكثر قط بالشئون الدينية بل كان شديد الاحتقار للتعصب ، فراح يسخر من أولئك الحمقى الذين يطيحون برؤسهم بلا روية أو تدبر ، كما راح يهجوهم . وتوقع « قومس » أن يعامل المسلمون المسيحيين معاملة جافة هى أميل للتحرز منهم وسوء الظن بهم ، فتدبر الأمر فيما بينه وبين نفسه وخشى أن تؤول الحال بالمسلمين الى أن يأخذوا النصارى المعتدلين بجريرة اخوانهم المتعصبين ، واذا ذاك يفقد هو وغيره

من الموظفين المسيحيين وظائفهم الرفيعة وتضيع ثرواتهم التي قضوا العمر في جمعها ، ومن ثم لم يقتصر « قومن » على أن يبين للجميع عطف السلطان ، بل كان يهيم كذلك صالحه الخاص الذي دفعه للشدة في معارضة ذلك السيل الجارف الذي كان يهدده هو نفسه أيضا بالابتلاع .

الفصل الثامن

سر تظاهر شاول أسقف قرطبة بالدفاع عن يسمون بالشهداء • شخصية الأسقف شاول • المجمع يندد بمن يسمونهم بالشهداء • حب الكثيرين لدينهم ودخولهم الاسلام • الشرطة تتعقب ايولوج وتقبض عليه وتزجسه في السجن • التقاؤه في حبسه بفلورا • القاضي يكتفى بحبس فلورا ومارى رغم تحديهما له • تراخي حماسة الفتاتين ولكن ايولوج يقوى عزيمتهما ويشجعهما على الاقدام على الموت • وقوع ايولوج في حب فلورا • الصراع بين القاضى وايولوج بشأن فلورا • الحكم على فلورا ومارى بالموت • تزعزع حركة التعصب الدينى • طروب تحاول نقل العرش الى ولدها عبد الله مستعينة فى ذلك بالخصيان • معارضة الحاجب أبى المرج واقتراحه الأمير محمدا بدلا منه • سعدون الحصى يذهب سرا بأمر الخصيان الى محمد يحمل له خبر اختياره مكان أبيه الراحل • الأمير محمد يخرج فى غلس الظلام متنكرا فى زى ابنته ويدخل قصر الخلافة ويأخذ البيعة لنفسه •

تولى محمد الحكم

انعقد المجمع برياسة « ريكا فريد » رئيس أساقفة اشبيلية ، واستعرض قومس الموقف مصورا العواقب الوخيمة التى قد تتمخض عنها الحماسة الرعناء التى يبيدها أولئك المجدفون فى الرسول [صلى الله عليه وسلم] والذين نعتهم قومس بأنهم أبعد الناس عن القداسة ، وقال ان الواجب يقتضى اصدار قرار الحرمان ضدهم ما داموا عرضوا اخوانهم النصارى للاضطهاد الفظيع ، ثم طلب من الأساقفة أن يعلنوا استهجانهم لخطة أولئك المسمون بالشهداء ، وأن يحولوا بين المؤمنين وبين النسج على منوالهم .

وكان من الواضح عدم جدوى هذا التدبير طالما كان فى استطاعة زعماء الفريق المتحمس - وفيهم القسيس ايلوج - القدرة على معارضة قرارات المجمع وحث البسطاء والسذج - رغم أنف المرسوم - على معاودة التجديف أمام المحكمة : الأمر الذى كان ينبغى منعه بأى حال من الأحوال ، ولما كان من الواضح استحالة تحقيق ذلك الرجاء فقد ألح قومس على الأساقفة أن يأمرؤا بسجن الأشخاص الذين يعدونهم خطرا (١) .

حينذاك نهض « شاول » أسقف قرطبة مدافعا عن الشهداء ولم يكن صادق العقيدة فى وقوفه الى جانب المتحمسين بقدر ما كانت تدفعه رغبته فى أن ينسى قومه سوابقه التى كانت أبعد ما تكون عن الطهارة ، ذلك أن السلطان كان قد رفض الموافقة على ما اتفق عليه قسيس قرطبة من اختيارهم اياه أسقفا لهم ، فوعد « شاول » خصيان القصر بأربعمائة درهم ان هم أظفروه بطلبته ، فطلب الخصيان منه ضمانا على ما يقول فأعطاهم صكا مكتوبا بالعربية تكفل لهم فيه بدفع المبلغ المتفق عليه من دخل ممتلكات الأسقفية مما يضر بالقساوسة الذين كان لهم وحدهم حق التصرف فى هذا الدخل .

ونجح الخصيان فى التغلب على معارضة السلطان فأقر اختيار الكهنوت لشاول الذى عمل منذ ذلك الحين على استرداد مكانته السالفة عند المسيحيين المتزمتين الذين دأبوا على تعنيفه على صكه [الذى كتبه للخصيان] ، فضالى- هو من جانبه فى التحمس لمبادئ المتعصبين ، ولم يحجم عن السير على رأس رجال الدين فى جنازة « برفكتس » المهيبة التى أزعجت الحكومة ، وها هو ذا الآن يستمد عبارات من الانجيل وحياة القديسين لتبرير مسلك المتعصبين ، ومع ذلك لم يشاطره الأساقفة الآخرون آراءه بل انصرفوا الى اصدار قرار ينطوى على ما أراده قومس ، الا أنهم وجدوا أنفسهم فى موقف بالغ الحرج ، اذ لم يكن فى استطاعتهم استهجان مسلك هؤلاء المسمون بالشهداء دون أن يستنكروا فى الوقت ذاته خطة شهداء فجر الكنيسة التى اعترفت بالشهيد وأدرجته فى مرتبة القديسين ، وانتهى الأمر أخيرا الى نهى النصارى عن التطلع بصدئذ الى هذا النوع من الموت المقدس ، يدفعهم الى ذلك عدم جراتهم على ذب هذا النوع من الانتحار أو استهجان مسلك الجماعة التى طلبت الشهادة فى الأيام الأخيرة ، وقد قدر قومس حيرتهم فاكتفى بهذا القرار لا سيما وقد وعده رئيس الأساقفة باتخاذ التدابير الصارمة ضد المحرضين على ذلك .

لم تكد قرارات المؤتمر تذاع حتى وجد فيها ايولوج وأصدقائه سلاحا غضبا يسددونه ضد الجماعة التى أصدرت القرار فقالوا : « ان هذا القرار يجرم شهداء هذه السنة ، ويستدل منه على توقع زيادة عدد الشهداء ، واذن فما المعنى المقصود من هذا النهى عن التطلع الى تاج الشهادة ؟ » ، ويتضح التناقض الغريب بمقارنة هذه الفقرة ببقية القرار التى تقول : « ولا نستطيع نحن الموقعين على هذا الاحتجاج أن نفر ذلك الا بقولنا ان الخوف قد أملاها ، وواضح أن المجمع يقر الشهيد الا أنه لا يجرؤ على التصريح بذلك (٣) » .

وهكذا جار أولئك الرجال المتحمسون المتهورون على سلطان الأساقفة دون تبصر للعواقب الوخيمة التى تترتب على اندفاعهم ، أو لعلمهم توهبوا فى أنفسهم عزيمة وشجاعة لم يكن لهم فى الواقع شئ منها ، فقد اضطربوا أشد الاضطراب حين قام « ريكايريد » رئيس الأساقفة - وكان وفيما يعهده ومؤيدا من جانب الحكومة - فأمر بسجن زعماء هذا الفريق دون أن يستثنى منهم أحدا حتى أسقف قرطبة .

ولقد كذب ايولوج فيما زعمه من أن الداعى الى تخفيه - هو وأصدقائه وتنقلهم بين آونة وأخرى من مكان الى آخر وفرارهم متكررين - هو أنهم

لم يروا أنفسهم بعد أهلا للاستشهاد ، أما الحقيقة فهي أنهم كانوا أحرص على الحياة منهم على الشهادة وأكثر تعلقا بالديسا ، لكن كانت تنقصهم الجراءة على المجاهرة بهذه الحقيقة ، واستولى الوجل على الزعماء ومريديهم حتى لقد قال ايولوج : « لقد كنا نضطرب فزعاً اذا ما سقطت ورقة من غصنها » ، والعجيب أنه سرعان ما تبدلت أفكار جماعات العلمانيين الذين كانوا من قبل يكيلون الثناء للشهداء فنبد الكثيرون منهم المسيحية واعتنقوا الاسلام (٤) .

وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها أسقف قرطبة وكثير من أتباعه القساوسة الا أن القوم سرعان ما اكتشفوا مخباهم والقوا القبض عليهم (٥) ، وجرى على ايولوج ما جرى عليهم هم أنفسهم فقد هاجم رجال الشرطة بيت ايولوج وهو يعمل فى وضع كتابه « ذكريات القديسين » ومبضوا عليه وهو بين أسرته الفزعة ، وذهبوا به الى السجن (٦) حيث التقى مرة ثانية بفلورا ، واليك قصة مجيئها اليه .



كانت هناك فى أحد الأديرة القريبة من قرطبة راهبة صغيرة اسمها « ماري » ، وهى أخت راهب من الرهبان الستة الذين ذهبوا من تلقاء أنفسهم الى القاضى للنيل أمامه من الرسول [صلعم] وانتهى الأمر بقتلهم جميعا ، فاشتد حزن « ماري » على أخيها الحبيب ، وفى ذات يوم جاءتها فتاة أخرى تقية وقصت عليها خبر تجلى الشهيد لها فى النوم وأنه قال لها : « قولى لأختي ماري أن تكف عن البكاء لمقتلى لأنها ستلحق بى فى السماء » فامسكت ماري عن البكاء وتابرت الأمر وتاقت الى ميتة كميته أخيها . وبينما هى فى طريقها الى قرطبة عرجت لتصلى فى كنيسة « سنت اسكيل » وركعت الى جانب فتاة صغيرة تبتهل بحرارة الى القديسين : تلك هى « فلورا » التى دفعته حماسها لمغادرة ملجئها تأهباً من جانبها هى الأخرى لنيل الشهادة ، فسرت ماري اذ رأت لها رفيقة فأوقفتها على خطتها ، وحينذاك تعانقت الفتاتان وأقسمت كل منهما ألا تفارق الأخرى ما عاشتا ، وتعاهدتا أن تموتا معا ، وصاحت ماري : « اننى ماضية للحاق بأخي » ، فقالت فلورا : « وسأكون سعيدة بالموت من أجل يسوع » ، ثم تابعتا المسير وملأت نفسيهما الحماسة ، حتى اذا صارتا أمام القاضى قالت له فلورا : « لقد ولدت من أب كافر ، ولقيت منذ أمد بعيد العذاب على يدك لأنى أبيت انكار المسيح ، ومنذ ذلك الحين أخفيت نفسى لضعفى ، أما اليوم فاننى شديدة الايمان بربى ولا أخشى الوقوف أمامك ، وأقول لك - كما قلت من قبل - أن المسيح ربى » ، ثم أخذت تتلفظ بألفاظ كريهة .

وقالت له ماري بدورها : « أما أنا فقد كان أخي أحد الأبطال الستة الذين قتلوا على المشنقة لأنهم سـخـروا من نبيكم ، وأقول لك بنفس البجـرة : ان المسيح هو الله » . ويظهر أن القاضي أشفق عليهما وعلى شبايهما وجمالهما رغم استحقاقهما الموت ، ولم يفلح في محاولته نيهما عما قالتا ، فاكتمى بحبسهما .

وأظهرت الفتاتان في بادئ الأمر أثناء حبسهما شجاعة نفس وصلابة إيمان ، فدأبتا على الصلاة والصوم وترتيل الأناشيد الدينية الكنسية والاستغراق في التأملات الصوفية ، لكن ما لبث الوهن أن تطرق إليهما إذ ملتا الأسر. وتخاذلتا أمام توسلات من أرادوا العسل على تخليصهما مما هما فيه ، لا سيما من تهديد القاضي الذي رأى أنهما تخافان العار أكثر مما ترهبان الموت ، فأنبأهما أنه سيدفع بهما إلى الفحش إن لم ترجعا عما قالتا (٧) ، غير أن أيولوج جاء في الوقت المناسب لشد أزرها وتقوية روحيهما ، وكان موقفه صعبا إذ كان لابد له من الدخول في تجربة قاسية ، رأى أمر أشق على نفسه من أن يدفع الفتاة التي كتم عنها حبه إلى الصعود إلى المشنقة ؟

ذلك موقف يتخاذل إزاءه أثبت الناس جنانا ، إلا أنه استعان بقوة بلاغته في تثبيت شجاعة الفتاة المضطربة ولم يحاول أن يستبقها أو يزلزل حماسها أو يحملها على تغيير خطتها ، فمن ذا الذي يلومه أو ينعي عليه تعصبه الأعمى ؟ ولكن من ذا الذي لا يبادر إلى تعنيفه على بروده وجموده ؟

والحقيقة أن قلبه كان مثقلا بالحزن والحسرة على الرغم من مظهره الهادئ الذي يخفى تحته ما يضطرم في نفسه من العواطف المتأججه ، وأحس وهو بالقرب من فلورا بالعواطف الحارة التي توجيها النفس المضطربة المنفعلة ألا وهو الحب ، إذا جاز لنا أن نطلق هذا اللفظ على التآلف الروحي الذي ربطه بفلورا ، وهكذا كان الحب والضمير يتصارعان في نفسه ، إلا أنه كان مستعدا للأقدام على كل تضحية يتطلبها الموقف الذي يعد هو بطله ، فحاول أن يصمت خفقات قلبه وأبى أن يستسلم لضعفه وأراد وأد آلامه فانكب على المطالعة والكتابة أثناء الليل وأطراف النهار ، وألف رسالة (٨) يفهم بها فلورا ورفيقتها أن لا شيء أجل من الشهادة . وأكمل كتابه «ذكريات مقدسة» (٩) الذي بعث به إلى الفارو راجيا منه أن ينقحه ويصححه ، كما كتب رسالة مطولة إلى صديقه « مليند » أسقف «مبيلونة» ، بل لقد وجد من هدوء النفس وصفاء الذهن ما دفعه لتأليف رسالة عن الشعر وأوزانه راميا من ورائها إلى إيقاظ وطنية

مواطنيه الخاملة ودفعهم الى تذوق الأدب القديم الذى ينبغي أن يكون أدبا قوميا للبلد الذى أخرج « سنيكا » و « لوكان » ، وإذا كان القسس - أيام القوط - يعتقدون أنه لا يحق لهم قطف أو استنشاق أزهار لم تروها مياه التعميد (١٠) فإن ايولوج كان يؤمن أنه وجد فى أدب الرومان أقوى منافس للأدب العربى الذى كلف به القرطبيون كلفا شديدا ، واستخفه الطرب يوم أن عثر فى « نفارة » على بعض مخطوطات لاتينية لفرجيل وهوراس وجوفينال (١١) ، أما اليوم فقد أحزنه تعلق رجال الأدب بالشعر المنظوم فأراد أن يعلم مواطنيه القواعد العلمية لعلم العروض اللاتينى حتى يأخذوا أنفسهم بنظم أشعار ماثلة لأشعار أوجستوس .

أتت بلاغة ايولوج أكلها فقد بعثت فى فلورا رمارى صلابة وحماسة أذهلتا ايولوج الذى ألفت روحه الغمرات الصوفية ، وكان دائم الميل لتعظيم كل ما يروقه ، فعد فلورا قديسة تكللها هالة نورانية ، وكان القاضى قد استجاب لطلب أخى فلورا فدعاها اليه محاولا انقاذها مرة أخرى فلم يفلح فى هذه المرة أيضا ، فلما عادت الى الحبس ذهب ايولوج لرؤيتها ، وفى ذلك يقول :

« لقد اعتقلت أننى أرى ملاكا اذ تحوطها هالة من نور سماوى ويشرق وجهها بالبشر ، وترتسم عليه سعادة العالم العلوى ، وقد قصت على والبسمة على شفيتها ما طلبه منها القاضى ، وكيف كان ردعا عليه ، كانت القصة - وأنا أسمعها - تساقط من ثغرها أحلى من جنى الشهد ، فعلت من جانبى على تثبيت عزمها بافهامها التباغ الذى ينتظرها ، وأكبرتها وخررت ساجدا أمام هذا الملاك ، والتبست منها دعواتها ، وأنعشتنى كلماتها وعدت الى سجنى المظلم وأنا أقل كآبة ١١ » .

قتلت فلورا ورفيقتها يوم ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ م [= جمادى الأولى ٢٣٧ هـ] ، فكان ذلك يوم نصر لأيولوج ، فكتب الى الفارو يقول : « يا أخى ، اننى فى بهجة شاملة فقد تعطف السيد المسيح علينا واستشهدت العذراوتان اللتان ربيناهما وسط الدموع بالكلمة الحية ، وبعد أن قهرتا سلطان الظلام ووطئتا بأقدامهما كل الملذات الدنيوية ، ذهبنا سعيدتين أمام العريس صاحب مملكة السماء ، لقد دعاها المسيح الى حفل الزواج ودخلتا عالم الهناء تغنيان أغنية جديدة وتقولان فيها : لك يا سيد يا الاهنا ، لك الشرف والمجد لأنك خلصتنا من سيطرة الجحيم وجعلتنا أهلا للسعادة التى ينعم بها قديسوك ، ودعوتنا الى ملكوتك الدائم » .

كذلك سعدت الكنيسة بالنصر الذى أحرزته الفتاتان ، ويتابع
ايولوج كلامه فيقول : « لكن يحق لى أنا أن أبتهج أكثر من سواى فانا
الذى ثبتهما على خطتها فى اللحظة التى كادت أن تتخليا عنها » (١٢) .



وبعد خمسة أيام أطلق سراح ايولوج وشاول وبقية القساوسة
الآخرين ، فكان ايولوج يعزو خلاصه الى تدخل هاتين القديستين اللتين
وعدتاه قبل مفادرتهما السجن وصعودهما المشنقة أنهما ستسلان المسيح
أن يرد على القسس حريتهم (١٣) .

وامتثل شاول - منذ ذلك الحين - لأوامر «ريكافريده» ، أما ايولوج
فقد ضاعف نشاطه ليزيد عدد الشهداء ، ونجح فى ذلك نجاحا عظيما
اذ تأثر به كثير من القسس والرهبان والمسيحيين « المستخفين » والنساء ،
فاخذوا فى التجديف فقتلوا ، وبلغت الجراة بالمتعصبين أن دخل اثنان
منهم الجامع وكان أحدهما كهلا والآخر شابا حدثا وصاحا : « ان ملكة
السموات للمؤمنين ، أما أنتم أيها الكافرون فستتلقفكم الجحيم » ، فغضب
المجتمعون وكادوا أن يمزقوهما أربا لولا أن تدخل القاضى فأرسلهما الى
السجن ، وقطعت أيديهما وأرجلهما من خلاف ، ثم حزت رقبتهما وذلك
يوم الخميس ١٦ سبتمبر سنة ٨٥٢ م [= ربيع الآخر ٢٣٨ هـ] .

لم تكد تنقضى ستة أيام على ذلك الحادث حتى مات عبد الرحمن
فجأة [ليلة الخميس ٢٣ ربيع الآخر] ، ويذكر ايولوج أن السلطان الراحل
كان جالسا بشرفة قصره حين وقع بصره على المشائق التى يتدلى منها
جثمانا الرجلين فأمر بحرقهما ، لكنه ما كاد يصدر أمره هذا حتى أصيب
بالصرع ، وما وافى المساء حتى لفظ نفسه الأخير .



لم يكن عبد الرحمن قد قرر من يخلفه من بعده : أولده :
محمد أم ابنه عبد الله ، ولما كان الأميران لم يعلما بموت أبيهما فقد أصبح
الاختيار فى يد فتيان القصر الذين حضر بعضهم موت عبد الرحمن ،
فأمروا بفتح أبواب القصر حتى لا يتسرب نبا الوفاة ويشيع ، ثم جمعوا
كل رفاقهم وقام كبيرهم فاستهل الكلام بقوله : « أيها الصحاب :
لقد حل أمر جسيم فقد مات مولانا السلطان » ، فانفجر الجميع باكين
فقال لهم : « أمسكوا عن البكاء فما هذا وقت البكاء ، واعلموا ان الوقت
أجل من أن تصرفوه مولولين ، لكن لنجعل نصب أعيننا ما فيه خيرنا وخير

المسلمين عامة .. واني لأسألكم الآن : لمن تسوقون الولاية ؟ ، فصاحوا جميعا : « الى سيدنا وابن سيدنا وسيدتنا المحسنة الينا » .

وهكذا آنت مكائد طروب وتديراتها أكلها ، فقد استطاعت أن تشتري الخصيان وتستميلهم الى جانبها ، وكاد ابنها عبد الله أن يلى العرش بفضل معونتهم .. لكن هل كان للأمة أن تقر من اختساره الخصيان ؟

أغلب الظن أنها لن تقر هذا الاختيار اذ لم يعرف عن عبد الله شيء سوى رخاوة الأخلاق وضعف الايمان ، أضف الى هذا كراهية الشعب له مما لم يخف على الخصى أبى المفرج - وكان مسلما ورعا قد حج الى مكة فسألهم : « أعلى هذا أجمعتم الرأى ؟ » فقالوا له « أجل » فقال : « وأنا أعلمكم أن رأى كرايكم ، واني لأكثركم شكرا للسيدة ففضلها على عظيم ، ولكن قضاءكم بما قضيتم به قضاء علينا وقطع لآثارنا من الأندلس ، فلن نمشي فى طريق أو نمر بجماعة الا قال الناس : « اللهم العن هذه الوجوه فان أصحابها ملكوا المسلمين فولوا عليهم شر من يعرفونه ، وتركوا خير من يعرفونه » ، وقد علمتم من يكون عبد الله وحاله ومن يطوف به .. والله لئن ملك عبد الله شيئا من أموركم وأمور المسلمين ليحدثن فيكم وفيهم الأحداث ، فيسألكم الله عنهم وعن أنفسكم .



لم يستطع أحد دحض هذه الأقوال بل لعلها تركت أثرا عميقا فى نفوس الخصيان ، فطلبوا من أبى المفرج أن يدلهم على من يؤثره باختياره فأجابهم : « الصالح العفيف محمد » فقال له الخصيان : « هو كذا وصفت لكنه لثيم شديد !! » فأجابهم : « وبماذا يوجد ؟ .. اذا ولى ملك الأندلس وملك بيوت المال سيجود ان شاء الله » .

ولما وجد رأيه القبول منهم والرضا من جانبهم أقبلوا يقسمون على المصحف بمبايعة محمد بن عبد الرحمن والطاعة له .

أما الخصيان « سعدون » و « قاسم » اللذان كانا أشد القوم تأييدا لعبد الله وتزكية له مرضاة لأمه السيدة « طروب » فلم يعودا يفكران الا فى استرضاء منافسه والسعى فى عفوه عنهما ، واذا ذاك سال قاسم اخوانه أن يهبوا له ذنبه من محمد فوعده بالسعى عنده ، وأما سعدون فقد تمكن من حملهم على أن يكلوا اليه مهمة الذهاب الى الأمير محمد واخساره بنبا توليته الخلافة .

لكن لما كان الوقت ليلا وأبواب المدينة مغلقة فقد حمل سعدون معه مفاتيح أبواب القنطرة حيث يقوم قصر الأمير محمد على الجانب الآخر من النهر ، بيد أن وصوله الى الجسر كان يقتضيه المرور على قصر عبد الله حيث أهله عاكفون على اللهو لم تغض لهم عين ، الا أن « سعدون » أدرك أن لن يخامر الشك أحدا فيه ، ومن ثم لم يجد أدنى صعوبة فى فتح أبواب هذا القصر ودلف منه الى الجسر فقصر الأمير محمد الذى كان اذذاك فى الحمام حيث ذهب اليه خدمه وأنباؤه برغبة سعدون فى مقابلته ، فارتدى ثيابه على عجل وغادر الحمام وأذن للخصى أن يدخل وسأله : « ما جاء بك يا سعدون فى هذه الساعة من الليل ؟ » فقال : « جئتكم لأمضى بك الى ولاية الخلافة عن اجماع منا ، فقد مات أبوك رحمه الله ، وهذا خاتمه » .

لم يستطع محمد أن يصدق ما قاله سعدون ، بل أيقن أن أخاه قد ولى العرش وأنه قد أنفذ اليه سعدون الخصى ليقتله ، لذلك لم يفكر فى غير الخلاص ، فصاح به : « اتق الله يا سعدون واخشه ، وهل تبلغ عداوتك اياى أن تسفك دمي ؟ » دعنى فأرض الله واسعة ! » .

ووجد سعدون المشقة البالغة فى حمله على تصديق رسالته ، ولكنه استطاع بعد لاي أن يقنعه بها مؤكدا له صدق ما قال بأغلظ الايمان وقال له : « ما أتيتك الا وقد سألت أصحابى أن يؤثرونى بالاقبال فيك لأحل من نفسك بعض موجدتك على ! ، فقال له الأمير : « عفى الله عنك فأهمل على حتى أبعت فى طلب وكيل محمد بن موسى » .

كان أهم ما يشغل بال محمد فى هذه اللحظة هو أمر الاستيلاء على القصر فان تم له ذلك بايعة الجبيع ولم يجروا أخوه على منازعته الخلافة ...

لكن كيف يتأتى له المرور أمام القصر - قصر أخيه عبد الله ابن السيدة طروب - دون أن يثير حوله الشبهات ؟

لو أن حرس الأمير عبد الله راوا محمدا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لكان من الأرجح أن يدركوا حقيقة الأمر واذا ذلك يسدون عليه المسالك فلا يتركونه يمر ، لذلك أشار الحاجب على مولاه أن يستعين يعامل شرطة المدينة يوسف بن بسسيل ، وكان تحت امرته ثلاثمائة جندى ، ووقع هذا الاقتراح موقع القبول ، غير أن ابن بسسيل رأى الحكمة تقتضيه ألا يتدخل بين الأخوين ورفض وضع شرطه رهن مشيئة محمد وقال : « هذه منازعة ، وانما نحرز موالى من دخل القصر وملكه » .

وعاد الحاجب إلى الأمير يتيئله بجواب يوسف بن بسيل ثم قال له :
« من لم يخاطر لم يربح » اركب على بركة الله وعونه ، واعلم أن أباك
طالما بعث في طلب ابنتك فكنت أنا أمضى بها إليه ، فالبس ملابس النسوة
كأنك أنت هي » .

واتفقوا على تنفيذ هذه الفكرة فيخرج أحد الخدم راكباً حصانا
وسعدون في المقدمة ، ثم يليه الحاجب فمحمد في ثياب النساء مسدلاً
نقاباً سميكاً على وجهه ، وبذلك وصلوا إلى قصر عبد الله حيث كان
يتصاعد خليط من الأنفاس والألحان ، فأنشده محمد هذا البيت من
الشعر لشاعر قديم :

فهنيئاً لك الذي أنت فيه والذي نحن فيه أيضاً هنيئاً

أما الحرس المرابط في الحجرة التي تعلو الباب فقد كان مكباً على
الشراب واللهو حين طرق سمعه وقع سنابك الجياد ، فذهب أحدهم إلى
الباب مستظلاً ما بالخارج وسأل سعدون : « من ؟ » فأجابه سعدون
« ويلك ، أما للنساء حرمة ؟ » .

فلم يخامر الحارس الشك وترك القوم يمشون إلى وجهتهم وأغلق
الباب وعاد إلى رفاقه وقال لهم : « ابنة محمد مع صاحب أبيها سعدون » .

ولما اطمأن محمد إلى أنه تغلب على أصعب عقبة في سبيله قال
لوكيله : « يا محمد : الزم هذا المكان حتى أبعث إليك من يضبطه معك »
ثم تابع سيره مع سعدون الخصى الذي طرق باب القصر حيث جثمان
الخليفة الراحل ففتحه الخادم وسأله متشككاً : « أهذه ابنة الأمير محمد ؟ »
فأجابه سعدون : « نعم » فقال الحارس : « أرى شخصاً غير شخص الابنة
التي كانت تدخل على ، والله لا يجاوز هذا الباب إلا من أعرفه » .

فقال له سعدون : « ويحك ، أهكذا تكشف الحرم ؟ » .

فأجابه : « لست أدري ما الحرم » .

فلما رأى محمد إصرار البواب على طلبه رفع النقاب من على وجهه
وقال له : « اتق الله في فائني أثبت لوفاء والدي رحمه الله » .

فأجابه الخادم : « هذا والله أكبر ، ليس والله لك أن تتجاوز هذا
الباب حتى أعرف إن كان أبوك حياً أو ميتاً » .

فقال سعدون : « تعال معي وسترى بعيني رأسك » .

فاغلق الحارس الباب وخلي محمداً خارجه وصحبه سعدون الذي
سار به وأراه جثمان السلطان عبد الرحمن فلما أبصره الحارس مسجى خامداً

الأنفاس استخرط في البكاء والتفت الى سعدون وقال له : « صدقت...!! » ،
ثم مضى الى الباب وفتحه وقال للأمير محمد : « ادخل يا مولاي ، خار الله
لك وللمسلمين فيك » ثم قبل يده .



حينذاك أخذ محمد البيعة لنفسه من كبار موظفي الدولة ، ورتب
جميع ما يمكنه من الاستعدادات للقضاء على كل معارضة يقوم بها أنصار
أخيه .

وعلمت العاصمة نبأ الوفاة (١٤) حين كانت أشعة الفجر تجلجل قمم
جبال الشارات بأضوائها الفضية (١٥) .



الفصل التاسع

جشع الأمير الجديد • ميل الفقهاء اليه • اسلام قومس
ومبالغته في اظهار التدين • قيام اهل طليطلة بقيادة
« شندنة » • اردونيو الأول ملك ليون يعاون الثوار • انتصار
السلطان وافحاشه في تأديب الثوار • انتقامه من نصارى
قرطبة • ايولوج وال فارو يهاجمان النصارى المعتدلين •
الطليطليون ينتخبون ايولوج مطرانا فيمنعه السلطان من
دخول المدينة • ادراج القتل من جانب المسيحيين في عداد
الشهداء ورفعهم الى مرتبة القديسين • رحلة راهبين فرنسيين
لاحصار جثث الشهداء • ليوكريتيا المنتصرة تهرب الى ايولوج
وانولون • محاكمة ايولوج • صورة المحاكمة • قتله •

عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن

كان السلطان الجديد رجلا قاصر التفكير متبلد الاحساس أنانيا ، وقد رأيناه لم يظهر شيئا من الحزن ولم يجزع حين حمل سعدون اليه نعي أبيه ، بل انه كان أبعد الناس عن الحزن عليه ان لم نقل انه فرح بموته ، ولم يأخذ نفسه بكتمان شعوره في هذه الناحية ، فقد حدث ذات مرة أن قضى يوما لطيفا في الرصافة في بيت ريفي جميل له بجوار قرطبة . ثم قفل راجعا الى العاصمة مع حلول المساء مستصحبا نديمه هاشم [بن عبد العزيز] وقد أثقلهما الحمر ، وتنقلا في الحديث والحديث ذو شجون ، وعلى حين فجأة حام على رأس هشام خاطر محزن فقال لمحمد : « يا ابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا الموت !! » ، فأجابه الأمير : « يا ابن اللخناء ، لحننت في كلامك وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه الا الموت ، فلولا الموت ما ملكنا أبدا » (١) .



لم يخطئ الخصيان حين كرموا في بادئ الأمر استخلافه لما يعرفونه فيه من شدة البخل فقد استهل حكمه بخفض رواتب العمال والجنود (٢) ، ثم عمد الى وزراء أبيه السابقين فعزلهم وأقصاهم عنه وأحل مكانهم شبابا تعوزهم الخبرة ، واشترط عليهم أن يقاسمهم رواتبهم (٣) ، كما كان يحاسب نفسه في دقة متناهية وصحيانية شديدة في كل ما يتعلق بالناحية المالية ، وحدث في ذات مرة أن كان يراجع الحساب الذي بلغ مائة ألف دينار فأخذ يؤنب عمال بيت المال على خمس درهم (٤) ، فاحتقره الجميع لشحه (٥) .



أما الفقهاء الذين أحققتهم غاية الحق وقاحة من استشهدوا ممن بلغت بهم الجراءة التجديف في الرسول [صلعم] حتى في المسجد الجامع بقرطبة فقد وقفوا الى جانب الأمير محمد لايمانهم بتقواه وشدة كراهيته للنصارى ، وبرهن هو نفسه لهم على صدق ظنهم فيه يوم اعتلائه العرش اذ عمد الى تسريح جميع العمال والجنود المسيحيين عدا « قومس » لعدم اكترائه بدينه وتقديره منه لمواهبه (٦) ، وكان أسلاف محمد هذا التسامحون قد غصوا أنظارهم عما زاده النصارى في كنائسهم القديمة وما استجدوه منها ، فلما جاء هو الى الحكم عمل على تطبيق حرفية الأوامر في هذه الناحية فهدم جميع ما شيده منذ الفتح العربى ، وعمل وزراؤه على كسب مرضاته وعطفه عليهم فجاوزوا بحماستهم أوامره حيث خربوا الكنائس التى بنيت منذ ثلاثة قرون وأسرفوا فى اضطهاد النصارى حتى نبذت طائفة غير قليلة دينها كما يؤكد ذلك ايولوج وألفارو (٧) ، وكان اول المرتدين « قومس » الذى نهض عدة سنوات بأعباء الكتابة نظرا لطول مرض عبد الله بن أمية ، فلما مات ابن أمية علم قومس أن السلطان قال : « لو كان قومس من أهل ملتنا لاستحجبناه » ، فما كان منه الا أن أسلم (٨) وبلغ المكانة التى كان يتطلع اليها ، ولم يكن قومس - أيام نصرانيته - بالرجل الذى يغشى الكنائس ، لكنه لما أسلم مارس جميع شعائر الدين الجديد حتى عدّه الفقهاء رمز التقوى ، وأطلقوا عليه لقب « حامة المسجد » (٩) .



أما فى طليطلة فقد أدى تعصب السلطان الى نتائج مخالفة لتلك النتائج ، اذ حدث قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات أو أربع أن قضى ايولوج - وهو عائد من سفرة له فى نفارة - بضعة أيام فى هذه المدينة فى ضيافة أسقفها الودع « فستريمر » (١٠) ، وكان كل ما هناك يحمل على الاعتقاد بأنه استفاد من هذه الفرصة فعمل على اثارة كراهية أهل طليطلة المسيحيين ضد الحكومة العربية حين رسم لهم صورة قاتمة الألوان لسوء حال نصارى قرطبة ، وبألف الطليطليون فى الاحتفاء بايولوج وعطفوا أشد العطف على شهداء العاصمة حتى لقد بادروا الى حمل السلاح حين علموا بما يلقاه اخوانهم من الاضطهاد على يد الأمير محمد وولوا قيادهم لواحد منهم اسمه « شندلة » (١١) ودفعهم خوفهم على حياة رهائنهم فى قرطبة الى القبض على حاكمهم العربى ، وطالبوا محمدا أن يبعث اليهم فى الحال بأبناء جلدتهم ان كان يعنيه الإبقاء على حياة عامله هذا ، فنزل السلطان على طلبهم ورد الطليطليون على الحاكم حريته ، غير أن الحرب اندلع لهيبها واشتد الخوف من أهل طليطلة حتى لقد أسرعت حامية قلعة رباج الى اخلاء هذا الحصن حين أصبحت غير آمنة عمل نفسها فهدم الطليطليون أسواره .

ثم لم يلبث السلطان أن أنفذ اليهم بعض القوات وأعاد بناء الأسوار سنة ٨٥٣ م [= ٢٣٩ هـ] ثم أمر قائدين من قواده (١٢) بالزحف (١٣) على طليطلة التي عبر أهلها ممرات جبال مورور للملاقاة العدو وفاجأوه قرب « أند وجر » وشتتوا شمله واستولوا على معسكره (١٤) . [وكان ذلك في مارس ٨٥٤ م = شوال ٢٣٩ هـ] .

ثم تابع الثوار زحفهم وهددوا العاصمة ذاتها فشنع السلطان محمد بضرورة اتخاذ الاحتياطات القوية لدرء هذا الخطر ، ومن ثم جمع كل ما أمكنه جمعه من الجند وقادهم هو بنفسه وزحف بهم على طليطلة في يونيو ٨٥٤ م [= محرم سنة ٢٤٠ هـ] ، فلما رأى « شندلة » ضالة قواته فتش له عن حليف فاتصل بملك ليون « أردونيو الأول » الذي هب لساعته و نجده بجيش كثيف بقيادة « غثون » (١٥) كونت بروجو .

أدى هذا العدد الضخم من المحاربين المتجمعين في المدينة الى القضاء على أهل محمد في اخضاعها ، الا أنه نجح في تكبيد أعدائه خسارة فادحة ، اذ عمد الى اخفاء معظم جنده خلف الجبال التي تحتضن وادي « سليط » ثم زحف على المدينة على رأس جيش قليل وسلط آلات الجرب على سوارها ، فعجب أهل طليطلة من بسالة عدوهم الناهض لمنازلتهم وهو في هذا العدد الضئيل ، فحثوا الكونت « غثون » على القيام بهجوم عنيف لردّه ، واغتنم « غثون » هذه الفرصة المتاحة له لاطهار براعته ، فخرج على رأس جنده ومعه أهل طليطلة وهاجم عسكر محمد الذين تظاهروا بالهروب مستدرجين العدو الى الكمين المنصوب له ، وما لبث الطليطليون والليونيون الذين قصوا أثرهم في حماسة أن وجدوا أنفسهم فجأة وقد أحذقت بهم جحافل الخصم فأفنت معظمهم ، وفي ذلك يقول أحد شعراء (١٦) البلاط :

يقول ابن بلبوس (١٧) لموسى وقد مضى
أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى

بكى جبلا وادى سليط فاعولا
على النفر الصيدان والعصبة الغلف
كان مساعير الموالى عليهمو
شواهين جادت للغرائق بالسيف

وبذلك قتل الغزاة ثمانية آلاف شخص تردد في الأفاق صدى صراخهم ، ثم أقاموا منهم رابية اعتلوها ، وعلق محمد هذه الرؤوس على أسوار قرطبة والمدن الأخرى ، كما أرسل بعضها الى أمراء افريقية (١٨) .

وقنع محمد بالنصر الذى أحرزه سيما وأن الطليطليين الذين قدرت خسائريهم فى الرجال بعشرين ألفا لن يستطيعوا بعد ذلك ازعاج قرطبة ،

ثم عاد الى العاصمة ولكنه عمل جهده على مناوأة أهل طليطلة على يد حاكمي قلعة رباح وقلعة طليبة وعلى يد ابنه المنذر ، كما أخذ في الوقت ذاته في التضييق على نصارى قرطبة فهدم دير «تابانوس» الذي كان يعده - بحق - بؤرة التعصب (١٩) ، وضاعف الجزية المفروضة على المسيحيين بحجة تضخم المصروفات عما كانت عليه من قبل (٢٠) ، الا أن الضعف لم يتسرب الى نشاط المتحمسين ، وبينما كان هؤلاء المسمون بالشهداء دائبين على الاستشهاد عن طوعية (٢١) كان ألفارو وإيولوج مستمرين في الدفاع عنهم ضد المعتدلين ، فكتب أولهما كتابه *Indicus luminosus* وألف الثاني كتابه *A pologia martyrum* ، وكانت الحاجة ماسة لأمثال هذه الدفاعات في قرطبة التي نسب مسيحيوها الوداعون ما حاق بهم من الكوارث الى مسلك المتعصبين المخالف للصواب أكثر من نسبتهم أياها الى تشدد السلطان .

أما في طليطلة وما حولها من المدن فقد جرى الأمر على العكس من ذلك ، اذ اشتد عطف أهلها النصارى على المتحمسين وكان أكثرهم عطفاً عليهم هو إيولوج ، حتى لقد أجمع أساقفة هذه الولاية مرهم فانتخبوه مطرانا بعد موت «وستيريم» ، الا أن السلطان لم يأذن له بدخول طليطلة ، ومن ثم أصر الأساقفة على رأيهم وطبعوا أن يأتي يوم تزول فيه هذه العقبات التي تحول دون دخول إيولوج وامتنعوا عن انتخاب أى مطران آخر طالما أن إيولوج على قيد الحياة (٢٢) .

وقد استطاع المتحمسون أن يردوا مطاعن مواطنيهم التي كالوها لهم وذلك بشهادات المدح والتقدير التي شهد بها لهم أهل طليطلة ، ولم تنقض الافترة وجيزة حتى اعتر هؤلاء المتعصبون بنفوذ راهبين فرنسيين أظهرا بطريقة لا لبس فيها ولا ابهام أنهما يدرجان شهداء هذه الفترة في مرتبة شهداء الكنيسة الأوائل .

أما هذان الراهبان فهما «أسوارد» و «أديلارد» من أبرشية القديس «جرمان دي بريه» وقد وفدا الى قرطبة سنة ٨٥٨ م [= ٢٤٤ هـ] بناء على طلب رئيسهما «هلدوين» الذي نديهما الى بلنسية للبحث عن جثة القديس فنسانت ، لكنهما علما أثناء الطريق أن الجثة المشار اليها قد نقلت الى «بنفنتو» فخافا أن يرغما على العودة الى بلديهما صفر اليدين ، وتراعى الى سماعهما - وهما في برشلونة - خبر شهداء قرطبة الجدد وقال لهما القوم : «سيكون من الصعب عليكما الوصول اليها» ، أما اذا نجحتما في ذلك فلاشك أن القوم هناك سيتخلون لكما عن هذه البقايا الطاهرة .



كان عبور اسبانيا - ايان ذلك الوقت - ينطوى على جميع ضروب المشقة والاحطار ، بل لقد كان ذلك أقرب الى الاستحالة ، ونظرا لكثرة قطاع الطرق فقد كان يتحتم على الراهبين في الانتقال من مكان الى آخر أن يخرجوا في جماعات وقوافل ، بل ان هذا أيضا كان شديد الندرة لقلة سنوح مثل تلك الفرصة ، غير أن الراهبين اللذين اعتزما اقتحام كل ما يعترض سبيلهما من الأخطار ما دام ذلك يؤدي بهما الى الحصول على هذه الجثة فقد بلغا سرقسطة ، وكان قد انقضت ثمانية أعوام منذ قيام آخر قافلة منها الى قرطبة ، وساعدت الظروف الراهبين بأن هيات لهما الانضمام الى قافلة موشكة على الرحيل ، وخرج مسيحيوها لوداعها باكين اعتقادا منهم بقتل كل قافلة عند عبورها المرات الجبلية ، الا أن الحوادث كذبت خوفهم ، وكان جزاء ما لقيه الراهبان من تعب الطريق وملاسته أن بلغا العاصمة الاسلامية سالمين ناعمي البال ، فاستضافهما شماس كنيسة القديس « سبرين » وقاما أمدا غير قصير دون الحصول على ما جاء من أجله حتى قام أحد الوجهاء واسمه « ابادسولومس » Abadsolomes

وكان يقدر مجهودهما ويعطف عليهما فطلب اعطاءهما جثتي « أوريليو » و « جورج » الموجودتين في دير « بنا ملاريا » (٢٣) الذي أصر رهبانه على عدم دفع هاتين الجثتين الى الراهبين الفرنسيين غير عابئين بأمر الأسقف شاول مما دعاه الى الذهاب بنفسه اليهم وارغامهم على ما أذن به ، ومع ذلك فقد تمسكوا بأنه ليس من حقه نزع هذه الجثث الطاهرة من أيديهم .

وقضى « أسوارد » ، و « أديلارد » قرابة شهرين في قرطبة انكفأ بعدهما الى بلدهما حاملين معهما حزمة كبيرة من الذخيرة مخومة بخاتم الأسقف وموجهة الى الملك شارل الأصغر حتى لا يعتقد المسلمون انها تحوى الا هدايا مرفوعة الى ملك فرنسا (٢٤) .



كانت الرحلة هذه المرة أقل تعباً وخطورة اذ قاد السلطان جيشا زحف به على طليطلة وأمر جميع الكتائب بالخروج للقتال ما عدا الموكل اليهم حراسة العاصمة ، فتيسر على الراهبين الفرنسيين الانضمام الى إحدى هذه الفرق ووجدوا في المعسكر « ليفيجلد » الذى أوصلهما الى طليطلة ، وكان الطريق بينها وبين قلعة هنرى Alcala de Henares مأمونا نظرا لتقدم الجيش والاشراف وقيامهم قطاع الطرق والشطار الذين يسلبون المسافرين ، ولقد غادر كل هؤلاء أماكنهم للاحتماء خلف أسوار طليطلة

غاد الراهبان الى فرنسا فوضعا الجثتين اللتين أظهرتا فى الطريق كثيرا من الآيات فى كنيسة «أزمنت» التابعة لابرشية «سان جيرمان» التى لاذ اليها كثير من الناس بعد أن أحرق النرمنديون ديرهم ، ثم نقلت الجثتان بعدئذ الى « سنت جيرمان » وعرضتا لتكونا موضع توقير المخلصين من أهل باريس ، وسر بهما شارل الأصغر حتى لقد عهد الى رجل اسمه « منشو » بالذهاب الى قرطبة لجمع المعلومات القيمة عن أوريليموس ، وجورج (٢٥) .

كانت الحملة التى مكنت الراهبين الفرنسيين من العودة الى وطنهما قد حققت مطامع السلطان ودفعته لاعمال الحيلة من جديد ، فاحتل جنده الجسر ، وأمر الحفارين بملغمة الأرصفة دون أن يراهم أهل طليطلة ، فلما تم كل شيء تراجع جنده وفى آثارهم العدر حتى بلغ الجسر الذى انهار فجأة ، وغرق كثير من جند طليطلة فى مياه نهر تاجة (٢٦) .

لم يكن ثم ما يعادل جزن الطليطليين من هذه النكبة سوى فرحة البلاط الذى اعتاد رجاله المبالغة فى تضخيم كل نصر حتى ولو لم يكن حاسما ، فقال أحد الشعراء فى ذلك (٢٧) :

أضحت طليطلة معطلة من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكفاف كالبتير
ما كان يبقى الله قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر
ولم تلبث الفرصة أن سنحت لمحمد للتخلص أيضا من عدوه المميت
بقرطبة .



كان فى العاصمة حينذاك فتاة اسمها «ليوكريتيا» ولدت من أبوين مسلمين غير أنها تلقت فى الحفاء أسرار الديانة المسيحية على يد راهبة من أسرتها ، وانتهى بها الأمر أخيرا الى أن صارحت أبويها بأنها « تعمدت » ، فاستشاطا غيظا ولم تغلح مساعيها المتسمة باللين فى إرجاعها الى حظيرة الاسلام ، ومن ثم أغلظا فى معاملتها وراحا يضربانها ليلا ونهارا ، وخافت « ليوكريتيا » أن تتهم - على رهوس الأشهاد - بالكفر فسألت « ايولوج » وأخته « أنولون » أن يؤوياها عندهما ، والظاهر أنها أحييت فى قلب « ايولوج » ذكرى « فلورا » التى كانت تشبهها من عدة وجوه ، اذ سرعان ما وعداها باخفائها حالما تنجح فى الإفلات من أهلها ، فلا يدرى بها أحد ما . وهنا كانت العقدة .

الا ان « ليوكريتيا » عرفت كيف تحتال لهذا الأمر فتظاهرت بنبذها المسيحية ، وبأنهماكها فى مسرات الحياة حتى اذا أنست من أبويها

اطمئنانهما اليها خرجت ذات يوم - وهي آزين ما تكون - زاعمة أنها ماضية لحفل عرس ، وانطلقت تفتش عن «ايولوج» و «أنولون» اللذين دلاها على مسكن صديق لهما لتختفى عنده .

وانطلق أبواها في البحث عنها في كل ناحية لعلهما يعثران عليها وعاونتهما الشرطة فلم يؤد البحث الى شيء ولم يسفر التفتيش عنها الا عن الفشل الذريع ، ونجحت «لوكريتيا» في بادئ الأمر في الاختفاء عن عيون مطارديها ، لكن حدث في ذات مرة أن قضت يوما بأكمله عند « أنولون » التي كانت تحبها حبا جما ، وشاءت الصدفة ألا يصل الخادم الموكل اليه حراستها الا وقد أوشك الصبح أن يتنفس ، فخافت أن يفتضح أمرها وينكشف سترها فصممت على البقاء يوما آخر عند « أنولون » حتى يرخي الليل سدوله ، وكان في ذلك الخطر عليها ، اذ حمل أحد الجواسيس أو الخونة الى القاضي خبر اختفاء الفتاة المطلوبة « لوكريتيا » عند أخت « ايولوج » فأحرق الجند بدارها نفاذا للأمر الصادر اليهم من القاضي ، وأمسكوا بها وبايولوج الذي كان الى جانبها اذ ذاك ، وجاؤا بهما الى القاضي الذي سأله عما يدفعه لاختفاء هذه الشابة فقال له « ايولوج » : « لقد أمرنا أن نبشر بديننا وننشره بين جميع من يطرقون بابنا ، وقد أرادت هذه الفتاة الشابة أن أثقفها في ديننا وأفقفها في ملتنا فلبيت رغائبها ما وسعنى الجهد ، ولو طلبت أنت أيها القاضي ما طلبته هذه الفتاة ما قصرت ازاك .. » .

لم يكن «التكريز» الذي رمى به ايولوج عند القاضي جريمة كبرى ومن ثم اكتفى بجلده ، وفي هذه اللحظة بالذات بدأ دور « ايولوج » ولعله كان مدفوعا بالكبرياء أكثر من الشجاعة في عزمه هذا ، غير أنه رأى أنه من البخير لرجل مثله أن يبصم بلمه المبادئ التي ظل ينادى بها طول حياته ، ورأى أن القتل خير له من العقاب الفاضح ، فقال للقاضي : « هينء سيفك وأشحنه على عجل برد روحى الى بارئها ، لكن لا تظنن أنني تارك جسمى يمزق بضربات المقارع » ثم انطلقت شفتاه بالنيل من الرسول [صلعم] واعتقد أنه مقضى عليه فى لحظة هذه بالموت ، غير أن القاضي الذي احترم فيه رياسته لجميع أساقفة اسبانيا لم يجرؤ أن يتحمل مسؤولية قتله وهي مسؤولية عظيمة ، وبعث به الى القصر ليرى الوزراء رأيهم فيه .

حين دخل «ايولوج» صالة المشورة تقدم منه أحد كبار موظفي الدولة وكان قوى الصلة به وشديد الرغبة فى انقاذه فقال له : « لست أعجب يا ايولوج أن يتقدم البله والمعتوهون طواعية للمقصلة ، لكن كيف يتأتى لك الاقتداء بهم وأنت الرجل العاقل الفطن الذى تتمتع بالتقدير العام ؟ أى جنون يدفعك الى هذا السبيل وذلك العمل ؟ وما الداعي لكرهك الحياة الى هذا الحد ؟ ألا فاستمع الى والى رجائي واخضع فى هذه اللحظة بالذات

للضرورة وقتل كلمة واحدة تشجب بها كل ما قلته أمام القاضى ، حينذاك أعطيك العهد باسمى وباسم زملائى ألا خوف عليك ، •

كانت هذه الأقوال تعبر عن مشاعر جميع البارزين فى المجتمع الإسلامى ، إذ كانت شفتهم على المتعصبين أعظم من كراهيتهم لهم ، وكانوا فى تنفيذهم القانون يحسون بالألم لاضطرارهم الى قتل هؤلاء التعساء الحقى .

لم يكن « أبولوج » - حتى هذه اللحظة - راغبا فى الشهادة رغم أنه دفع الكثيرين إليها ، وكان قبل كل شىء على رأس جماعة يدفعها الطمع أكثر هنا يدفعها التعصب ، ولعله شعر فى هذه اللحظة بالذات بعدم استطاعته الرجوع فى أقواله والا عرض نفسه لازدراء جماعته له ، واذ ذاك أجاب بما أجاب به المتحمسون المتعصبون فى مثل هذه الظروف من قبل مما اضطر الحجاب للحكم عليه بالموت راغمين وأخذوه فى لحظته الى المقصلة ، لكنه أظهر ثباتا عظيما ، وصفعه أحد الخصيان على وجهه فطلب إليه - وهو العامل بحرفية الانجيل - أن يضربه أيضا على خده الآخر قائلا له : « دونك هذا أيضا » ، فأطاعه الخصى وصعد « أبولوج » الى المشنقة ثابت الخطوة والجنان ، وركع على ركبتيه رافعا يديه الى السماء ورسم الصليب ، ثم صلى صلاة قصيرة فى صوت منخفض وأسلم رأسه للنطح وأطيحت رقبته يوم ١١ مارس سنة ٨٥٩ م [= ٢٦ ذو القعدة سنة ٢٤٤ هـ] •

وبعد ذلك بأربعة أيام ماتت « لوكريتيا » متهمة بالكفر (٢٨) والتجديف •

وحرك مقتل المطران « أبولوج » عاطفة قوية لا فى قرطبة وحدها - التى نسب أهلها الكثير من المعجزات الى الشهداء السابقين - بل وفى جميع رحاب أسبانيا أيضا •

وهناك كثيرون من مؤرخى شمال شبه الجزيرة الأسبانية يذكرون فى دقة متناهية سنة مقتل « أبولوج » ويوم مصرعه ، وحدث بعد ذلك بأربعة وعشرين سنة أن اشترط ألفونس ملك ليون فى المعاهدة التى أبرمها مع السلطان محمد أن يسلمه بقايا القديس « أبولوج » والقديسة « لوكريتيا » •



وعلى الرغم من أن المتعصبين فقدوا رئيسهم الا أنهم ظلوا فترة من الزمن دائبين على مسلكهم من النيل من النبى [صلعم] عساهم بنالون هم أيضا الشهادة (٢٩) • غير أن كر السنين يضعف كل حساسة ومن ثم فان الحماسة الخبيبة التى ظلت تجتاح قرطبة أعواما طويلا قد خضعت هى

الأخرى للقانون العام : قانون التقادم ، فأخذت في الحمود حتى لم يعد يبقى منها سوى الذكرى .



وهكذا يبدأ عهد جديد هو عهد تمرد الأعلاج ونصاري جبال « رية » ، وعلى الرغم من عنف هذه الثورة في حد ذاتها إلا أنه صحتها أو تلتها ثورة اندلح ليهيها في جميع رحاب شبه الجزيرة ، ومكنت نصاري قرطبة من اظهار كراهيتهم بوسيلة أخرى لكل ما هو مسلم (٣٠) .



الفصل العاشر

الطريق من قرطبة الى مالقة • وصف اهل الجبال •
المهربون والشطار • مدينة رية واهلها • قيام حكومة محلية
في الثغر الأعلى • الأمير موسى يهزم جند السلطان • اتحاد
الشمال ضد السلطان • استيلاء ابن مروان الجليقي على قلعة
الحنش • تحالفه مع العليج سعدون الرمادي • الفونسو الثالث
ملك ليون • هزيمة هشام قائد جند السلطان أمام ابن مروان •
وارسالة الى الفونسو ثم اطلاق سراحه • ازدياد نفوذ ابن مروان
والمواعدة بينه وبين السلطان • الثورة في رية •

حركات المقاومة السلبية فى اقليم رية

ان المسافر من قرطبة الى مالقة الذى يتحمل مشاق رحلة فائنة وأخطارها فى قطر بدائي جميل ويؤثرها على النوم فى عربة تخترق به الجبال والمفاوز المنهكة ليمضى بادی ذى بدء عبر اقليم زراعى يمتد الى « شيل » ثم يلج بطاحا فسيحة منبسطة حتى يصل الى « كامبلوس » التى تبدأ عندها سلسلة جبال رندة ومالقة : اللتين هما أكثر أقاليم الأندلس فتنة ، ويشاهد هذا المسافر الجبال الشامخة الموحشة التى تبعث فى النفس نوعا من الرهبة اللذيذة ، ويرى غابات البلوط الضخمة وأشجار الكستناء الباسقة والأودية العميقة المظلمة ، والسيول التى تنثال راعدة منحدرة الى الهاوية ، والحصون القديمة التى آذنت بالاندراس ، والقرى المعلقة الى جوانب الصخور التى عريت قممها من كل خضرة وتبذت أكنافها مسودة لقد لفها الدخان ، وهناك تلتقى الطبيعة باسمه حلوة مشرقة بالكروم والمروج وحقول الأرز والكريز وأشجار الليمون والبرتقال والتين والرمان ، وأزهار الغار التى تربو ورودها على أوراقها ، ونشيراتا السهلة العبور التى تتلوى فى رقة محبة الى النفس ، والبساتين التى تمد كل جنوب شبه جزيرة أيبيريا بالفاكهة وقد امتلأت بالكثرى والتفاح ، وحقول العنب والقمح الذى تغل سنابله خبزا أبيض أى من أى خبز آخر فى العالم .

ويسكن هذه الجبال شعب بشوش حلو الحديث جميل الطلعة ، نشيط ، متدين ، يهوى الضحك ويعشق الغناء والرقص على رين الصنوج ، والحزف على القينار والمندولين ، وإذا كان هذا الشعب كثير اللهو فانه فى الوقت ذاته محب القتال ، فهو قد جمع بين الرقة والشجاعة الى جانب ما هو عليه من خلق حاد ، حتى انه ليكفى أن يزور نظر الواحد غضبا فيعقب ذلك الضربة القاتلة ، ولا يكون لحفل بهجته حتى يتصارع اثنان أو ثلاثة بالخناجر .

وعلى الرغم من جمال نسائهن الفاتن الا أن فى هاتيك النسوة شيئا من خشونة الرجال ، فأجسامهن فارعة ، وسواعدهن مفتولة العضلات ، وهن لا يحجمن عن الاضطلاع بأشق الأعمال ، بل تراهن ينقلن فى يسر أثقل الأحمال ، وكثيرا ما يعقدن حلقات يتصارعن فيها فيما بينهن .

وأهم ما يشغل به هؤلاء الجبليون أنفسهم وقت السلم هو « التهريب » ونقل البضائع الانجليزية من جبل طارق الى الداخل ، وقد برعوا براءة فائقة فى التخلص من عمال الجمارك العديدين ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتجمع عدد كبير منهم تحت رئاسة أشهر زعمائهم صيتا وينزلون السهول لبيع بضائعهم ، واذ ذاك يستبسلون فى مقاومة القوات التى ترسلها الحكومة ضدهم ، أما فى أوقات الاضطرابات والفتن الأهلية فيحترف الكثيرون منهم للصوصية وأعمال الشطابة ، وعلى الرغم من أن الشطار لا يتخذون للصوصية حرفة لأنبائهم بين الرعاة والريفيين العاطلين والعمال الكسالى والبدو والمتنقلين وأصحاب الخانات الذين ليس عندهم نزلاء وصغار الفلاحين الا أنه يستهويهم أن يسلبوا المسافرين ، ان لم يكن هؤلاء المسافرون فى حراسة قوية ، فان كانوا مسلحين وفى جمع غفير أخفى « اللص » بندقيته وأخرج آلاته وتظاهر بفلاحة الأرض .

ولما كان هؤلاء الشطار الذين هم من الطبقات الدنيا موجودين فى كل ناحية فقد كانوا مستعدين على الدوام لمساعدة اللصوص المحترفين أو الى رجال الشرطة حسبما تمليه الظروف ، ذلك أنهم لذكائهم كانوا لا ينضمون الا الى الغالب من الطرفين ، ويختلف عنهم كل الاختلاف اللصوص الحقيقيون الذين لا نراهم الا على صهوة جوادهم ، ولا يسبرون الا فى جماعات ، وبينما نجد هؤلاء الشطار يقتلون من يسلبونهم فاننا نرى الصباليك لا يعمدون لقتل الا من يقاتلهم ، فهم قوم رقاق الحاشية ، كبار النفوس لاسيما ازاء النساء ، ولا يلجأون الى العنف فى سلب المسافرين ، ومن ثم ينزلهم الناس منزلة طيبة ليس فيها شيء من الاحتقار لهم ، وعلى الرغم من مناهضتهم القانون وتمردهم على المجتمع الا أن لهم هيبه وتعظيما ، فتكرهن النساء - حتى الخائفات منهم - اعجابا ببسالتهم ومحاربتهم وحسن سلوكهم ، واذا وقعوا بين يدى العدالة وأدينوا وصلبوا حرك مصرعهم الاهتمام بهم ، والعطف عليهم ، والرأفة بهم ، هذا وقد ذاع فى سنة ١٨٦١م اسم « جوزى ماريا » كزعيم للعصابات ، وسيظل اسمه باقيا زمنا طويلا فى أذهان الاسبان مثلا حيا لقاطع الطريق الصعلوك ، وقد دفعته المصادفة البحتة لسلوك هذا السبيل من الحياة اذ ارتكب جريمة وهو فى سورة الغضب فتفادى الوقوع فى يد العدالة بالفرار الى الجبال حيث لم يجد وسيلة يمسك بها رمقه سوى « بندقيته » فاتخذ جماعة رفاقا له وأمدهم بالحياد واندفعوا يسلبون المسافرين ، وصادفه التوفيق فى جميع تحركاته لشجاعته

ونشاطه وذكائه وحسن معرفته للأقليم ، كما أنه لم يقع قط في يد العدالة التي كانت تطارده ، وكان له في جميع رحاب الاقليم شركاء يطيعونه ، وكان اذا احتاج الى رجال أو رجل يضمه الى جماعته تقدم اليه أكثر من أربعين وكلهم طامع في أن يشرف قدره بالعمل معه ، بل لقد كانت له صلات بالقضاة أنفسهم ، حتى لقد أذاع متصرف الولاية منشورا عدد فيه من بين شركائه أربعة من ولاة تلك الناحية .

واشتد بأس « جوزى ماريا » شدة مكنته من السيطرة على جميع مسالك الجنوب حتى ان ادارة البريد اعتادت أن تدفع له سنويا ثمانين فرنكا عن كل عربة يريد تمر ، لقاء تركه اياها حرة آمنة ، وكان هو يحكم رجاله بما لم يحكم به ملك ما شعبه ، وكانت جميع قراراته تتسم بالعدالة الصارمة (١) .



اما في اوقات الحرب فيغدو هؤلاء المهربون واللصوص الذين ألفوا مقارعة الصعاب أعداء مروعين ، وعلى الرغم من فشلهم في الهجمات التي تتطلب شيئا من النظام لعدم استطاعتهم مجابهة الوسائل العلمية التي تصطنعها القوات النظامية في العراء الا أن الغلبة تكون لهم على الجند أن نازلوهم في ممرات جبالهم الضيقة الوعرة الملتوية ، كما كانوا يكسبون المعركة بفضل خفة حركتهم والمأمهم بطبيعة تلك الأراضي ، وقد تجلى ذلك للقوات الفرنسية حينما حاول الملك المزعوم الذي نصبه نابليون على عرش اسبانيا اخضاع هؤلاء الجبليين البسلاء لسلطانة المقوت ، فقد قتل الفرسان الفرنسيون منهم المئات حينما أفلحوا في اخراجهم الى العراء ، فلما التحم الفريقان في الأماكن الملتوية على قمم المنحدرات الشاهقة التي لم تألفها جياد أولئك الفرسان أخذ [الأسبان] يسقطون بين كل خطوة وأخرى هذه الجماعات في كوائنهم ، ومرت لحظات لم يكن الفرنسيون يتوقعون فيها شيئا ما فاذا بهم يرون أنفسهم عرضة لجحفل معاد قد كر على رجالهم وأمطرمهم وإبلا من النيران ، وسرعان ما استرد هذا الجحفل قمم الصخور ، وعجز الفرنسيون عن تتبعهم ، وحينذاك خرب الجبليون أماكن العدو الذي عجز عن الثأر منهم .

وعلى الرغم من ضراوة الحروب الا أن هؤلاء الجبليين كانوا يجنون من الوقت فسحة يظهر فيها روح المرح والدعابة التي طبعوا عليها ، ففي البيرة طلب الفرسان [الفرنسيون] عجلا صغيرا فجاءهم الأهالي بحمار مقطع أربعة أشلاء ، فوجد الفرسان - على حد قولهم - لهذا اللحم طعما مجوجا ، ولذلك كان الجبليون يصيحون فيما بعد - وهم يتبادلون معهم النيران - :

« لقد أكلتم لحم الحمار بالبيرة !! » ، وكان هذا في رأيهم أكبر سبة تحط بـ قدرهم كمسيحيين (٢) .

أما في القرن التاسع فكان جميع سكان « رية » (٣) تقريبا من الأسبان الذين يشبهون السكان المحليين من جميع الوجوه ، فلهم نفس طباعهم ودوقهم ، ونفس فضائلهم وذنائبهم وكان بعض هؤلاء الجبليين من النصارى ، أما الغالبية العظمى فمسلمة ، ومع ذلك كان الجميع يشعرون بأنهم أسبان قبل كل شيء ، ولذلك كانوا يضربون العداء الشديد للفاطحيين ويتلهفون على الاستقلال ، وغاظهم أن يزداد الظالم الأجنبي ثراء بما يسلبه منهم ، فتطلعوا جميعا الى اللحظة التي يخلعون فيها ثيابه عنهم ، وسرعان ما وانتهم هذه اللحظة المنشودة ، وذلك أن النجاح المتوالى الذي كان يلقاه اخوانهم يوما بعد يوم في الولايات الأخرى قد دل هؤلاء الجبليين على أنه يستحيل عليهم تحقيق هدفهم ما لم يعمدوا الى الشجاعة واستعمال العنف ، فاستقلت طليطلة وفشل السلطان في جميع محاولاته التي ظل يبذلها طوال عشرين عاما عساه يتمكن من إرجاعها الى طاعته .

أما النصارى الذي كانت لا تزال لهم الكفة الراجحة في المدينة فقد خضعوا لحماية ملك ليون (٤) ، وعلى الرغم من خيانة المولدين لهم الا أنهم أرغموا السلطان سنة ٨٧٣ م [= ٢٥٩ هـ] على أن يعقد معهم معاهدة تمنحهم حق تكوين حكومة جمهورية لهم ، وكفلت لهم وجودا سياسيا يكاد يكون مستقلا ، اذ لم تلزمهم هذه المعاهدة الا بجزية سنوية يؤدونها اليه (٥) .

كذلك نشأت حكومة أخرى مستقلة في « أرغون » وهي الولاية التي يسميها العرب بالشعر الأعلى ، وقد أسس هذه الحكومة أسرة قوطية قديمة اعتنقت الاسلام هي أسرة « بنى كسى » . ذلك أنه حوالى منتصف القرن التاسع للميلاد كانت هذه الأسرة قد بلغت ذروة القوة والبأس بفضل مواهب موسى الثاني ، واستطاع هذا البيت أن يرقى الى مكانة الأسرة الحاكمة ، ففي الوقت الذي اعتلى فيه محمد [بن عبد الرحمن بن الحكم] العرش [سنة ٢٣٨ هـ] كان موسى الثاني سيد سرقسطة وتطيلة ووشقة ، أى أنه كان يحكم جميع بلاد الشعر الأعلى ، ثم تحالفت معه طليطلة ، وكان ابنه « لب » عاملا له عليها .

واذ كان موسى محاربا باسلا لا يكل من القتال فقد كان يحارب آونة كونت برشلونة أو ألبه ، وآونة أخرى يحارب كونت قشتالة أو ملك فرنسا ، وبلغ موسى ذروة المجد والقوة واحترمه جيرانه وخطبوا وده ومنهم ملك فرنسا : شارل الأصغر الذي وصله بالهدايا النفيسة الغالية ، وبذلك حكم

موسى حكما ملوكيا دون أن يجرؤ حد ما على معارضته ، وبدى له أن يلعب نفسه بما هو واقع فعلا فنتعت نفسه «بملك اسبانيا الثالث» ، ولم يستطع السلطان أن يضم إلى حوزته تطيلة وسرقسطة ، الا بعد موت هذا الرجل العجيب سنة ٨٦٢ م [= ٢٤٨ م] ، غير أن فرحته لم تطل اذ لم ينقض غير عشر سنوات حتى قام موسى بمعاصلة أهل ولايته الذين لم يدينوا بالطاعة لغير بنى « كسى » وهزموا جند السلطان الذى حاول اخضاعهم ، فرد بنو « كسى » عساكره مغلوبين ، وساعدهم فى هذا العمل ألفونس الثالث ملك ليون الذى كان أقرب حلفائهم اليهم حتى لقد عهد اليهم بتربية ابنه « أردونيو » (٦) .

بهذا تحرر الشمال وتحالف ضد السلطان ، وفى الوقت ذاته [سنة ٢٥٤ هـ] قام أحد علوج ماردة الأقوياء واسمه « ابن مروان » ، فأسس امارة مستقلة فى الغرب .

كان « ابن مروان » قد وقع فى يد السلطان بعد خضوع ماردة التى كان من زعماء ثورتها ، ثم أصبح قائدا فى الحرس وظل به حتى سنة ٨٧٥ م [= ٢٦١ هـ] حين قام ذات يوم هشام الحاجب (ولاندرى سر غضبه عليه) وقال له بحضرة الوزراء : « الكلب خير منك ! » ، ولم يكتف بسبه بل زاد فصفه ، فأقسم «ابن مروان» - وهو حائق عليه - أن ينتقم لنفسه ، ومن ثم جمع أصدقاءه وهرب بهم واستولى واياهم على قلعة « الحنش » (٨) جنوب ماردة واعتصموا بها ، فحاصرهم جند السلطان فى تلك القلعة حتى عمدوا القوت وأكروها على أكل الكلاب ، ثم نضب الماء بعد ثلاثة أشهر فعاقده ابن مروان عدوه على تسليمه البلدة .

كانت الشروط التى أمكن لابن مروان الحصول عليها شروطا طيبة اذا هى قيست بالوضع السيئ الذى كان فيه ، فأذن له بالانطلاق والاقامة فى « بطليوس » التى كانت لا تزال حتى ذلك الحين مدينة غير مسورة ، ولم يلبث ابن مروان - بعد أن أمن مكر السلطان - أن ناصب السلطان العداء وغدا أشد خصومه خطرا عليه ، فضم جماعته الى أخرى قوامها مائة من الأعراف بقيادة شخص يدعى «سعدون» (٩) ودعى بلديى «ماردة» والبقاع الأخرى لحمل السلاح ، وبشر بين بنى جلدته بدين جديد وسط بين الاسلام والنصرانية ، وتحالف مع ألفونس الثالث ملك ليون (١٠) ، وهو الحليف الطبيعى لكل خارج على السلطان ، وعم الذعر جميع الأجزاء رهبة من سطوة ابن مروان ، لكنه قصر أذاه على خصوم بلده من العرب والبربر وانتقم لنفسه وبلده بأسلوب دموى .



أراد السلطان كبح جماح هؤلاء اللصوص فأنفذ جيشا بقيادة وزيره « هاشم » وابنه « المنذر » ، ولم ينتظر ابن مروان مجيئه بل خف لدفعه وأرسل سعدون الى ملك ليون يسأله النجدة واعتصم بحصن « كركر » (١١) ، فعسكر هشام على كئب من هذه القلعة التي لا تزال أطلالها باقية الى اليوم ، ثم وقعت « منت شلوط » فى يد أحد قواده الذى بادر فأرسل الى هشام ينهى اليه خبر اقتراب « سعدون » من مونت شلوط ، فى جماعة من حلفائه الليونيين ، ويذكر له أنه من اليسير التغلب عليهم لقلة عددهم .

لكن القائد أخطأ فى حسبانته ولم يصب فى تقديره ، اذ كان سعدون فى قوة كثيفة جدا ، غير أنه أراد استدراج عدوه الى كمين نصبه له فأذاع سعدون الداهية أن جنده شردمة ضئيلون ، وآتت خطته العجاب اذا انخدع « هاشم » بهذا التقرير وزحف فى كتائب قليلة على « سعدون » الذى أفضى اليه جواسيسه بكل شيء ، فتركه يتقدم نحو الجبال وترصده فى الكمائن ، وانتظره فى رجاله الذين أخفاهم خلف الصخور المجاورة ثم انقض بهم على العدو فى لحظة ليست فى الحسبان ، وأعملوا فيه مذبحة هائلة ، وأصيب هاشم نفسه بجراح عدة ، ثم أسر بعد أن رأى يعنى رأسه خمسين من قواده يخرون صرعى الى جواره ، ثم حملة القوم الى ابن مروان وصارت حياته رهين إشارة الشخص الذى أسرف فى اهانتته من قبل ، غير أن ابن مروان كان أكرم من أن يلومه وينتقم منه اذ حباه بعطفه وأظله برعاية لا تكون الا لمثل من هو فى مكانته ، وأرسله الى حليفه ملك ليون .

وسخط السلطان حين علم بما جرى ، ولا مشاحة فى أن أسر صفيه قد أحرزته ، الا أن الذى أمضه هو ما يابى عليه الشرف الامتناع عنه الا وهو استرداده من بين يدي القونس ملك ليون الذى طالب بمائة ألف دينار قدية له ، وهكذا وضع عطف السلطان البخيل على محك الاختبار ، لكنه لم يعلم الذريعة فى الامتناع عن دفع هذا المبلغ الجسيم اذ راح يقول : « هذا أمر جناه هاشم على نفسه ، قد أوقعه فيه طيشه وعجلته » ، وظل وزيره رهين القيد مدنى عامين حتى رضى [السلطان] أخيرا بدفع جزء من القدية المطلوبة ، كما تعهد هاشم للملك ليون بدفع البقية فيما بعد - وأسلمه - للوفاء بعهده - اخوته وابنه وابن أخيه رهينة ، ثم انقلب الى قرطبة يتحرق شوقا للثأر من ابن مروان الذى دمر فى تلك الفترة ناحية اشبيلية ولبلة ، وعجز السلطان عن رد عاديته فسأله أن يملئ بنفسه الشروط التى يراها لوقف حملاته التى خربت الاقليم ، فكان جواب ابن مروان جواب عات مهمل اذ قال : « انه سيكف عما هو فيه من حملاته وسيذكر اسم السلطان فى الصلاة العامة على أن يقتعد بطليوس وحين يأذن له الأمير بتحسينها ويعفيه من دفع الجزية ومن الحلف له ، والا فالحرب بينهما ا » .



رضخ السلطان لهذه الشروط رغم ما فيها من المهانة له ، واذ ذاك حاول هاشم اقناعه بأنه لن يكون من المستحيل - في تلك الظروف الجديدة - إخضاع هذا الثائر المتكبر قائلاً له : انه لم يكن لابن مروان يمين وليس له من بلد يقتعده ، وانما هو وفرسانه في آثار جند السلطان ، فان تملك بطليوس نألفه السلطان وتمكن من إخضاعه .

ونجح هاشم في حمل السلطان على قبول رأيه فأذن له بالخروج بالجيش والزحف حتى بلغ به « ليلة » واذ ذاك أرسل ابن مروان الى السلطان رسالة ختمها بقوله : انه علم أن هاشما زحف على الغرب ، ثم أقسم أنه لو تقدم هاشم بعد ذلك لأحرق ابن مروان بطليوس وتابع الفتنة والانتزاع .

وخاف السلطان من هذا التهديد وبادر فأرسل في لحظته الى وزيره يأمره بالعودة الى قرطبة هو وجيشه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يستخف بشأن هذا العدو المروع (١٢) .

كان الثوار كلما ظهرت القوة أبدت الحكومة من جانبها مظاهر التراخي والجبن ، ذلك أنها في كل مرة تتسامح فيها مع الثوار أو تعقد معهم معاهدة كانت تفقد شيئاً من الهيبة التي هي أحوج ما تكون اليها لتفرض احترامها في نفس شعب ثائر غاضب يفوق سادته عدداً .

وقويت نفوس الجبليين من أهل « رية » بما ترامى اليهم من اخبار الشمال والغرب ، فبدؤا يثورون بدورهم واندلعت سنة ٨٧٩ م [= ٢٦٥ هـ] نيران الفتن والثورات في كثير من أنحاء الولاية ، ولم تكن الحكومة تجهل الأخطار التي تهددها من هذه الناحية فاضطربت فزعاً حين واتها النذير بها ، وصدرت الأوامر الصارمة الى كل الجهات فألقى القبض على زعيم عصاة مخيفة وأرسل الى قرطبة ، وبادرت الحكومة فشيئت القلاع على الأماكن المرتفعة التي تهمها حراستها (١٣) ، فأثارت كل هذه الاستعدادات أثراً الجبليين ولكنها لم ترهبهم ومع ذلك فقد كان هناك قليل من التجانس في حركاتهم ، اذ كانوا في حاجة الى زعيم قوى الخلق ، فادر على توجيه عواطفهم الوطنية الحادة الى هدف محدد ، فاذا ظهر هذا الرجل فليس عليه الا أن يشير فيهرع جميع سكان الجبل بل وأن يسير الجبل نفسه معه .

الفصل الحادى عشر

اوليات عمر بن حفصون وفراره الى افريقيا • عودته الى
الاندلس وسبب هذه العودة • اعتصامه ببوشترو ومضايقته
الولاة والحكام واهل السلطة • السلطان يهادنه ويستخدمه
فى جيشه • مصاحبته الحملة الخارجة لقتال محمد بن لب
والفونسو • ابن حفصون يعاود حياة المخاطرة والمغامرة •
تجميعه مسلمى الجنوب ونصاراه ضد الحكومة • موقفه من
المنذر بن السلطان بعد توليه العرش اثر وفاة ابيه • المنذر
يستهل عهده بمهاجمة بوشترو سنة ٢٢٣ هـ • قتله المتمرد
صاحب ارشثونة • ابن حفصون يخضع المنذر الذى لا يلبث
ان يموت بتدبير اخيه عبد الله الذى يتولى الحكم مكانه •

عمر بن حفصون يجمع السلطة فى يده

وقت أن شرع الجبليون فى التمرد كان هناك سيد ريفى شريف الأصل اسمه « حفص » ينزل ضيعة متاخمة لـ « أوت » المعروف اليوم باسم « أزنات » فى الشمال الشرقى من مالقة ، وكان جده الخامس يدعى « بالفونس القوطى » ، وينمت بالقومص (١) ، وكان قد التزم الحياذ زمن الانقلابات السياسية والدينية ، اما بدافع احتمال الآلام أو عدم الاكتراث .

فلما كانت أيام الحكم الأول غادر « رندة » وأقام قرب حصن « أوت » وأسلم ، وبقي ذراريه على شاكلته رغم ما كانوا يكتنونه فى أعماق قلوبهم من توقيير عقيدة أسلافهم .

واستطاع حفص بنشاطه واقتصاده أن يجمع ثروة ضخمة لنفسه ، وكان جيرانه - وهم دونه ثروة ومالا - يحترمونه ويجلونه ، ووجرت عادتهم أن ينادوه « بحفصون » لأن هذه الزيادة فى الاسم دليل (٢) على الشرف ، ولم يكن ثم شئ بمستطیع أن يمكر عليه صفو هديته ، حتى ان مسلك ابنه عمر الشائر على النظام الأبوى لم يؤرقه طويلا ، ولم يورثه حزنا مقيما .

لم يرث هذا الشاب [عمر] سوى الجانب البغيض من الخلق الأندلسى فكان أجوف متعاطفا عرييدا ميالا للشجار ، يبلغ الحق به غاية مبلغه لاتفه إهانة ، وقد تثيره الكلمة أو الحركة أو النظرة العابرة ، وطالما حمل الى البيت وهو يكاد يموت والدم يسيل على وجهه المثخن بالجراح ، فكان لابد له - وهو على هذا الخلق - أن يقتل أن أحلا أو عاجلا ، وقد حدث ذات يوم أن تشاجر بلا مبرر مع أحد جيرانه فتضاربا فأردى خصمه قتيلا ، فعمل الأب المنكود على انقاذ ابنه من المشتقة بأن فرا معا من الضيعة التى نزلتها أسرتهما منذ ثلاثة أرباع القرن وسكنا جبال « رندة » عند سفح

جبل « بوبشترو » (٣) حيث الطبيعة العذراء ، وهفا قلب عمر للتوغل في الغابة والاعوار العجيبة ، وانتهى الأمر به الى احتراف اللصوصية فصار من الدعار ، وسقط في قبضة القضاء فأمر حاكم الولاية بجلده ، فلما أراد العودة الى بيت أبيه اعتبره أبوه لصا ونفض يديه من صلاحه ، واذ ذاك أسقط في يد الابن [عمر] ولم يدر ما يفعل لكسب قوته في اسبانيا فهدها تفكيره للشخص الى الساحل حيث ركب البحر الى افريقية وعاش هناك عيشة الشطار فترة من الزمن حتى وصل الى « تاهوت » حيث عمل في خدمة طرزي من أهل « رية » كانت له به سابق معرفة .

وفي ذات يوم بينما هو يعمل مع أستاذه دخل الحانوث كهل لم يره من قبل وان يكن أندلسي المولد ، وناول الطرزي قطعة من القماش طالبا منه أن يخطبها له جلبابا ، فأجلسه الطرزي الى جانبه ، وجعلا يتجادبان أطراف الحديث ، فسأل الكهل الطرزي من يكون هذا الشاب ؟ فقال له : انه أحد جيرانى برية وقد قدم العدوة ليتعلم حرفتى ، فتوجه الشيخ الى الفتى وسأله متى كانت مغادرته « رية » فقال : « منذ أربعين يوما ! » فسأله : « أو تعرف جبل بوبشترو » قال : « نعم ، لقد كنت أنزل سفحه » فقال الكهل : « لقد شبت به النائرة » فقال عمر « أحقا ؟ » فقال الشيخ : « وستنبعها غيرها بعد قليل » .

وترث الرجل لحظات ثم تابع كلامه قائلا : « أتعرف بالقرب من هذا الجبل شخصا اسمه عمر بن حفصون ؟ » .

فلم يكده عمر يسمع اسمه يجرى على لسان الشيخ حتى اريد وجهه وخفض ناظره ولاذ بالصمت ، فتمعن الرجل فيه ولاحظ كسرا في إحدى أسنانه . وكان هذا الرجل من الاسبان المؤمنين ببعث جنسهم ، ولما كان قد سمع الكثير عن عمر فقد أدرك أنه على جانب عظيم من النشاط الذى يؤمله لا ارتكاب أعمال الشر أو اتیان الخير حسبما توحى به الظروف ، وحدثته نفسه أن فى طيات هذا الفتى الشמוש والمقاتل الكبير ولص الجبل : زعيما قويا .

وأيقن الشيخ أنه يتحدث مع عمر نفسه لما لاحظته من اضطراب نفسه ، وارتداد وجهه وانكسار ضرس له : الأمر الذى سمع به الشيخ من قبل ، وحينذاك أراد العجوز استغلال هذا الشاب الجسور لهدف كبير فقال له : « تعسا لك ، اتحسب أنك هارب من الفاقة بهذا العمل ؟ ارجع الى بلدك وقاتل وكن خصما عنيدا للأمويين وستحكم شعبا كبيرا ! » .

ولا شك أن هذه الكلمات التي أجرتها النبوة على لسان الكهل قد أذكت - فيما بعده - أطماع عمر ، أما فى هذه اللحظة بالذات فقد كان لها تأثير عكسى تماما إذ خاف أن يكشف السفهاء أمره فيسلمه أمير (٤) « تاهرت » الذى كان يسترشد دائما بسلطان قرطبة الى الحاكم الأندلسى ، ومن ثم بادر الى مغادرة البلد وليس معه من المتاع سوى رغيفين من الخبز اشتراهما وطواههما تحت ابطه .

عاد عمر الى الأندلس ولم يجزؤ على مواجهة أبيه بل مضى الى عمه وأفضى اليه بما أنبأه به شيخ تاهرت العجوز ، وكان عمه رجلا يؤمن بالخرافات فأمن بنبوة الكهل وأشار على ابن أخيه بالسير وفق ما قدر له . وأغراه باضرام نار الثورة ، واعدأ اياه ببذل كل ما فى طوقه لمساعدته .

وبر العم بوعده وأمده بأربعين رجلا من فلاحى ضيعته جعلهم تحت امرته فقبلهم عمر جميعهم ورتبهم وأقام بهم على جبل « بوبشترو » وكان ذلك سنة ٨٨٠ م أو ٨٨١ م [= ٢٦٧ - ٢٦٨ هـ] ، وهناك وجدوا أطلال حصن رومانى يسمى : « بالكاسول » (٥) ويسميه أهل البلد el Castillon أو القصر ، ورأى عمر أنه من اليسير عليه ترميم تلك الأطلال، وفعل ما رأى ، ولم يكن ثم مكان آخر فى تلك المنطقة يشاؤ هذا الحصن ليكون معقلا أميناً يرتد إليه اللصوص أو الثوار .

كان هذا الحصن قائما على مرتفع شاهق شديد الانحدار ، ويستحيل الوصول اليه من الشرق أو الغرب ، فكان أمتع من عقاب الجو ، أضف الى هذا مجاورته للسهل الأعظم الممتد من « كامبلوس » الى قرطبة فكان من الهين على عصابة عمر أن تشن الغزوات على هذا السهل فتحمل منه الماشية وتفرض ضرائب غير شرعية على النواحي المنعزلة ، واكتفى عمر فى بادىء الأمر بهذه السطوات الأولية ، لكنه سرعان ما أدرك أن احترام اللصوصية أمر لا يليق به ، كما ازدادت جماعته بمن انضم اليها من يهيمهم البعد عن المجتمع وبمن رأوا الأمن على نفوسهم بالاختفاء وراء أسوار الحصون القوية أقول ما كادت جماعته تكبر وتصبح قادرة على اطلاق طمأنينة الاقليم الحربية الضعيفة حتى أخذ فى شن الغارات العنيفة على أبواب المدن ، وذاع خبر حملاته المروعة فاضطرب حاكم (٦) « رية » الذى أجمع رأيه فى النهاية على الخروج بكافة قوات الولاية لقتال المهاجمين الا أن الهزيمة حاقت به واضطره هربه السريع لترك قسماطه الكبير بين

أيدى العصاة ، فخلعه السلطان الذى عزا اليه أسباب هذه النكبة وعين
سواه بدلا منه .

لم يكن حظ الوالى الجديد (٧) خيرا من حظ سالفه فقد أزعجته
مقاومة حامية « بوبشترو » حتى اضطر الى أن يعقد مع عمر هدنة لم يطل
أجلها ، وعلى الرغم من احدات الهجمات من كل جانب باين حفصون
الا انه تمكن من الاحتفاظ بمكانه على الجبل مدة عامين أو ثلاثة
أعوام (٨) ، اضطره بعدها « هاشم » الحاجب الى الخضوع واستنزله الى
قرطبة هو وسائر رجاله ، فرأى السلطان فى عمر قائدا ممتازا ، وفى
أتباعه جندا بارعين ، فآكرم لقاءهم وعرض عليهم الانخراط فى جنده
فاستجاب له عمر اذ رأى أن ليس له ولا لهم - فى وضعهم الراهن - عرض
احسن من هذا العرض (٩) .

حدث بعد قليل فى صيف سنة ٨٨٣ [= ٢٧٠ هـ] أن خرج
« هاشم » لمحاربة « محمد بن لب » زعيم بنى « كسى » اذ ذاك « والفونس »
ملك ليون ، واستصحب هاشم معه عمر الذى أتاحت له الفرصة للظهور فى
كثير من المعارك لا سيما فى « بانكو رفو » .

كان عمر هادئا ساكن الجنان فى سلمه فان هيج فثائر فتاك ، وبذلك
سهل عليه أن ينال تقدير القائد العام وعطفه ، لكنه فى أثناء عودته الى
قرطبة شكى من [منحه من الوليد] ابن غانم والى شرطة المدينة الذى
دفعته كراهيته لهاشم الى ازعاج ومضايقة أمثال عمر بن حفصون من
الضباط الذين يتمتعون بعطف الوزير ، فكان فى كل لحظة يأمره بتغيير
محل اقامته ، وأخذ يبدله باردا أنواع القمح .

لم يكن من طبيعة عمر الإدارة فلم يستطع كتم حنقه أو اخفاء سخطه ،
وفى ذات يوم ابرز لوالى الشرطة كسرة من الخبز الأسود الجاف وسأله :
« أتأمل فى عطف الله ؟ ، أو تستطيع قضم هذا الخبز ؟ » فاجابه ابن غانم :
« ومن أنت أيها الحقير حتى تجرؤ أن تسألنى هذا السؤال » ، فرجع عمر
ابن حفصون الى مقره خزيان كاسفا ، ولقى هاشما فى طريقه الى قصره
فقص عليه قصته مع ابن غانم ، فقال له الحاجب ان القوم يجهلون قدره
وأن عليه أن يفهمهم من يكون ، ثم تابع سيره .

عاف عمر خدمة السلطان فأشمار على جنده بالارتداد الى الجبال
ليعاودوا حياة المخاطرة والحرية التى مارسوها من قبل أمدا طويلا ، فوافق
هذا الطلب هوى فى نفوسهم ولم تكن الشمس قد غابت بعد حين خلفوا
العاصمة وراهم قاصدين « بوبشترو » من جديد سنة ٨٤٤ م .

كان هم عمر الاول الاستيلاء على هذا الحصن وهو أمر عسير لم يفت هاشما الذي عهد بحراسة هذا الحصن الى حامية كبيرة العدد ، وشيد على جوانبه عدة شون وأبراج فأصبح منيعا على من يرومه ، الا أن ابن حفصون كان عظيم الثقة بحسن طالعها فلم يداخيه اليأس ، ومن ثم شرع بمعونة عمه في ضم طائفة من الرجال الجسورين الى جماعته ، ولم يعط القوامين على حراسة الحصن فرصة لتنظيم المقاومة بل كر عليهم كرة عنيفة أجبرتهم على الفرار حتى أنهم لم يجدوا وقتا لاصطحاب عشيقه قائدهم التي راقت في عيني عمر فاتخذها حليمة أو خليلة (١٠) .

لم يعد عمر بن حفصون منذ هذه اللحظة « دون جوزيه ماريا » القرن التاسع وان خدمته الظروف بما لم تخدم به هذا البطل أقول لم يعد عمر زعيم عصابة من اللصوص بل قائدا للجنس الاسباني على الاطلاق في الجنوب ، فتنادى جميع مواطنيه - مسلمين ونصارى - بقوله : « لقد عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم ، وأذلكم العرب واستعبدوكم ، وأنا أريد أن أقوم بشاركم وأخرجكم من عبوديتهم » (١١) ويقول أحد المؤرخين العرب : « انه كان لا يورد هذا على أحد الا أجابه وشكره ، فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه » .

وها هم ذا أعداؤه وهم وحدهم الذين ذكروا تاريخه ليشهدون بامحاء عيوبه القديمة تماما بعد أن تزعم جماعته ، فعدا أنيسا بشوشا حتى نحو أصغر جنده بعد أن كان في الماضي متكبرا فظا ، وأحبه من عملوا معه حبا يكاد يرقى الى درجة العبادة ، وأطاعوه طاعة عمياء فكانوا لا يعاوان بالخطر بل يخفون اليه عند أول اشارة تبدر منه لهم ، وما كان لهم أن يتأخروا - لو دعاهم - عن اقتحام النيران اذ كان هو على رأسهم ، وكان في حمس القتال يحارب كاصغر جندي ويستعمل الرمح والسيف في مهارة لا يميزه فيها أمهرهم ، ويهاجم أشجع الأقران ولا يتركة حتى يظهر عليه ، ولم يكن هناك أبدا رجل يضارعه في حبه لخوض غمار الاخطار ، وكان يسخو في مكافأة من يمد اليه يدا ، ويحزول العطاء لرجاله المبرزين ، ويكبر الشجاعة حتى في أعدائه ، وطالما رد حرية رجال لم يسقطوا في يده الا بعد طول صراع .

وكان من ناحية أخرى يقسو في معاقبة الأشقياء ، وحينذاك تتسم أحكامه بالوحشية فلا يعبأ بالبراهين ولا الشهادة بل يكفيه اعتقاده بارتكاب الشخص للجرم .

وعلى الرغم من سريان اللصوصية في دماء هؤلاء القوم الا ان الأمن استتب في هذه الجبال بفضل طيبة عمر وعدالته ، ويؤكد العرب أن المرأة

كانت تستطيع اذ ذاك عبور الجبال وحيدة محملة بالمال دون أن تخشى
أحدا (١٢) .

انقضى قرابة عامين دون أن يقوم السلطان بعمل جدى ضد البطل
الذى روع شعبا طال استعباده ، بيد أنه فى مستهل يونيو ٨٣٦ م
[= ٢٢١ هـ] خرج إلى العهد المنذر لمهاجمة سيد (١٣) « الحامة » وكان
علجا كمبر وحليفا له ، فهب عمر لنجدته وهاجم مدينة « الحامة » ،
وتحمل العلوج الحصار مدة شهرين وقل ما بأيديهم من القوت ، فصمموا
على شق طريق لهم بين صفوف العدو ، لكن فشل مشرؤهم وخابت خطتهم
وأثخن عمر جراحه ، وشلت إحدى يديه ، وقد كثر من جنده حتى
اضطر للارتداد إلى الحصن ، وأسعد العلوج بأن تلقى « المنذر » بعد برهة
وجيزة خبرا اضطره لرفع الحصار والعودة إلى « قرطبة » اذ حضر (١٤)
الموت أباه فى أغسطس سنة ٨٣٦ م [= ١٩ صفر سنة ٢٧٣ هـ] فاهتبل
عمر هذه الحادثة لئلا سلطانة وقصد إلى أصحاب كثير من القلاع ودعاهم
للاتحاد معه فاعترفوا جميعا بسلطانة عليهم (١٥) ، وأصبح هو منذ هذه
اللحظة ملك الجنوب فى الواقع .

وجد عمر فى السلطان الذى اعتلى العرش خصما كفؤا له ، اذ كان
أميرا ، نشطا ، يقظا ، شجاعا ، يعتقد الموالى الأمويون أنه لو مد له فى
الحكم عام أكثر لأجبر جميع ثوار الجنوب على الاستسلام (١٦) له ولكن
ها هى دى مناطق قبرة والبيرة وجيان قد أصبحت مسرحا لنضال عنيف
كانت كفة كل من الفريقين فيه ترجح مرة وتشول أخرى (١٧) .

وفى ربيع ٨٣٨ م [= ٢٢٣ هـ] زحف المنذر بنفسه على العصاة
واستولى فى طريقه على عدة حصون ، وخرّب أرباض « بوبشTRO » ،
ومضى لمحاربة أرشذونة ، وكان قائد حاميتها « عيشنون » لا يخلو من هذا
الغرور الذى لا يزال حتى اليوم عيب الأندلسيين ، فاعتمد على شجاعته التى
لا ينكرها عليه أحد وأخذ يقول : « اذا ظفر بى السلطان فليصلبنى ،
وليصلب عن يمينى خنزيرا وعن يسارى كلبا » ، ناسيا أن لدى السلطان
— اذا شاء القبض عليه — سلاحا أنفذ من قوة السيف ، اذ كانت الرشوة
قد أفسدت بعض سكان البلد ، وفى ذات يوم دخل عيشنون — وهو أعزل —
مسكن أحد هؤلاء الخونة ففوجئ بالقبض عليه وتكبيله بالحديد ، وتسليمه
إلى السلطان الذى صلبه على الصورة التى أرادها لنفسه ، وسرعان
ما استسلمت « أرشذونة » ، ثم أسر المنذر بعدئذ أبناء بنى مطروح الثلاثة

أصحاب القلاع فى جبال « بريجو » وصلبهم مع تسعة عشر رجلا من مقدمى قوادهم ، ثم مضى هو فحاصر « بوبشترو » (١٨) .

لم يجزع ابن حفصون ولم يتبلبل ذهنه من هذا الحصار لثقته فى مناعة حصنه ، وفكر فى حيلة يحتال بها على السلطان الذى كان من طبيعته البشاشة والسخرية ، فعرض عمر على المنذر شروط الصلح قائلا انه سيكون عند الأمير من خاصة جنده وسوف يقطن قرطبة بأهله وولده على أن يلحق الأمير أبناءه فى مواليه ، فسقط المنذر فى الأبوله واستقدم الى قرطبة القضاة والفقهاء ، وحرر معاهدة صلح وفق الشروط التى عرضها ابن حفصون الذى مثل أمام السلطان الذى عسكر فى حصن مجاور وقال له : « أسألك مائة بغل أجعل عليها جملة مالى ومتاعى » ، فوعده السلطان باجابة ملتزمة هذا ، ولما كان الجيش قد غادر ضواحي بوبشترو فقد أرسلت البغال المطلوبة الى هذا الحصن فى حراسة عشرة من العرفاء ومائة وخمسين فارسا ، وتهاون القوم فى الحراسة ثقة منهم بالاعتماد على ابن حفصون الذى اغتنم فرصة الليل للانسلال ، وأغذ السير الى « بوبشترو » أمرا جماعة من جنده باللاحاق به ، وهاجم الحرس واغتصب منهم البغال ووضعها فى مكان أمين خلف أسوار حصنه القوية (١٩) .

غضب المنذر للتغدير به وأقسم وهو فى سورة حنقه على معاودة حصار بوبشترو وألا يرفع الحصار عنه حتى يستسلم له العلج الخائن ، الا أن الموت أحله من يمينه ، فقد كان أخوه عبد الله فى مثل عمره تماما وكان يتطلع للعرش الا أنه كان يفقد الأمل فى اعتلائه لو مات المنذر تاركا وراءه أبناء تؤهلهم أعمارهم لذلك الاعتلاء ، ومن ثم رشى عبد الله جراح المنذر الذى فصد مولاه بمبضع مسموم فلما كان يوم ٢ يونيو ٨٨٨ م [= ١٥ صفر ٢٧٥ هـ] لفظ المنذر نفسه الأخير بعد حكم استمر عامين (٢٠) .



كان عبد الله لا يزال فى قرطبة حين حمل اليه أخصاؤه خبر موت أخيه فأسرع الى المعسكر وأفضى بالنبا الى وزرائه الذين لم يكن لهم علم بالوفاة ، وأخذ البيعة لنفسه منهم ثم من القرشيين فالوالى الأمويين فموظفي الدولة فقواد الجيش .

كان من المنتظر أن ينصرف الجند عن حصار حصن « بوبشترو » حين يتناهى الى سمعهم نبا موت المنذر ، كراهية منهم لتنفيذ عزم السلطان لاعتقادهم بمنعة بوبشترو ، ولقت أحد الضباط نظر عبد الله الى تلك الروح السارية بين الجند وأشار عليه أن يكتم خبر موت أخيه وأن يدفنه فى أقرب مكان مجاور ، غير أن عبد الله جعل هذه المشورة دبر أذنه متظاهرا

بالغيظ وقال : « لو علمت أن المنية تخترمنى دونه لما خلفت رمة أخى وأميرى
موطنا لأقدام أهل الشرك والخلعان ومحل أهل النواقيس والصلبان » .

وشاع نبأ موت المنذر بين الجند فتلقوه مغتبطين ، وتأهبوا للقفل
العاجل الى ديارهم دون أن ينتظروا أوامر السلطان الجديد الذى أخذ
جيوشه فى التناقص وهو ماض الى قرطبة .

لم يعلم ابن حفصون بموت المنذر الا بعد أن أخذ الجيش فى الرجوع ،
ومن ثم يادر الى الاستفادة من الفوضى التى صاحبت هذا الارتداد السريع ،
فقبض على كثيرين من أبطأ بهم الارتداد وأصاب منهم غنائم جمة ،
فأرسل اليه عبد الله وصيفه « فرتون » يستحلفه ألا يزعمهم وهم يشيرون
جنازة أخيه ، ويؤكد له رغبته الصادقة فى موادعته ، وقد كف الزعيم
الاسبانى عن مطاردة القوم ، ولا ندرى آكان هذا تفضلا منه أم تقديرا منه
للمنذر .

ودخل عبد الله (٢١) قرطبة فى رهط لا يعدو أربعين فارسا ،
أما بقية الجند فقد انصرفوا عنه .



الفصل الثاني عشر

مبادرات المصالحة بين ابن حفصون والأمير عبد الله • نبذة
تاريخية عن الحركة المسيحية في اليهود الأولى من الحكم حتى
زمن الأمير عبد الرحمن • ظهور يحيى بن صفالة والنزاع
العرقى • ظهور سوار القيسي واستيلاؤه على حصن « عونت
شافر » وفظاظته في معاملة خصومه • وقعة جعد وانتصار
سوار • الأعلاج يلتمسون الحماية من السلطان • قيام سوار
بمهاجمة حلفاء ابن حفصون • التجاء العرب الى قلعة الحمراء •
المخاوف النفسية وأثرها في النفوس • وقعة المدينة والتماس
العلوج مساعدة ابن حفصون لهم • أهل البيرة يأسرون سوارا
ويقتلونه • شخصية سعيد بن جودى • رأى المؤلف والمؤرخين
المسلمين عن حروب سعيد •

ظهور سوار وأعماله

اعتلى عبد الله العرش وسط ظروف نحس كبير (١) ، اذ كانت الدولة التى نخرتها العداوات العرقية منذ أمد بعيد سائرة فى خطى سراع شطر الانحلال والدمار ، ولعل الأمر ربما كان أهون خطرا لو لم يكن للسلطان من شاغل سوى ابن حفصون ورجاله الجبليين ، الا أن العرب الأشراف اغتنموا فرصة الغوضى الشاملة وتطلعوا الى الاستقلال ، فكان خوف الملوكية من هذه الحركة أشد من خوفها من الاسبان أنفسهم ، وذلك ما كان يراه عبد الله .

ولما كانت الضرورة تحتم عليه اما مصافاة الاسبان أو الاشراف العرب حتى لا يكون وحيدا بلا سند فقد فضل مصافاة الاولين ، فعطف على بعضهم وقربهم اليه ، وتوثقت اللفة بينه وبين «ابن مروان» الجليقي وقت أن كان ابن مروان لا يزال فى خدمة السلطان محمد ، فلما اعتلى عبد الله العرش استعمل «ابن حفصون» على حكومة رية مشروطا عليه الاعتراف بسلطنته ، ونجحت هذه السياسة فى بادئ الأمر فقدم «ابن حفصون» اليه فروض الطاعة ، وأظهر ثقته بالامير حتى لقد بعث بابنه حفص وبعض أبناء قواده الى البلاط ولم يسخر السلطان وسعا فى توثيق عرى هذا التحالف ، فعامل ضيوفه أحسن معاملة وغمرهم بالهدايا .

لكن لم تكد تنقضى بضعة أشهر على رجوع حفص ورفاقه الى بوبسترو حتى أطلق ابن حفصون يد جنده فعاثوا فى الضياع والقرى نهبا وسلبا حتى بلغوا أبواب «أوسونا Ousuna» واستجة بل وقرطبة ذاتها ، فلما هزمتهم القوات التى أنفذتها الحكومة ضدهم شجب ابن حفصون علانية ما كان بينه وبين السلطان من عهد وجاهره بالعداوة وأخرج عماله (٢) .

أخطأ عبد الله فيما قدره فلم يفلح فى اكتساب الاسبان الى جانبه ولم يجن من محاولته هذه الا عداوة أبناء جنسه ، اذ من الطبيعى أن

يكون العرب المقيمون في الولايات التي تزعزعت فيها السلطة المملوكية أبعد الناس عن طاعة السلطان الذي حالف خصومهم .

وسنرى أولا كيف تتابعت الأحداث في ولاية البيرة .

إذا كان للذكريات الدينية تأثير ما على النفوس فليس ثمت ولاية تيز « البيرة » في تعلقها بالمسيحية ، فقد كانت مهد النصرانية الاسبانية ، كما ترددت في آفاقها تكهنات المبعوثين السبعة الذين تزعم إحدى الروايات الموغلة في القدم أنهم تلاميذ الرسل في رومة في الوقت الذي كان فيه كل شبه الجزيرة غارقا في ظلام الوثنية (٣) ، ثم أصبحت عاصمتها بعد ذلك بزمان طويل - أعتى حوالى سنة ٣٠٠ م - كرسى مجمع شهير ، وظل مسيحيو البيرة أمدا طويلا مقيمين على الولاء لديانة أسلافهم (٤) .

أما في العاصمة ذاتها فقد حدث بعد فترة قصيرة من الفتح العربي أن قام « حنش الصنعاني » - أحد أصحاب موسى الاتقياء بتأسيس مسجد بها ، إلا أن عدد المسلمين كان قليلا جدا حتى لقد ظل المسجد بعد قرن ونصف قرن من الزمان قائما وحيدا كما تركه « حنش » (٥) . أما الكنائس فكانت كثيرة العدد طائلة الثروة .

وشابهت البيرة غرناطة التي حفلت بما لا يقل عن أربع كنائس. رغم نزول اليهود بكثير من نواحيها ، وكانت إحدى تلك الكنائس خارج باب البيرة ، وقد شيدتها في مستهل القرن السابع سيد قوطى شريف يدعى « جوديدا » ، وكانت كنيسة باب البيرة رائعة البنيان معدومة النظر (٦) .

أما في أيام عبد الرحمن الثانى وولده محمد فقد أخذ الالحاد يعم البلد شيئا فشيئا ، ولم يعد الناس في ولاية البيرة يهتمون بالصالح الدينى أكثر مما في الولايات الأخرى ، أضف الى ذلك أن المفاصد المخزية والكفر الصريح الذى أبداه أحد أهالى «هوستجسيس» - وهو العم صمويل مطران البيرة قد دفع كثيرا من المسيحيين للنفور الطبيعى من ديانة هذا مثال من رجالها المنحطين ، وألح الاضطهاد على ما بقى فى نفوسهم .

أما ما فعله العم صمويل المرذول فانه لم يكده يعزل لمسلكه المشين حتى مضى الى قرطبة وأعلن اسلامه ، وأخذ منذ ذلك الحين يستعمل أشد الأساليب الوحشية ضد أبناء أسقفيته القديما الذين أسلمتهم الحكومة لغضبه الأعمى ، حتى ان الكثيرين من هؤلاء التمساء لم يجدوا سوى الارتداد عن دينهم للمحافظة على حياتهم وما يملكون (٧) .

بهذه الوسيلة ازداد عدد العلوج في البيرة زيادة وأت معها الحكومة
ضرورة ايجاد مسجد كبير لهم أقامته سنة ٨٦٤ م [= ٢٥٠ هـ] زمن
الأمير محمد (٨) .

أما عرب الولاية - وأغلبهم من درية جند دمشق - فكانوا يكرهون
البقاء خلف أسوار أية مدينة ، ومن ثم سكنوا الأرياف كما كان يسكنها
أسلافهم من قبل ، وكون هؤلاء العرب - بالنسبة للأسبان - طبقة بالغة
الارستقراطية والتكبر ، قليلة الاتصال بسكان العاصمة ، ولم يكن هناك
ما يغريهم بالاقامة في مدينة البيرة الكثيرة المملة الواقعة وسط أرض جرداء
خالية من الزهور في الصيف قدر امتلائها بالسحب شتاء ، فإذا كان يوم
الجمعة هرعوا الى المدينة للصلاة، ولكنهم في الواقع لم يخرجوا الا لاستعراض
جيادهم الفخمة المجهزة أحسن تجهيز (٩) ، وكانوا لا يستحون من اظهار
احتقارهم للأندلسيين أو الانتقال عليهم ، وما أبغض الكبرياء الارستقراطية
يتظاهر به قوم طبعت علاقاتهم فيما بين بعضهم والبعض الآخر بطابع المجاملة
الكاذبة ، فكانوا يعدون الأسبان : مسلمين كانوا أو مسيحيين « سفلة
وأوغاد » ، وهو تعبيرهم الدائم عنهم ، وبذلك خلقوا لأنفسهم أهوالا
لا تفتقر ، فكثر مرات الصدام بين الجنسين حتى لقد حدث قبل ذلك
العهد الذي نتكلم عنه بثلاثين سنة ان قام الأسبان بمحاصرة العرب في
الحبراء حين التجأ الآخرون اليها (١٠) .

وانا لنجد الأسبان - في مستهل حكم عبد الرحمن - قد شغلوا
أنفسهم بحرب عنيفة ضد السادة العرب الذين ناهضوا السلطان ، وزعموا
عليهم بطلا محارباً من قبيلة قيس اسمه « يحيى بن صفالة » ، فأخرجهم
خصومهم من قراهم فالتجئوا الى حصن واقع شمالي غرب غرناطة قرب
Guadalhortuna وكان يسمى في القديم باسم اسباني هو حصن الجبل
المقدس Monte Sacre فحرفه العرب الى « منت شافر » ، وخرّبوا ما حوله ،
وحينذاك حاصرهم العلوج والنصارى بقيادة « نابل » وقتلوا عددا كبيرا
منهم واستولوا على الحصن ، ونجى « يحيى بن صفالة » بالهرب ،
واضطرت له شدة ضعف كتيبته الى اللقاء السلاح وعقد معاهدة مع الأسبان ،
وأصبح كثير التردد على العاصمة يقيم فيها بعض وقته ، ولعله كان يحاول
تدبير المؤامرات .

وسواء أكان هذا حقيقة أم افتراء فقد باغته الأسبان بالهجوم عليه
وفتكوا به هو ورجاله ، ثم ألقوا بجثثهم في أحد الآبار ، ومضوا يتصيدون
العرب تصيد الوحوش ، واشتدت فرحة الأسبان بذلك بصورة صورها
الشاعر العبلي (١١) في قوله :

قد انقصت قناتهم وذلوا وضعضع ركن عرهمو الأذل
فما طلّت دماؤهمو لديهم ، وما هم عندنا فى البئر ظلوا

تخرج موقف العرب اذ ذاك ودبت الفرقة بينهم ، كما أن الفوضى
التي ضربت أجزانها عليهم أثارت من جديد حدة خصومة المعديين واليمينيين،
فأخذ هذان الجنسان يتصارعان ضارعا عنيفا كما حدث فى « شذونة » ،
أما فى ولاية ألبيرة فقد حدث أن اختير خليفة ليحيى ، وحينئذ قام اليمينيون
- وكانت لهم على ما يظهر الغلبة فى العدد - ونازعوا المعديين الزعامة ،
وكان تنازعهم فيما بينهم فى تلك الساعة العصيبة مؤديا بهم جميعا الى
الهلاك ، على أن اليمينيين قد أدركوا لحسن الطالع ذلك الخطر فى حينه
فتنحوا عن الزعامة وملوا يدهم لمنافسينهم ، وزعموا عليهم(١٢) « سوارا
[القيسى] » وكان زعيما قويا عمل على انقاذ شعبه حتى لقد كانوا يقولون
فيما بعد « لولا سوار لأكل العرب بعضهم بعضا » .

وكان سوار قيسيا كيجي ومن ثم كان من الطبيعى أن يتطلع للنار
لابن عشيرته ، واستبد به خاطر آخر هو أنه رأى الاسبان يعينى رأسه
يقتلون ابنه الأكبر عند الاستيلاء على حصن « مونت شاقر » ، فتحرق
منذ هذه اللحظة للتأثر له منهم ، وإن كان بشهادته - هو نفسه - قد
طلعن فى السن وبلغ من العمر عتيا حيث قال فى إحدى قصائده :

صرم القسوانى يا هنيذ (١٣) مودتى

اذ شباب مفرق ، لمتى وقذالى

والواقع أن تلك المحاولة الدموية التى أزمع على النهوض بها قد
أمدته بعزم وقسوة قل أن تتوافرا حتى لمن كان لا يزال شابا غرائقا ،
ولكنهما تظاهرا فى الشيخ الذى تسيطر عليه عاطفة واحدة أخيرة تنسيه
كل شفقة وكل عاطفة انسانية وتحيله الى شيطان مريد قد ماتت فى نفسه
جميع الاحساسات الطيبة - ان وجدت - فى سبيل غايته المنشودة .

كان هم سوار الأول - بعد أن ضم اليه من استطاع من العرب -
الاستيلاء على « مونت شاقر » ، وكان مدفوعا لذلك بعاملين ، أما : أحدهما
فرغبته فى امتلاك حصن يستطيع اتخاذه قاعدة لعملياته التالية ، أما
ثانيهما فرغبته الملحة فى اطفاء ظمئه بدم الذين فتكوا بابنه .

واستولى العرب على حصن « مونت شاقر » رغم كثرة المدافعين عنه ،
وكان انتقام سوار انتقاما مهولا ، اذ فتك بجميع رجال الحامية وعرضهم
على السيف وكانوا زهاء ستة آلاف رجل ، ثم تابعت هجماته وتوالت

انتصاراته فكان ختام كل واحدة مذبحة مروعة ولم تأخذه شفقة على الاسبان بل قضى على أسرات على بكرة أبيها حتى بقى كثير من التركات بلا وريث .

دفعتم الشدة الاسبان فى « البيرة » للتوسل الى حاكمها جعد (١٤) لمساعدتهم ووعدوه بالخضوع له ، فلبى جعد رجاءهم وخرج على رأس جنده والاسبان لمهاجمة سوار .

لم يطر قلب الزعيم العربى شعاعا بل استحر القتال العنيف بين الطرفين ، وانتصر العرب وقصوا عندهم حتى أبواب « البيرة » وقتلوا أكثر من سبعة آلاف من رجاله ، وكان « جعد » ذاته ممن وقع فى أيدي الغالبيين .

اشتد فرح العرب بتلك الخاتمة السعيدة التى انتهت اليها هذه الواقعة المعروفة بوقعة جعد ، وكانوا قانعين حتى ذلك الحين بهاجمة الحصون ، أما الآن فقد تأتى لهم - ولأول مرة - الانتصار على العدو فى معركة فاصلة وضحوا بالكثيرين فداء لحيى ، وها هى ذى آيات أحد أبطالهم الذى كان فى الوقت ذاته من أحسن شعرائهم ، واسمه « سعيد بن جودى (١٥) » حيث يقول :

لم تزالوا تبغونها عوجا حتى	وردتم للموت شر ورود
فاصلطلوا حرها وحر سيوف	تتلظى عليكم كالوقود
هجموا يا بنى العبيد ليونا	لم يكونوا عن ثأرهم بعود
جاءكم ماجد يقود اليكم	فتية دارة كمثل الأسود
يطلب النار : ثأر قوم كرام	اذ وفوا بالعهود بعد العهود
فاستباح الحمراء لم يبق منهم	غير عان فى قيده مصفود
قد قتلنا منكم ألفا وما	يعدل قتل الكرام قتل العبيد
فلئن كان قتله غدرة ما	كان بالنكس لا ولا الرعيد

بعد هذا النصر المبين الذى حازه سوار مضى فحالف عرب رية وجيان وقلعة رباح ذاتها ، ثم عاد لمواصلة غاراته ومتابعة مذابحه فلم يجد الاسبان الذين انقطرت قلوبهم هلعاً سبيلاً للطمانينة الا بالارتواء بين ذراعى السلطان ، فطلبوا اليه أن يحميهم ، وما كان له الا الاستجابة لهم عن طيب خاطر لو أن ذلك كان فى مقدوره ، غير أن كل ما استطاعه فى هذه الظروف المحيطة به هو وعده اياهم بتدخله الودى الحميد .

وعد السلطان سوارا باستعماله على جزء كبير من ادارة أمور الولاية مشروطا عليه لقاء ذلك الامتثال لأوامره ، وترك الاسبان وشأنهم ، فقبل سوار هذه الشروط وأقسم هو والاسبان على حفظ السلام ، وحينذاك استتب النظام ورفرف الهدوء على الولاية ، غير أن ذلك للأسف كان ظاهريا اذ كان الفزع والقلق يسودان الجميع بلا استثناء ، ولما عدم « سوار » حصما يقاتله قام بمهاجمة حلفاء ابن حفصون وأتباعه ، وترامت أخبار غزواته وقسوته الى آذان الجميع فتحرك الشعور القومى بغتة فى نفوس سكان « الأبرة » لا سيما وقد سمعوا صرخات الفزع تتعالى من أبناء جلدتهم فهبوا لحمل السلاح ، واقتدت بهم الولاية كلها ، ودوت صيحة الحرب بين جميع الأسر ، ووجد العرب أنفسهم وقد هوجموا من شتى النواحي ونزلت بهم الضربات بعضها فى اثر بعض عن اليمين وعن الشمال فأسرعوا لوإذا الى الحمراء (١٦) يلتمسون بها مكانا للنجاة .



لم تعد الحمراء - وقد احتلها الاسبان ثم العرب - غير أطلال لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، ومع ذلك فقد كانت الملجأ الوحيد الذى بقى للعرب ، وكان معنى ضياعه من أيديهم فناؤهم قتلا عن بكرة أبيهم ، لذلك صمموا أيضا تصميمًا قاطعا على الدفاع عنه حتى آخر رمق فيهم ، وكانت الشمس لا تزال فى الأفق وإن مالت الى المغيب حين استبسلا فى دفع هجمات الاسبان المتتالية التى كانوا يرمون من ورائها الى الخلاص الأبدى ممن أسرفوا فى اضطهادهم زمنا طويلا ، ثم أقبل الليل فأضاءوا المشاعل وأعادوا ترميم ما تهدم من الأسوار وشون الحصن ، غير أن التعب ومواصلة السهر وتوقعهم الموت ان هم تاونوا لحظة واحدة أدى بهم الى حال من الاضطراب العنيف جعلهم فريسة سهلة للتطيرات التى كانوا يخجاون منها فى ظروف غير هذه الظروف ، فقد حدث ذات ليلة - وهم منهمكون فى اقامة التحصينات - أن انطلقت حصاة من فوق السور واستقرت عند أقدامهم فالتقطها أحد العرب فاذا بها ملفوفة فى ورقة بها الأبيات الثلاثة التالية : فقرأها بصوت عال على زملائه الذين أنصتوا له وكان على رؤوسهم الطير :

منازلهم منهم قفار بلاقح تجارى السفا فيها الرياح الزعازع
وفى القلعة الحمراء تدبير زيفهم ومنها عليهم تستدير الوقائع
كما حددت آباءهم فى ضلالها أسنتنا والمرهفات القواطع



أنصت العرب الى هذه الأبيات وهي تتلى عليهم على وميض المشاعل الخافت وضوئها الكابى المحزن الذى ترامت أنواره وسط ظلام الليل الكثيف فكانت وحبا عجيبا ، ويشسوا من الانتظار ، واستبدت بهم الأحاسيس الكثيبة حتى لقد قال أحدهم فيما بعد « اشتد ذعرنا لهذه الأبيات حتى لو أن عساكر الأرض أحاطت بنا ما وجدنا أكثر من هذا الذعر الذى وقع منا موقع الهواتف بالندر » .

لكن كانت هناك جماعة أثبت من هذا الفريق جنانا حاولت تقوية عزائم الآخرين وتثبيتهم فأفهمتهم أن السماء لم ترمهم بهذا الحجر ولا بتلك الورقة ان كانوا يعتقدون ذلك ، بل ان يدا معادية قدفتهم بها ، وأن الابيات من نظم « العبلى » الشاعر الأندلسى . وأخذت هذه الفكرة فى الانتشار بينهم ، ومن ثم طلبوا الى شاعرهم « الأسدى » الرد على شاعر العدو بأبيات من نفس البحر والقافية ، ولم يكن ذلك بالامر الجديد على « الأسدى » فلطالما اشتبك مع « العبلى » فى مهاجة شعرية من هذا القبيل ، إلا أنه كان فى هذه اللحظة مهتاجا قاصر الخيال فأجهد نفسه حتى واتاه البيتان التاليان وان كان ينقصهما الإلهام :

منازلنا معمورة لا بلاقع وقلعتنا حصن من الضيم مانع
وفيهما لنا عز وتدير نصرة ومنها عليكم تستتب الوقائع

وكان لا بد للأسدى من بيت ثالث لاكمال الرد فعاقه اضطرابه الشديد عن النظم ، فأحمر وجهه خجلا وخفض ناظريه الى الأرض واضطرب صامتا كما لو لم يكن قد سبق له فى حياته معاناة القريض ولا نظم بيتا من الشعر .

لم تكن هذه الحال بالتي تحبى شجاعة القوم المفقودة ، غير أنهم كانوا قد استردوا بعض هديئهم فلم يروا فيما جرى شيئا خارقا للمألوف ، لكنهم حين رأوا أن الوحى لم يوات شاعرهم - وهو ما لم يكن متوقعا - تضاعفت أوهامهم مرة أخرى وانقلب الأسدى الى ماواه خجلا ، واذا به يسمع فجأة صوتا يردد هذا البيت :

ألا فاذنوا منها قريبا لوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

فكان هذا البيت هو البيت الثالث الذى أعياه البحث عنه .

وتلفت الشاعر فيما حوله فلم ير أحدا ، فاشتد اعتقاده حينذاك أن روحا خفية قد أجرت ذلك البيت على لسانه ، فهرول يفتش عن صديقه الشيخ الحميم [محمد بن] أضحى ، وقص عليه ما جرى وأنشده البيت الذى ألقى به اليه ، فصاح به ابن أضحى : « أبشر بما سمعت يا بن أختى ،

فولله ما احسبه الا هاتف صدق في هؤلاء الاخايب فانهم بغوا علينا ،
وقد وعد الله من بغى عليه بالنصر ، فقد قال تعالى (ذلك ومن عاقب بمثل
ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ، ان الله لعفو غفور) •

آمن العرب اذ ذاك أن الله مدرّكهم بعنايته ومؤيّدهم بنصره ، فكوروا
أبيات شاعرهم حول حصاة قذقوا بها بين عدوهم •

وبعد سبعة أيام من ذلك الحادث رأوا الجيش الأسباني - وعدته
قراصة عشرين ألف رجل - يتأهب لمهاجمتهم من ناحية الشرق وينصب آلات
الحرب على أحد التلال ، ولم يشأ « سوار » تعريض جنده الشجعان للقتل
فى الحصون الخربة بل آثر المضى بهم لمواجهة العدو ، وما كاد الفريقان
يلتقيان حتى فارق « سوار » فجأة الميدان فى رغيل مختار من رجاله دون
أن يعلم خصمه أمر رجيله وقام بحركة التفاف ثم انقض على الجماعة المرابطة
على التل كأنه السيل الجارف انحط عليهم من عل قاضطرها الى الفرار ،
فارتاع الاسبان المحاربون فى السهل من هذا المنظر الذى يجرى فوقهم ،
وخالوا الامدادات قد وصلت الى العرب •

وتلت ذلك مذبحة مروعة ، وقص العرب عدوهم الآبق الى أبواب
«البيرة» وقتلوا منه اثنى عشر ألف رجل ، وان قالت رواية أخرى بل كان
القتلى سبعة عشر ألف مقاتل •

وقد أنشأ سعيد بن جودى قصيدة يشيد فيها بتلك الواقعة الثانية
المعروفة بوقعة المدينة ، وفيها يقول :

تولوا سراعا خوف وقع المناصل
كوقع الصياصى تحت وهج القمائل
يقاد أسيرا موثقا فى السلاسل
به الأرض يهفو من جوى وبلايل
يجز به الهامات جز المفاصل
بجمع كمثل الطود أزعن رافل
علينا ، وكانوا أهل افك وباطل
بحتف - قد افناكم به الله - عاجل
تجيد ضراب الهام تحت العوامل
ومن آل قحطان كمثل الاجادل
مجس حروب ، ماجد غير خامل
الى المجد - قدما والعلى - كل فاضل
بها ذاد عن دين الهدى كل جاهل

ولما راونا راجعين اليهمو
فسرنا اليهم والرماح تنوشهم
فلم يبق منهم غير عان مصفد
وأخر منهم هارب قد تضايقت
لقد سل سوار عليكم مهتدا
سعى لبنى الحمراء اذ حان حينهم
به قتل الله الذين تحزبوا
أدرتم رعى حرب فدارت عليكمو
لفيتم لنا ملبوسة مستجيرة
بها من بنى عدنان فتيان غارة
يقودهمو ليث هزبر ضبارم
أرومتهم من خير قيس ، سما به
له سورة قيسية عربية

كان من جراء الموقف الحرج الذى أعقب تلك الواقعة المروعة أن لم يعد للاسبان بد من شق طريق لا مناص لهم من شقه. ألا وهو التماس المعونة من زعيم جنسهم عمر بن حفصون والاعتراف بسلطته ، وكان ذلك ما فعلوه .

سرعان ما نهض ابن حفصون بجيشه ودخل « البيرة » - وكان على كئب منها - وأعاد تنظيم جندها ، وقسم تحت لوائه بعض حاميات الحصون المجاورة ، وسار بهم لمهاجمة سوار الذى اغتتم هذه الفرصة فاستمال اليه عرب « جيان » و « رية » ، وأصبح جيشه من الكثرة بالدرجة التى أطمعت فى التغلب على ابن حفصون ، ولم يكن سوار مبالغا فيما أمل وارتجى ، فقد ارتد ابن حفصون بعد أن فقد كثيرا من جنده ، وكاد هو ذاته أن يكون بين القتلى ، ولكن اشتد غضبه لهذا التقهقر وهو الذى ألف النصر ، فأسرف فى لوم سكان البيرة واتهمهم بأن أسلوهم فى القتال قد أفسد عليه تدبيره ، ثم استبد به الغضب ففرض عليهم غرامة هائلة ألزمهم بدفعها بحجة أنه لم يخض غمار هذه الحرب الا من أجلهم ، ثم قفل راجعا الى « بوبشTRO » على رأس معظم جيشه بعد أن عهد بالدفاع عن « البيرة » الى قائده « حفص بن المورو » .

كان البطل سعيد بن جودى من بين الأسرى الذين اقتادهم ابن حفصون ، وها هى مقطوعة لهذا الشاعر المفلق نظمها أثناء مسيره قال فيها :

خليلى صبرا، راحة الحر فى الصبر	ولاشئ مثل الصبر فى الكرب للحر
فكم من أسير كان فى القيد موثقا	فأطلقه الرحمن من ربة الأسر
لئن كنت مأخوذا أسيرا وكنتما	فليس على حرب ، ولكن على غدر
ولو كنت أخشى بعض ماقد أصابنى	حمتنى أطراف الردينية السمر
فقد علم الفتيان أنى كميها	وفارسها المقدام فى ساعة الذعر
وان لم يكن قبر فأحسن موطننا	من القبر للفتيان حوصلة النسر

بعد رحيل ابن حفصون وقع سواز فى كمين نصبه له سكان « البيرة » وقتلوه ، فلما حمل جثمانه الى المدينة تعالت صيحات الفرح واشتدت شهوة الانتقام عند النسوة فنظرن اليه نظرات الوحوش المفترسة لما أصابهن من الثكل بأبنائهن ، والترمل بفقد أزواجهن ، والحزن على اخوتهن ، ودفعهن الغضب الى تمزيق جثته اربا اربا ورحن يعضفنها (١٧)

حينذاك عهد العرب بقيادتهم الى سعيد بن جودي الذى أطلق سراحه
ابن حفصون سنة ٨٩٠ م [= ٢٧٧ هـ] .

وعلى الرغم من صداقة سعيد لسوار وتغنيه بممدح أفعاله الا أنهما
كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا بينا ، فقد كان سعيد شريف المولد ،
ولى جده القضاء بالبيرة وإدارة الشرطة بقرطبة أيام الحكم الثانى (١٨)
وكان الى جانب ذلك مثالا للفارس العربى حتى لقد نسب اليه معاصروه
الصفات العشر التى ينبغى أن يتحلى بها الرجل الكامل ألا وهى الجود
والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والقوة الجثمانية والطعن
والضرب والرماية ، وكان هو العربى الوحيد الذى يخشى ابن حفصون لقاءه
فى ميدان القتال ، وحدث فى ذات يوم قبل بدء المعركة أن عمد سعيد الى
دعوة ابن حفصون للمبارزة فلم يجزؤ ابن حفصون - رغم شجاعته - على
منازلته .

وحدث فى مرة أخرى أثناء القتال أن وجد سعيد نفسه فجأة وجهها
لوجه أمام ابن حفصون الذى حاول أن يتجنبه ، غير أن سعيدا أحاطه بذراعه
وبطلحه أرضا وكاد أن يقضى عليه لولا أن تكاثرت عليه جماعة ابن حفصون
ولم يمكنوه منه .

وكان سعيد أرق الناس وأظرفهم، كما كان أبسل الفرسان، ولم يكن
هناك من يدانيه فى تقدير الصوت الجميل أو اللحن الرائق .

وحدث فى ذات يوم أن قدم الى قرطبة - وقت سلطنة محمد - ومر
أمام قصر الأمير عبد الله حين صافح سماعه غناء شجى من جارية وهو
يتصاعد من الطابق الاول المطل على الشارع ، أما المغنية فهى « جهان »
الجميلة وكانت اذ ذاك مع مولاهما تصب الخمر له وتغنيه ، فأحس سعيد
بشئ لا يقاوم يجذبه اليها ، فوقف فى أحد الأركان يستمع فى هدوء دون
أن يستلفت انتباه المارة وقد علقت عيناه بالنافذة ، وأصاخ بسمعه ،
واستفرقتة النشوة ، وتحرق شوقا لمطالعة وجه المغنية ، وطال لبثه ووقوفه
حيث هو ، واذا به يلمح فى النهاية يدها البيضاء الصغيرة وهى تناول
الأمير الكأس ولم ير شيئا سوى ذلك ، غير أن هذه اليد البضة الفاتنة
وهذا الصوت الشديد العذوبة القوى البيان كانا كافيين وحدهما لأن يخفق
قلب الشاعر فى قوة وأن يلهبها رأسه .

لكن وا أسفاه .

كان هناك حاجز لا يمكن تخطيه يفصل بينه وبين من يحب ، فلما
فقد الأمل حاول تغيير مجرى عاطفته فدفع مبلغا جسيما من المال ثمننا لأجل

جارية وجدها وسماها « جيهان » ، وعلى الرغم من المحاولات التي قامت بها هذه الفتاة لارضاء فارسها الجليل الا أنها لم تستطع أن تنسيه سميتها، فقال (١٩) :

سمعى أبى أن يكون الروح فى بدنى
فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن
أعطيت « جيهان » روحى عن تذكرها
هذا ولم أرها يوما ولم ترنى
كاننى واسمها والدمع منسكب
من مقلتى : راهب صلى الى وثن

الا ان سعيدا لم يبق طويلا على ذكرى جيهان الجميلة ، ولما كان ماجنا متقلبا لا يضجره التنقل من لذة الى أخرى فلم يكن يقيم منزلة للعواطف الكبيرة ولا يعشق الأحلام الأفلاطونية ، تشهد بذلك أبياته التى لا يذكرها المؤلفون العرب الا مقرونة بقولهم « سامحه الله » :

لا شيء أملح من ساق على عنق ومن مناقلة كاسا على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى طموح فى الصبا طلق وما خرجت لصرف الدهر عن طلقى
ولا انثنييت لداعى الموت يوم وغى كما انثنييت وحبل الحب فى عنقى
وبذلك نسى جيهان حين أسرته فاتنة جديدة فى قرطبة ، اذ ما كادت تدخل مسكنه حتى خفضت ناظرها حياء فانطلق سعيد يقول لها .

أماثلة اللاحاظ عنى الى الأرض أهدا الذى تبدين-ويحك-من بفض؟
فان كان بفضا لست والله أهله ووجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض



كان سعيد بلا شك أبرز مثل للأرستقراطية وان تكن له صفات سوار الخشنة الذى كان موته صدعا لا يمكن رآيه ، كما يرجع الفضل فى تمكن العرب من لم شعثهم تحت قيادة سعيد الى حكمة سوار الذى أعاد تشييد الحصون الرومانية العدة التى أوشكت على الاندراس مثل حصن « منتسة » و « بزة » .

غير أنه على الرغم من أن العرب لم يعودوا لمحاربة السلطان لاعتراؤه بسعيد الا أنه لم يقدر لهم الانتصار بعدئذ على الاسبان ، أما المؤرخون المسلمون فان امساكلهم التام عن الحوض فى حملات سعيد يدفعنا للاعتقاد

بفشلها ، ويحملنا على اليقين بأن « البيرة » خضعت مدة لسلطانه ، فقد
حدث أن دخل المدينة ومثل أمامه « البعلبي » الشاعر الأندلسي وامتدحه
يشعر قاله فيه ، فأكرمه سعيد ، فلما غادر الشاعر مجلسه صاح به أحد
العرب « أتجيزه وقد نسيت قوله » :

قد انقصفت قناتهم وذلوا وضع ركن عزهم الأذل
وسرعان ما أربد وجه سعيد واتقنت عيناه غضبا وقال لأحد أقارب
يحيى بن صقالة : « امض وراءه فارمه في بئر مجهولة » .
وسرعان ما نفذ الأمر (٢٠) .



الفصل الثالث عشر

قلة عدد العرب في اشبيلية أدت الى زيادة نفوذ المحليين .
مولدو اشبيلية يربطون وجودهم بالسلطان ويخشون عرب
ألريف وحدهم . القول في بني حجاج الذين يرجع أصلهم الى
غيطنة ، وبني خلدون اليمنيين . استفحال بأس كريب في
كورة الشرف ومحاولته إثارة الناس وبعض الأمراء المحليين
لصعل اشبيلية عن السلطان . استجابة بعض البربر له .
البربر ينهضون اشبيلية فيثرون مطامع ابن مروان صاحب
بطيوس . ثورة الاشبيليين على واليهم لمجزه عن رد عدوان
ابن مروان . السلطان يعزل والي اشبيلية ويعين الطمشكة
فيقطع الطريق بين اشبيلية وقرطبة . محمد بن غالب يتصلق
للطمشكة . المتلمعون يتهمون ابن غالب بمواطاة ابن حفصون
سرا . ارسال السلطان ولسه محمدا لتقصي الوضع في
اشبيلية . عجز محمد عن الفصل في المنازعات الداخلية .
غضب بني حجاج وبني خلدون من موقف محمد المتردد .
كريب وعبد الله بن حجاج يهاجمان حصون خصومهما . علوج
اشبيلية يغضبون من السلطان لشرائه مودة بني حجاج بقتله
ابن غالب . الثورة تعم الكورة . ابن حفصون يسعى لدى
السلطان ليسلمه جعدا الذي يخاف فيهرب . انتقام أمية من
مولدتي اشبيلية لمصرع اخوته .

المولدون فى اشبيلية

فى الوقت الذى انصرف فيه سكان البيرة لمحاربة الارستقراطية العربية جرت فى اشبيلية أحداث بالغة الخطورة (١) .

لم يكن الحزب القومى قويا فى أية ولاية قوته فى اشبيلية التى كانت منذ أيام القوط مركز العلوم والحضارة الرومانية ومقر أنبل الأمرات وأثراها (٢) ولم يحدث الفتح العربى أى تعديل فى النظام الاجتماعى فلم يستقر فى المدينة الاثلة قليلة من العرب لا يثارهم الريف عليها ، ومن ثم كانت جمهرة السكان من أحفاد الرومان والقوط الذين أثروا عن طريق الزراعة والتجارة ، فكانت هناك سفن عدة تقوم من وراء البحار ميممة شطر اشبيلية التى كانت تعد من أحسن موانئ أسبانيا فتحمل ما تجود به أرضها من القطن والزيتون والتين (٣) ، كما نبذ معظم الاشبيليين المسيحية منذ زمن بعيد وأقاموا لأنفسهم مسجدا جامعاً زمن عبد الرحمن (٤) الثالث ، بيد أن أخلاقهم وعوائدهم وطباعهم بل وأسماء عائلاتهم كانت لا تزال تشير الى أصلهم الأسباني ، ففيهم (٥) بنو « أنجلين » وبنو « شبرقة » .

اتسم هؤلاء الأعلاج على وجه العموم بالهذوء ولم يناصبوا السلطان العداء بل كانوا يعدونه المحافظ الطبيعى على النظام ، بيد أنهم كانوا يخشون العرب ، ولا تقصد بهم عرب المدينة الذين صرفتهم مباهج الحياة والحضارة عن الاكتراث بالنزاع القبلى أو الجنسى بل كانوا يخشون عرب الريف الذين ظلوا محافظين على أخلاقهم البدوية وميولهم الوطنية القديمة التى سيطرت عليهم منذ زمن سحيق ، والذين كانوا على استعداد للوثوب على الأسبان الأثرياء وسلبهم وقتلهم متى مكنتهم الظروف من ذلك ، أو متى طلب اليهم زعمائهم القيام بهذا العمل ، يدفعهم اليه غيرتهم منهم وحقدهم عليهم ، واشتد الخوف من عرب « الغرب » على الخصوص ، وآمن الأسبان بنبوءة قديمة تزعم أن هناك نارا تهب من ناحية كورة « الشرق » فتجتاح

المدينة (٦) ، ومن ثم أعدوا عدتهم على ألا تقع أشبيلية فى قبضة أبناء فتاك الصحراء ، وآلوا ألا يكون نهبها على أيديهم ، وهم الذين ينقسمون الى اثنى عشر فريقا لكل زعيمه ولواؤه ودار سلاحه ، وتحالفوا مع عرب اشبيلية ومع « البتر » من البربر من أهل كورة « مورور » .

كان من بين الأسر العربية البارزة التى تنزل الولاية أسرسان لهما الصدارة على الجميع هما بنو حجاج وبنو خلدون ، وعلى الرغم من عروبة الأسرة الأولى وميولها الا أنها ترجع أصلا الى زوجة « غيطشة » آخر ملوك القوط الذى تزوجت احدى حفيداته - واسمها سارة - مرة ثانية من شخص يدعى « عميرا » من قبيلة لحم اليمينية فأنجبت له أربعة أولاد تفرعت منهم أسر كثيرة من أغناها « بنو حجاج » الذين ترجع ثروتهم الى ما كانت تملكه « سارة » من أراض شاسعة فسيحة فى « شند » . ويشير أحد المؤرخين العرب - وكان هو الآخر من نسل سارة وغيطشة - الى أنه كان لعمير أبناء من نسوة أخريات ، لكن لم يثأت لأحد منهم منافسة أبناء سارة (٧) .



أما الأسرة الثانية فهى أسرة بنى خلدون اليمينية الأصل التى انحدرت من احدى قبائل حضرموت وتقوم أملاكها فى كورة « الشرف » ، وقد احترف أفراد هذين البيتين العظيمين فلاحا الأرض والجندية والتجارة والملاحة ، وجرت عاداتهم على الإقامة فى حصونهم (٨) ، وإن لم يمنعهم ذلك من التردد على المدينة بين حين وآخر حيث تقوم قصورهم .

وفى مستهل حكم عبد الله كان « كريب » - شيخ أسرة بنى خلدون - وهو رجل طماع غدار ، قد جمع فى ذاته كل صفات زعيم الحزب من اخلاصه لتقاليد جنسه وكراهيته للحكم الملكى ورغبته فى أن تسترد طبقته نفوذها الذى سلبه الأمويون منها ، فحاول فى بادى الأمر اضرام الثورة فى المدينة نفسها بأن تحلت مع من بها من العرب محاولا ايقاظ حب الاستقلال فى نفوسهم لكنه لم ينجح فى محاولته هذه لأن هؤلاء العرب الذين كانوا فى الغالب رجال صدق من قريش أو من موالى الأسرة الحاكمة كانوا ملكيين ، أو بمعنى أدق من الفريق الذى لا يزال يسمى الى اليوم بفريق « المستقلين » ، وغاية ما يتطلعون اليه هو أن يعيشوا فى وفاق مع الجميع وألا تضطرب أعمالهم ولا هدوؤهم ، ومن ثم لم يعطفوا قط على كريب الذى لم يؤد ما طبع عليه من روح المخامرة وما يعتمل فى صدره من طمع ومخالفة للنظام الا الى إثارة الكراهية العميقة نحوه والخوف الشديد منه ، فكان اذا حدثهم عن الاستقلال أجابوه بأنهم كارهون للفضى وعدم النظام ، كما أنهم لا يريدون أن يكونوا آلة لتحقيق مطامع الغير ، وأنهم ليسوا فى حاجة لأرائه الفطيرة وأفكاره الخاطئة .

فلما رأى كريب أنه قد أضاع وقته عبثا فى المدينة انكفأ الى كورة «الشرف» حيث تيسر له الأمر فى إثارة أبناء عشيرته فوعده بحمل السلاح عند أول إشارة تبدر منه اليهم ، ومن ثم كون عصابة أشرك فيها بنى حجاج وزعيمين يمينيين وآخر من «ليلة» وغيره من «شدونة» وزعيم بربر البرانس فى قرمونة ، وكان هدف المتحالفين فصل أشبيلية عن السلطان ونهب الأندلسيين .

أما أشراف أشبيلية الذين لم يستطيعوا - نظرا لبعد المسافة - الوقوف على أعمال كريب كما كان ذلك ميسرا وهو بينهم فقد جهلوا كل شيء يتعلق بالمؤامرة التى يدبرها اللهم الا ما كان يتناهى الى سمعهم بين حين وآخر من الأنباء الغامضة ، لكنهم لم يعرفوا على وجه التحديد شيئا مؤكدا ولم يجبل بخاطرهم أبدا أنها مؤامرة شديدة الخطورة .

أراد كريب قبل كل شيء أن ينتقم ممن رفضوا الانصات اليه ، كما أراد أن يسوق اليهم فى الوقت ذاته الدليل على عجز السلطان عن الدفاع عنهم ، فأسر الى بربر «ماردة» و «مدلين» أن ولاية أشبيلية تكاد تكون خالية من الجند ، وأنها ستكون لهم نعم الغنيمة ان أرادوا ذلك ، ولما كانوا على استعداد للسلب فسرعان ما زحفت عليها جموعهم واستولوا على «طليطة» (٩) وخربوها وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها ، وأسروا أطفالها ، فما كان من والى أشبيلية الا أن دعا الى حمل السلاح كل قادر على حمله وخرج لصد البربر ، غير أنه علم أثناء زحفه باستيلائهم على «طليطة» ، فعسكر على نجد مرتفع يعرف بجبل الزيتون ، ولم يكن بينه وبين العدو سوى ثلاثة أميال ، وتأهب الجانبان لمعركة الغد .

كان كريب قد انضم بجماعته - كما انضم غيره من الأشراف - الى جانب الاسبان ثم احتبل فرصة الليل فأخبر البربر بأنه سيسهل عليهم النصر حين يشتجر القتال اذ سوف يركن ومن معه الى الفرار ، وقد أوفى بعهده لهم وتبعه فى هربه كل جيشه .

أما البربر فقد تتبعوا الحاكم الذى لم يتوقف عن الفرار الا حين أدرك قرية «وبر» فتحصن بها وكانت على مسيرة خمسة فراسخ من أشبيلية ولم يبذل البربر أدنى محاولة للتشديد عليه فى هذا المكان بل عادوا الى «طليطة» وأقاموا فيها ثلاثة أيام أضرموا خلالها النار فى جميع النواحي ، وأهرقوا السماء ثم رجعوا الى معسكراتهم محملين بالأسلاب الوفيرة .

أصيب الأشبيليون بعد هذه الغزوة المروعة (التى قضت على عدد كبير من الملاك) بطلمة جديدة يقع وزرها على كريب الخائن ، اذ قام أحد المولدين من تلقاء نفسه بتحقيق مشاريع كريب ، وكان هذا العليج من زعماء الجنس المعادى واسمه «ابن مروان» صاحب بطليوس ، ذلك أن رؤيته

عودة جيرانه الى ماردة محملين بالغنائم الوفيرة دفعه لأن يفكر فى الهجوم هو الآخر للحصول على نصيب من الغنيمة ، ولم يكن فى ذلك مضطرا ، ومن ثم زحف على أشبيلية حتى صار على مسيرة ثلاث مراحل منها ، واستمر ينهب جميع ما حولها بضعة أيام متتاليات ، عاد بعدها الى « بطليوس » وقد هدأت غيخته من بربر « ماردة » .

رأى والى أشبيلية الغزاة الغلاظ يخربون أرضه فلم يحرك ساكنا ، فغضب الأشبيليون من مسلكه هذا ومن السلطان الذى أنصت - والحق يقال - لشكواهم فعزل ذلك الوالى المقصر فى أداء واجبه وخلفه آخر لم يكن ثم ما يعيبه لكن كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لتوطيد النظام فى الولاية والضرب على أيدي اللصوص الذين كثروا بها كثرة مخيفة .



كان أخطر هؤلاء اللصوص بربرى من برانس « قرمونة » اسمه « الطمشكة » عمد الى مهاجمة المسافرين فى الطريق الكبير الواصل بين أشبيلية وقرطبة وسلبهم ما معهم ، ولم يستطع حاكم أشبيلية - بل ولم يجرو - على اتخاذ شيء ما ضده ، واذا ذاك قام مولد شجاع من أهالى « استجة » واسمه محمد بن غالب فوعد السلطان بالقضاء على هذه العصابات ان أذن له السلطان ببناء حصن قرب قرية الأبراج السبعة شانت طرش Siete Torres الواقعة على حدود أشبيلية واستجة ، فقبل السلطان طلبه فشىد الحصن واستقر فيه « ابن غالب » مع عدد كبير من المولدين والموالى الأمويين وبربر البتر ، ولم يلبث قطاع الطرق أن أدركوا أنهم يواجهون عدوا أشد مراسا من حاكم أشبيلية .

ورفرت الطمانينة من جديد .

لكن حدث ذات صباح - والشمس لم تزل فى خدرها - أن ذاع الخبر فى أشبيلية أنه جرى أثناء الليل نزال بين حامية حصن ابن غالب من جانب وبين بنى حجاج وبنى خلدون من جانب آخر ، وأن واحدا من بنى حجاج خر قتيلا فحمل أصدقاؤه جثمانه الى المدينة ومضوا توا الى الحاكم للفصل فى القضية فانبأهم هذا الأخير بأنه لا يستطيع تحمل مسئولية البت فى مثل هذا الأمر وطلب اليهم التحلث الى السلطان ذاته .



وقت أن ذاع بأشبيلية خبر هذه الأحداث كان المتذمرون فى طريقهم الى قرطبة يتبعهم عن قرب بعض المولدين الأشبيليين الذين أخبرهم ابن غالب بما جرى ، فمضوا لتأييده وعلى رأسهم واحد من أبرز رجالات المدينة هو

محمه [بن عمر بن الخطاب بن أنجلين] وكان جده أول من أسلم من أسرته ،
أما « أنجلين » فلقب جده الأكبر ، وبقي اسم « بنو أنجلين » علما على هذا
البيت .

مثل الشاكرون أمام السلطان فأذن لأحدهم بالكلام فتشكى بقوله :

« لقد اغتاله ابن غالب بطريق قرطبة ، وانه لينافق الأمير (١٠)
ويواطىء ابن حفصون سرا ، وان كثرة من تجمع الى ابن غالب هم من أهل
الدعارة ، وهيهات لك أن تأمنه على الكورة ، فهلا أنصفتنا ممن قتلوا ابن عمنا
بلا ذنب جناه ؟ » .

فلما فرغ الرجل من كلامه تقدم محمد بن أنجلين ورفاقه بدورهم الى
السلطان وقالوا له :

« لقد خرج بنو خلدون وبنو حجاج معتصمين بمحمد بن غالب ،
معلمين على طروقه فى حصنه ليلا رجاء انتهاز الفرصة وقص الجماعة التى
حواله » ، فلما قصدوه وجدوه على استعداد وحذر فوقعت بينهم حرب قتل
فيها رجل من قرابة بنى حجاج ، وقلة دافع ابن غالب عن نفسه « فجنت
الحرب على صاحبهم » .

ويبدو أن الشك خالج السلطان فى الأمر ، أو لعله خشى أن يفضب
أحد الفريقين ان هو وقف الى جانب أحدهما ، لذلك أعلن أنه يريد مزيدا
من الايضاح ، وقال انه مرسل ولده محمدا الى أشبيلية للتأكد من
الموضوع .

ما كاد الأمير الشاب ولى العهد يبلغ أشبيلية حتى استقدم اليه
ابن غالب وبنى حجاج واستجوبهما ، لكنه لم يستطع أن يحق الحق لأحد
الجانبين بسبب اصرار كل منهما على اتهام الآخر ، وأعوزه الشهود والعدول ،
وبينما كان هو فى ترددده كانت فورة المشاعر تزداد تأججا وسعيرا ، وانتقل
ما بين الأشراف من الغضب الى العامة ، ثم أعلن الأمير أن الحقيقة لم تنجل
وأنه مرجىء الحكم الى ما بعد ، ولكنه أذن لابن غالب بالعودة فى لحظته الى
حصنه .

اعتقد المولدون بانتصارهم وأذاعوا أن الأمير رأى الحق فى جانبهم
وان لم يجاهر به انكارا على نفسه أن يذهب به الأمر الى مخاصمة العرب ،
وفسر بنو حجاج وبنو خلدون مسلك الأمير على نفس الصورة وراوا أنه قد
أسى اليهم اساءة بالغة ، فصمموا على الانتقام والثورة فغادروا المدينة .

بينما كان كريب يفرق السلاح على أتباعه الحضارمة من أهل كورة
« الغرب » كان عبد الله شيخ بنى حجاج قد جمع تحت رايته لخمى

« شيند » (١١) ومن ثم رسم هذان الزعيمان الخطة التي يسيران عليها واتفقا فيما بينهما على أن يقوم كل منهما من ناحيته بالهجوم ، فيستولى عبد الله على « قرمونة » ، وفي اليوم ذاته يهاجم « كريب » حصن « قورة » الواقع على الحدود الشرقية لكورة « الغرب » بعد أن يكونا قد استوليا على قطمان أحد أعمام السلطان التي ترعى في إحدى الجزيرتين الواقعتين عند منبع الوادي الكبير .

كان كريب أعظم من أن يقوم بنفسه بتنفيذ مثل هذه الخطة فوكلها إلى ابن عمه المهدي العرييد الذي لطخت مبادئه أشبيلية (١٢) ، فتوجه أولا إلى حصن نبريشة LIBRIYA المواجه للجزيرة حيث كان في انتظاره سليمان صاحب الحصن وحليف كريب ، ثم نزل بالجزيرة فوجد في المرعى مائتي ثور ومائة حصان يحرسها كلها رجل واحد ، فقتله المغيرون العرب واستولوا على الماشية والحياد وأخذوها إلى قورة CORIA حيث احتلوا حصنها واطمأنوا على أسلابهم إذ وضعوها فيه .

أما عبد الله بن حجاج الذي كان يساعده بربر برانس جنيد فقد باغت « قرمونة » واستولى عليها واضطر واليها للفرار إلى أشبيلية .



كان من أثر شدة العرب والسرعة التي اتسم بها تنفيذ خطتهم أن دب الذعر في المدينة ، كما بادر الأمير محمد فبعث إلى والده يسأله أن يمدّه بتعليماته وأن يوافيه على وجه الخصوص بالامهاتات ، فلما تسلم السلطان كتاب ولده جمع حجاب ، واختلفت الآراء حول الخطة التي يسلكونها ، واذ ذاك طلب أحد الوزراء من السلطان أن يأذن له بمحادثته على انفراد ، فلما خلا به أشار عليه بمهادنة العرب وذلك بأن يقتل ابن غالب ، وحبب إليه ذلك الجرم بقوله : « إذا قتلت هذا العليج استألفت العرب وانصرفوا إلى الطاعة ، وضمنت خروجهم عن قرمونة وقورة ، وصرفوا لعك المنذر ما أخذوه منه » .

كانت التضحية بخادم مخلص من أجل العرب والاشتباك مع الأعلاج دون الوثوق من استمالة الأعداء سياسة غادرة خرقاء ، ومع ذلك فقد رأى السلطان ضرورة الأخذ بما أشار به عليه ، وأمر مولاه جعدا - الذي رد سوار عليه حرّيته - أن يزحف بجنده على قرمونة وقال له : « قيد محمد بن غالب واستألف عصاة العرب جهديك ، وأنهم عن المعصية ، فان فاموا إلى الطاعة والا فقاتلهم » .

زحف جعد على قرمونة ، وعلى الرغم مما أحيط به سيره من الكتمان الا أن الشائعة ترامت بأن الحملة تقصد ابن غالب وليس بنى خلدون ، فاتخذ العليج [ابن غالب] الحيلة وجنح الى ابن حفصون يلتمس حمايته ، واذا ذاك تلقى رسالة من جعد يقول له فيها : « انما خرجت لغير ما بلغك ، وان قصدى حرب العرب لعظم ما أتوه ، وانك عندى من أكبر أعوانى عليهم فاستعد للمسير معى » .

وجازت الحيلة على ابن غالب ، وخدعه هذا الكتاب الخائن ، حتى اذا قارب جعد الحصن انضم اليه ابن غالب ببعض عسكره ، فتظاهر جعد بالهوى لمحاصرة قرمونة حتى اذا بلغها بعث سرا الى زعيم بنى حجاج بكتاب آخر يقضى اليه بالنية المبينة لقتل ابن غالب لقاء عودة ابن حجاج الى السلطان ، وتم الاتفاق ، وقتل جعد ابن غالب وأخلى ابن حجاج مدينة « قرمونة » .

لما علم علوج أشبيلية بالخيانة الدنيئة التى راح ضحيتها حليفهم كسحوا للسلطان بالعداوة وتلفعوا على حقن ، وتشاوروا فيما بينهم عما يصنعون ، فاقترح أحدهم أن يثاروا لابن غالب بقتل « أمية » أخى جعد وكان أعظم محاربه هذا العصر وكان حاكم أشبيلية اذ ذاك ، وانعقدت النية منهم على ذلك الرأى .

لكنهم لما كانوا عاجزين عن القيام بأى عمل قبل الاستيلاء على المدينة فقد تكفل « ابن انجلين » بالذهاب الى الأمير وسؤاله أن يكل أمر الدفاع عنها الى المولدين ، وصمم الأشراف أن يبعثوا الرسل الى حلفائهم وإلى عرب كورة أشبيلية المعدين وإلى بربر « مورور » وأن يطلبوا منهم النهوض لمساعدتهم .

بينما كان هؤلاء الرسل فى الطريق مضى ابن انجلين فى رفقة من صحابه الى الأمير محمد وقال له : « انا لا نأمن أن يكون قد عقد علينا عند الأمير أمر لا نعرفه ، ولطخنا بذنب نحن براء منه فيفجؤنا هذا الظلوم جعد وعسكره بما لا قبل لنا به ويخرج الأمر عن يدك ، فاستبقنا وطيب نفوسنا بأن تجعل حرس المدينة الينا ، ومقاتيحها بأيدينا حتى تظهر لنا ولك الأمور فنعمل بحسبها !! » .

ولما كان محمد فى نضال مع العرب ، وليس تحت امرته سوى حامية ضئيلة فقد أذعن مكرها لما طلبه المولدون منه .

امتلك المولدون المدينة فتنظروا مقدم المعدين والبربر والبتر من أهل كورة « مورور » الذين بلغوا أشبيلية (١٣) صباح الثلاثاء التاسع من سبتمبر ٨٨٩ م [= ٢ جمادى الآخرة سنة ٢٧٦] واذا ذاك هاجم جمهور غفير منهم قصر أمية ، فأسقط فى يد الحاكم ، حتى انه لم يجد وقتا للبس

نعله ، بل امتطى جواده وانطلق الى قصر الأمير ، فلما فشل الثوار فى العثور عليه دمروا قصره ، ثم اتجهوا شطر قصر الأمير وأحرقوا به وهم يصرخون غاضبين ، وأخذ عددهم يزداد ساعة بعد أخرى بس انضاف اليهم من التجار والصناع والعمال ، فلما أسقط فى يد الأمير بعث الرسل على جناح السرعة الى ابن « انجلين » وابن « شبرقة » وغيرهما من أعيان القوم يلتبس منهم القوم للمشاورة فى أنجع السبل لاختاد النائرة .

كان هؤلاء الأشراف حتى هذه اللحظة واقفين بمعزل عن كل شيء ، فتشاوروا فيما بينهم عما يصنعون ، وتخرج موقفهم ، وخافوا - ان هم لبوا دعوة الأمير - أن يقعوا فى مكيدة تكون قد دبرت لهم ، كما خافوا ان هم رفضوها أن يتهموا بمواطاة الثوار وذلك أخشى ما يخشونه ، فقلبوا الأوضاع على شتى وجوها ، ثم استقر رأيهم على المضى الى الأمير بعد اتخاذ الحيلة ، فلبسوا الدروع تحت الثياب ووضعوا - قبل دخولهم القصر - جماعة من الأشبيليين المسلمين وجند « مورو » خلف الباب وقالوا لهم « متى أذن الظهر ولم نخرج اليكم اهجموا فى القصر وأخرجونا » . ثم مضوا للقاء الأمير الذى أكرم وفادتهم ، وبينما هم يتحدثون اليه عيل صبر رجالهم الذين بالباب واحتك الشك فى صدورهم ، ففتحوا الباب قسرا وانطلقوا أولا الى مرابط الجياد فاستولوا على ما فيها من الخيول والبغال ، ثم مضوا الى باب « الفصيل » الموجود فى الطرف الآخر من البهو تجساه المدخل ، وهنا وجدوا مقاومة عنيفة لم يكونوا يتوقعونها مطلقا ، فقد كان هناك « أمية » .

حين سمع هذا البطل المقدام صياح الثوار فى مرابط الخيل أمسك بابن انجلين ورفاقه ثم وضع خدمه الخاص وخدم الأمير على مدخل باب « الفصيل » ورتب أكواما من القذائف ، فلما اقترب العلوج وحلفاؤهم من هذا الباب تلقاهم القوم بالأحجار والأثاث يقذفونهم بها ، وعلى الرغم من كثرة عدد الرماة الا أن خصومهم كانوا فى مكان منيح ، وتحمس المدافعون عن القصر اذ رأوا أمية ، فقد أثارهم منظره وعنايته بالأمر رغم جروح رأسه وصدره الدامية ، وصمموا أن يبيعوا حياتهم غالية ، وكان اليأس قد أمدهم بقوة فوق طاقتهم .

استمر القتال من الظهر حتى انحدرت الشمس للغروب وأقبل الليل فعرس المتقاتلون فى البهو ثم عاودوا النزال فى الصباح .
لكن ما الذى فعله الملكيون محبوبو النظام الذين كان واجبهم يقتضيه
أن يهبوا لنجدة الحاكم ؟

لقد كانوا مخلصين لشعارهم « كل وشأنه » ، وأذعنوا للأمر الذى لا مناص لهم منه والذى يفرض على المستضعفين فرضا ، فبقوا حيث هم وأغلقوا بيوتهم عليهم ، وتركوا معالجة الموقف للحاكم يتصرف فيه بما يراه ، وليس من شك فى أنهم كانوا يتمنون له الخير وأن قلوبهم كانت معه ، الا أنهم لم يبلغوا بعد الدرجة التى يخاطرون فيها بحياتهم لاتقاذه ، ومع ذلك فقد قاموا بشئ من العمل ، اذ ما كادت الفتنة تندلع حتى أنفذوا الى « جعد » من يخبره بالخطر المحلق بأخيه وبالأمر ، والواقع أن هذا العمل لم يشق عليهم كثيرا ، وأدركوا أنه لابد من نجاح جعد فى القضاء على الثورة لو أنه بكر فى الوصول .

لم يكد جعد يعلم بما جرى فى أشبيلية حتى خف للزحف عليها بمن استطاع جمعه من الفرسان وفى صباح ١٠ سبتمبر ٨٨٩ م [= ١٢ جمادى الآخر سنة ٢٧٦ هـ] عاد القتال من جديد فى بهو القصر ، ثم أهل جعد من ناحية الجنوب فحاولت جماعة من المولدين أن تسد عليه الطريق فمر على جثثهم ، ودخل الربض الذى يسكنه « عبد الله بن الأشعث » القرشى الملكى الذى قص عليه فى ايجاز سير الأمور ، فصاح القائد بجنده أن يسرعوا ، ثم كر على الجماعة والسيف فى يده ، فثبت له الأشبيليون ونفق حصانه من تحته ، وتقهقر فرسانه ، فحاول ارجاعهم للقتال ونادى كلا منهم باسمه ، وسألهم الثبات ، فعاود أشجعهم ممن معه الكرة ، وآثروا مهاجمة الزعماء ورعى القائد نفسه على واحد من أبسل الأشبيليين فقتله (١٤) ، وحينذاك دبّت الفوضى فى صفوفهم ، فتقهقر البعض ، وتعرّى الآخرون ، وتدافع بعضهم بالمناكب ، ومن ثم خاف الفرسان كرههم ولم يلبث الأشبيليون أن تفرقوا أيدي سببا .

استبدت الفرحة بجعد فانطلق الى القصر وضم أخاه الى صدره ، وقبل فى احترام يد الأمير ، وحمد لله على سلامته ، فقال له أخوه : « لقد كنت بأخر رمق ، لا نشك فى حلول الحمام ! » .

فقال الأمير محمد « أجل ، والله ما كنا نشك فى حلول الحمام ، امض فانتهب دور العصاة بالحاضرة وأخرج الحبث محمد بن خطاب وأصحابه من حبس أمية فاضرب رقابهم أجمعين ، وحز أموالهم » .



بينما كان هؤلاء التمساء فى طريقهم الى الموت كانت أشبيلية تشاهد منظرا مروعا اذ أت فرسان جعد الظالمين الى الانتقام والطامعين فى الفنيمة أخذوا يفتكون بالهاربين وينهبون دورهم ، وشاء حسن طالع المولدين أن يكون بينهم وبين موالى أشبيلية الأمويين ما يسمونه بحلف الجوار ، فطلب

هؤلاء الموالى من أبناء جلدتهم مساعدتهم على كف الأيدي عنهم فأجابوهم الى ما طلبوا ، ثم لم يلبث السلطان ذاته أن أصدر أمانا عاما ، ولكن ذلك لم يكن فى الحقيقة الا تأهبا لقتالهم ، وأدرك المولدون أن نهايتهم قد دنت .



عندما عاد الأمير محمد الى قرطبة مع جعد وجنده جاءت رسل ابن حفصون لذى ظل حتى هذه اللحظة مسالما للسلطان يسألونه أن يسلمهم جعدا لقتله ابن غالب حليف سيدهم .

خُفّاف السلطان أشد الخوف من بأس ابن حفصون الخطير ، حتى ان جعدا - الذى لم يفعل غير تنفيذ أوامر مولاه - لم يامن أن يضحي به سيده من أجل خاطر كبير العلوج ، فلم يجد سوى الهرب سبيلا لدفع الخطر المحدق به ، ومن ثم غادر العاصمة متسرعا بالليل ولاذ بأخيه حاكم أشبيلية واستصحب معه أخويه هاشما وعبد الغافر وبعض الأصدقاء ، وكان من بينهم اثنان من القرشيين ، وكذلك أخذ معه خدمه وعبيده ، وصاقب الشاطئ الى البحر الوادى الكبير هو وفرسانه ، حتى اذا كان الصباح لباكر صاروا على مقربة من حصن شنت فيلة Sieta Filla فطلبوا الاذن لهم بالتريت قليلا للاستجمام ، فأجبوا الى ما سألوا .

غير ان سو طالعههم أبى الا أن تكون عصابة « الطمشكة » البربرى تجول فى هذه النواحي فى تلك الساعة وفيها أخوه ابن غالب ، فلاحظوا قدوم الفرسان الى الحصن وعرفوا جعدا فاضطربت نفوسهم للشار منه لمقتل أخيه ، فسهلوا على زعيمهم أمر الاستيلاء على المطايا التى خلفها الفرسان خارج الحصن ، وسرعان ما كر رجال الطمشكة واستولوا على الجياد ، وانتبه جعد ورفاقه على صرخات الخدم فهبوا والسيوف فى أيديهم فلم يستطيعوا زحزحة رجال العصابة الذين استبسلاوا فى القتال ، ومكنتهم كثرتهم من قتل جعد وأخويه وواحد من القرشيين الذين كانوا بصحبته .

كان لهذا الحادث عواقب وخيمة على مولدى أشبيلية ، اذ صلب عليهم أمية جام غضبه انتقاما لمصرع اخوته الثلاثة بعد أن عجز عن معاقبة المجرمين الحقيقين ، فأسلمهم اذ ذاك الى بنى خلدون وبنى حجاج الذين استنصاهم الى المدينة ، وأباح لهم قتل الأسبان - مسلمين كانوا أم نصارى - أنى تفقوهم ، وسواء أكانوا فى أشبيلية أم فى قرمونة أم فى غيرها من القرى والضواحي ، وحينذاك جرت مذبحة شنيعة فقد دفع الغضب اليميني الى قتل آلاف من الأسبان ، وفاضت الشوارع بأنهار من الدماء المثلولة ، وطوت أمواج الوادى الكبير من ألقي بنفسه فيها هربا من السيف ، ولم يبق على قيد الحياة - بعد هذه النكبة الفظيعة - سوى شرذمة قليلين من الأسبان : أصبحوا ملقين بعد أن كانوا القمة فى الثراء .

وبقيت ذكرى هذه الحادثة الدموية أمدا طويلا ماثلة في أذهان
اليمنيين ، كما بقيت في نفوسهم الضعينة على أعدائهم رغم زوالهم بالقتل ،
وكان المنشدون في بيوت السادة أو في قرى كورة « الغرب » أو « شند »
يجعلون مدار أناشيدهم هذه المأساة القائمة الألوان التي نرونها ، وكانت
عيون اليمنيين تتقدح حفيظة وحقدا ، ولا يملون سماع مثل هذه الأبيات :

أبدنا بالسيوف بنى العبيد	فراحوا هامدين على الصعيد
قتلنا منهمو عشرين ألفا	فقللنا الكثير من العديد
سوى من مات [مقتولا] وغرقى	بنهر زاخر الأمواج ، مودى
بنو قحطان للأذواء تنمى	وينمى العبد منهم للعبيد
كلاب في ثياب الروم رامت	تغاور في العرين حصى الأسود
فراش الناس وانتعشوا ، وحلوا	وقودا في الجحيم على ثمود

الفصل الرابع عشر

الآثار السلبية المترتبة على نكبة مولى اشبيلية • مهاجمة
اليمنيين للقصر • تآزم موقف امية ومصرعه • اطماع كل من
العرب والبربر والنصارى والمولدين فى البلد • وقوع بعض
القلاع الهامة فى ايدى المتمردين • مهادنة الأمير عبد الله
لابن حفصون • ابن حفصون يخدع السلطان فى محاربته
ابن مستنة • ويجاهره بالعناء • تحول النصارى من الاستشهاد
الى المقاومة • موقف الكونت « شربند » ثم مصرعه • استيلاء
ابن حفصون على بعض القلاع الهامة ومفاوضته ابن الأغلب والى
افريقيا ليكون رسوله عند الخليفة العباسى • ضعف السلطان •
واعترامه الخروج لمحاربة ابن حفصون •

ولاية عبد الله الحكم

لم تجد السلطان نفعا نكبة أعلاج أشبيلية بل عادت بالكسب على الأرستقراطية العربية، فقد سيطر على الولاية بنو خلدون وبنو حجاج ، وكان الحزب الملكي أضعف وأجبن من أن ينازعهم النفوذ ، بل انه لم يحاول ذلك أبدا ، وكان أمية وحده هو الذى نهض بتلك المحاولة فبذل كل جهوده لبذر الفتنة بين بربر « جنيد » وبين عبد الله بن حجاج اللذين تقاسما « قرمونة » فيما بينهما ، كذلك حاول أمية أن يفسد ما بين « كريب » وجماعته وأن يستميله الى حانبه بالمهود المغربية يبدلها له ويمنيه بها ، كما اتخذ نفس الاجراءات للتخلص مرة واحدة من «ولئك اليسنيين الخصوم ، لكن لم يكتب له النجاح فى شىء ما مما تقدم عليه ، ومع أنه دفع « جنيدا » لقتل عبد الله الا أن ذلك عاد عليه بالضرر أكثر مما عاد عليه بالنفع ، فقد قدم بنو حجاج عليهم ابراهيم [بن حجاج] بعد موت أخيه عبد الله ، وكان ابراهيم رجلا موهوبا تشاؤ هيبته هيبة [شقيقه] عبد الله ، وعلى الرغم من تظاهر كريب بسماع مقترحات أمية التى عرضها عليه الا أنه كان أدهى من أن يخدع ، وبذلك حبط مشروع أمية الكبير الذى دبره للقضاء عن اليمنية ، وقد دفعته الرغبة فى تنفيذ تلك الحطة لبناء سور أحاط بالناحية الموجود بها القصر والجامع ، وأعلن قصر هذه البقعة على الحماية وحدها لا يشاركها فى الإقامة سواها ، ومن ثم أدرك العرب أنهم ملاقون القتل عما قريب وهم داخلون المسجد أو صادرون عنه ، وسيكون مقتلهم على يد شرطة الحاكم فاحتاطوا للأمر قبل أن يعد أمية له عدته ، اذ استعانوا بالقوة فى منع الفعلة من اتمام ما يقومون به من البناء ، فامسك أمية بالشاغبين وأخذ منهم الرهائن ليجبرهم - هم وجماعتهم - على الخضوع له ، فلم يقنه ذلك كثيرا .

ولما أدرك المنمنون أن خوفه من ترمد القوم عليه وعلى أسرته سمعته من أن يمس رهائنه بأذى فقد اغتنموا فرصة خروج معظم الجند للبحث

عن المثونة وهاجموا القصر ، فبادر أمية الى اعتلاء السطح مع الجند القلائل الذين طلبوا ملازمين له وراح يقذف المهاجمين جاعلا الرهائن فى المقدمة ومهددا بقتلهم ، فسخر الثوار منه ذاكرين له أن لهم حقا غير منكور فى الا يكونوا فى مؤخرة الركب بعد أن طرحت جميع الولايات عنها نير السلطان وقالوا له : « ان مذهبنا ملك بلدنا على السلطان على ما فعله سوانا من أهل الكور ، فاذا صح له ارتجاع كورة واحدة ممن خرج عنه كنا نحن أسنوة الناس » ، وأفهموه أيضا أن ليس أمامه سوى سبيل واحد ألا وهو الرحيل . فان ارتضاه كفوا عنه أذاهم .

ورغم كبرياء أمية وعناده الا أنه طاطا أمام هذه الظروف وقطع العهد على نفسه للثوار بمغادرة المدينة ان هم أقسموا بالمحافظة على حياته ، وحينذاك اعتلى كريب وابراهيم وثلاثة من الزعماء عتبة الباب الشرقى للجامع ، وأقسم كل منهم خمسين (١) مرة ألا يمس أمية بسوء قط ، وأن يوصلوه سليما الى حيث شاء ، فلما فرغوا من ذلك رد أمية عليهم رهائنهم ، وكان - وهو فى مكانه هذا - يسمعهم ويраهم ، لكنه لم يعجل بالرحيل فقد خجل أن يتهم بالضعف ، حتى اذا ظن أن الخطر قد زال حاول استرداد سلطته ، فلم يلبث العرب أن عاودوا النضال ، وأخطأ أمية خطأ قاتلا حين أبى أن يتنازل مرة أخرى فنقل نساءه وعقر جياده وأحرق كل ثمين فى حوزته وكر على أعدائه واستبسل فى قتالهم حتى خر صريعا .



اشتهه ساعد اليمنيين منذ ذلك الوقت ، غير أنهم كانوا يعرفون أنه لم تكن بعد لحظة التحرير التام من سيطرة السلطان الذى كتبوا اليه يخبرونه بقتل أمية لتمرده على الحكومة ولما كان السلطان عاجزا عن معاقبتهم فقد قبل زعمهم العجيب وبعث اليهم حاكما آخر أصبح العوبة فى ينى كريب وابراهيم ، وعلى الرغم من استسلام الحاكم الجديد لهذين البطاغيتين وتوجيههما اياه كيفما شاءا الا أنهما دأبا على مضايقته والجور عليه بشتى الوسائل ، فقترا عليه حتى فى آتفه النفقات ، وحينذاك ظن السلطان أن ربما كان من الخير تغيير هذا الحاكم بآخر ، كما أرسل فى الوقت ذاته عمه هشاما الى أشبيلية دون جيش يعاونه ، فبقيت قوة اليمنيين على ما هى عليه من البطش والباس ، وتبين ذلك بجلاء لكل من الحاكم وهشام الذى كان له ابن اسمه « المطرف » وكان شابا فاسقا عريضا اتصل باحدى نساء المهدي الذى ترصد له ليلا - حين علم بالامر - وطعنه بخنجره طعنة أردته صريعا ، فلما علم هشام بالخبر تريت حتى طلع الفجر فذهب الى حيث سجن ابنه اذ خشى أن يلقي هو نفس ما لقيه ولله ان خرج تحت جناح الظلام ، وكان لابه من معاقبة القاتل ، ثم لم يلبث أن وقعت فى يد بنى

خلدون رسالة كان الحاكم قد بعث بها الى السلطان يستعديه للانتقام
لمصرع الطرف ووضع حد لهذه الفوضى ، فأطلعوا الحاكم عليها وأوسعوه
تأنيبا وتهديدا ، ثم زادوا فألقوه فى الحبس بضعة أيام (٢) .



على هذه الصورة كانت حال أشبيلية عام ٨٩١ م [= ٢٧٨ م]
وهى السنة الرابعة من ولاية عبد الله التى تحرر فيها معظم أسبانيا
الاسلامية من الخضوع للسلطان ، وتطلىح كل أمير من العرب والبربر
والأسبان الى نيل نصيبه فى تركة الأمويين ، وكان نصيب العرب منها أقل
الأنصبة عامة لانعدام شوكتهم الا فى أشبيلية ، أما فيما عداها من النواحي
فكانوا أضعف من محاولة الجنسين الآخرين ومطاولتهما ، وكان فيهم كثيرون
أمثال [اسحق بن ابراهيم] بن العطاف (٣) [العقيل] صاحب « منتسة »
و [المنذر بن ابراهيم بن محمد] بن السليم (٤) صاحب مدينة سالم فى
كورة شنرونة ، وابن الوضاح صاحب « لورقة » ، و [أبى يحيى محمد
ابن عبد الرحمن التجيبى] الأتقر (٥) حاكم سرقسطة ، وكان هؤلاء جميعا
لا يستجيبون لتنفيذ أوامر السلطة الحاكمة الا اذا شئوا ، ومع ذلك فانهم
لم يجاهروها بالعداوة بل حاولوا - جهد طاقتهم - مسايلتها شعورا منهم
بضعفهم ازاءها .

أما البربر الذين عادوا الى حكومتهم الأولية - نى الى تسويد زعماء
القبيلة - فقد كانوا أشد القوم بأسا وأعنفهم شراسة ، فاستولى
« الملاحى » (٦) - وكان جنديا بسيطا على قلعة جيان ، كما استولى الأخوان
خليل وسعيد [أبنا المهلب] - وكانا من أسرة عريقة المحدث - على حصنين
فى مقاطعة « البيرة » (٧) . كما كان للبربر السيادة التامة فى الولايتين
اللتين لا تزالان تسميان الى اليوم « استراما دورا » و « الجنتو » .

وحكم بنو « فرانسق » فى قبيلة « نفزة » المقيمة فى ضواحي
« ترجيلة » (٨) ، كذلك قام بربرى آخر اسمه « ابن تاكيت المصمودى » فى
« استامادورا » وأعلن العصيان بها أيام محمد ، ثم استولى على ماردة وطرد
منها كلا من العرب وبربر كتامة .

كان « ابن تاكيت » هذا فى حرب متصلة ضد ابن مروان صاحب
بطليوس الذى لم يفر له ما قلعه من مساعدة لجند السلطان ضده حين
محاصرته (٩) « ماردة » ، غير أن أقوى العائلات بين البربر كانت أسرة
« بنى ذى النون » وكبيرها موسى ، وهو رجل نهاب مرذول ، وفتاك كبير ،
جم النشاط ، دائم الحركة والعمل ، وكان يحكم السيف أينما حل ويهرق
الدماء ، وقد نشأ أبناؤه الثلاثة على غرارهِ : ضخامة جثة ، وقسوة طبع

وهم : يحيى الذى كان أشبه بنى جنسه غدرا وفظاظة ، « وفتح » : صاحب « اقليج » و « الطرف » صاحب هويده Huete وان يكن دون أخويه غدرا ، وكان لكل من هؤلاء الاخوة الثلاثة عصابة التى يخرج بها للسلب والنهب .

ومع أن المولدين كانوا أقوى من البربر الا أنهم كانوا أنسى منهم قلبا وأرحم كلبا ، فاهتم كثير من زعمائهم بسيادة النظام ورعاية الحضارة مع ما طبعت به حضارتهم بالطابع العربي الخالص وشهد لهم غزاتهم بالتفوق الذهني ، وكان « بكر » - حفيده « زاد لغو » النصراني (١٠) - حاكما على على ولاية « أكشونبة » (١١) المعروفة اليوم باسم الغرب والواقعة فى أقصى جنوب مملكة البرتغال ، وقد أعلن أبوه « يحيى » استقلاله فى أخريات أيام محمد قتملك أولا « شنت مرية » ، ثم ضم اليه بعدئذ جميع الولاية .

أما بكر بن يحيى المقيم فى « شلب » فلم يترك مظهرا من مظاهر الملكية الا أحاط به نفسه فاتخذ مجلس المشورة واصطنع الحجاب واستكثر من الجند المسلحين الذين ألغوا النظام .

وأعجب الناس بتحسينات « شنت مرية » وبأبوابها الحديدية الفخمة وبكنيستها الرائعة (١٢) التى لم تكن تدانيها فى شهرتها غير كنيسة « كوربو » التى كانت محجا ذائع الصيت (١٣) ، ولم يفكر « بكر » فى نهب المسافرين والتجار بل طلب من رعيته حمايتهم وقراهم فلبوا وأمره عن رضى حتى لقد كان الناس يقولون : « ان السالك فى أكشونبة كالسالك بين أهله وأقاربه » (١٤) وكان بكر يميل للمودعة ويجنح للسلم رغم اشتداد ساعده نتيجة محالفته لابن حفصون وابن مروان صاحب بطليوس وغيرهما من زعماء بنى جلدته ، ومن ثم عرض عليه السلطان أن يستعمله على الولاية فقبل عرضه طالما أن ذلك لا يقيد به شيء ما ، وكان جاره وحليفه فى الشمال هو عبد الملك بن أبى الجواد الذى كان يعد « باجة » و « مارتلة » من مدنه الرئيسية (١٥) .

أما فى الشرق حيث جبال « بريجو » فكان الحكم لابن مستنة (١٦) الشجاع : أنشط حلفاء بنى حفصون ، وكانت حصونه الجمدة التى من بينها « كركبولة » المعروفة اليوم باسم Carabwey أمتنع من عقاب الجو ، كما كان جميع سادة ولاية « جيان » ما بين حلفاء لابن حفصون أو تابعين له ، وهؤلاء السادة هم : « خير بن شاكر » صاحب حصن « شوذر » ، وهو الذى حارب قبل ذلك بفترة قصيرة سوارا زعيم عرب « البيرة » واغتصب منه كثيرا من القلاع (١٧) ، ثم « سماعيل بن هذيل » صاحب حصن (١٨)

« المتتلون » والاخوة الهابليون (١٩) الأربعة الذين كان لهم كثير من القلاع من بينها « مرجريت » و « شنت اشتيبان » .

وأخيرا « ابن الشالية » (٢٠) الذى كان له من الحصون حصنا ابن عمرو و « كازلونا » ، وكان هذا السيد الأخير البالغ الثراء مسرفا فى وصل الشعراء ، يحيى حياة الترف حتى ليقول كاتبه الشاعر أبو القاسم عبيد يس بن محمود (٢١) الذى غادر بلاط السلطان ليكون فى حاشية هذا السيد :

قصر الأمير أبى مروان منتسخ . من جنة الخلد ، بالسراء معمور فيه مجالس قد شيدت بلا عمد بنيانها مرمر ، بالتبر مطرور وهناك زعيم آخر هو « ديسم ابن اسحق » صاحب مرسية ولورقة وجل ولاية تلمير ، وكان محبا للشعر ، وكان تحت امرته جيش قوامه خمسة آلاف فارس (٢٢) ، وقد أحبته رعيته لكرمه ولين جانبه (٢٣) .



غير أن أخطر أعداء السلطان عبد الرحمن على الدوام كان ابن حفصون الذى استفاد كثيرا فى العامين الأخيرين ، ومع أن السلطان خرج فى ربيع ٨٨٩ م [= محرم ٢٧٦ هـ] لمهاجمته فى « بوبشترو » ، وعلى الرغم من أنه استولى فى طريقه على بضعة قرى وخرّب كثيرا من حقول القمح إلا أن تلك الغزوة الحربية التى استمرت أربعين يوما لم تسفر عن نتيجة حاسمة ، إذ ما كاد السلطان يعود الى قرطبة حتى استولى ابن حفصون على « اشتبيط » و « أشونة » فبادر اذ ذاك سكان استجة الى الاعتراف به سلطانا عليهم بأن سألوه أن يدخل هو وجنده بلدهم ، وقال الناس فى قرطبة (٢٤) : « ان استجة بلد مضطرب قد هجره الأبرار وحل محلهم الأشرار » .

خاف السلطان من السرعة التى اتسم بها نجاح خصمه [عمر ابن حفصون] فيسير لقتاله كل من استطاع جمعهم من العسكر ، فلما رضى ابن حفصون بما اكتسبه شعر بضرورة التريث فعرض على السلطان المهادنة ، وقطع على نفسه العهد أن يجنح الى السلم ، على أن يولى عبد الرحمن حكومة البلاد التى امتلكها ، فقر السلطان عينا وطاب نفسا بهذا العرض وأجابه الى ما طلب (٢٥) .

غير أن ابن حفصون كان يفهم المهادنة بمعنى غير المعنى الذى يفهمها به عبد الرحمن إذ لم يكده يبرم الصلح حتى قسام بمهاجمة أخلص أتباع السلطان ونعنى به « أبا حرب » من بربر برانس وكان مقيما فى قلعة من قلاع كورة الجزيرة ، ولقى أبو حرب حتفه فى المعركة واستسلم جنده وسلموا قلعتهم للعلاج (٢٦) .

حينذاك تلاشت ثقة السلطان عبده الرحمن في عهود ابن حفصون السلمية على الرغم من أن أشد أتباعه حمية كانوا يأخذون عليه ما يسمونه بالتراخي في العمل والضعف ، وهما خلتان لم تكونا فيه ولا فيهم ، لذلك قام أحدهم وهو ابن « مستنة » وكره التقاعد وآثر عليه مخالفة جيرانه العرب المتحصنين في قلعة يحصب (٢٧) Alcalá Lareal وساهم معهم في غزواتهم التي شتوها لسلب الجماعات الوادعة التي طلبت النجدة من السلطان الذي اهتم بالأمر غاية الاهتمام لعدم استطاعته ترك رعاياه المخلصين يلاقون مصرعهم ، إلا أنه كان ينقصه العدد الوافر من الجند اللازم لبيعته اليهم ، ومن ثم اضطر لأن يكتب لابن حفصون يسأله أن ينضم برجاله الى العسكر السلطاني الزاحف لمحاربة ابن مستنة وحلفائه العرب .

وجرى ابن حفصون على سياسته الخاصة به فنظر بعين القلق الى التحالف الموشك على الانعقاد بين ابن مستنة وبين أعداء جنسه ، لذلك بادر الى استجابة مطلب السلطان في سرعة لم تكن متوقعة ، إلا أنه حينما انضم الى قوات (٢٨) القائد الأموي « ابراهيم بن خيمر » بعث برسالة سرية الى ابن مستنة يأخذ فيها عليه « مخالفته العرب ، ويثبته على الخلاف ، ويثنيه عما شرع فيه من موالاتهم ، ويوصيه بالثبات على دعوته المولدية ويضمن له تخفيف وطأة الجيش (٢٩) الذي هو فيه عنه » .

لم يكن ابن حفصون مبالغا فيما قال نظرا لسيطرته البالغة على الجيش حتى لقد تضائل الى جانبه القائد الأموي ، وأخذ يعامل جند السلطان كيفما شاء وأراد ، فتذرع بالحجج المختلفة لتقييد الرجال وأخذ الأموال وترحيل فرسان العرب ، فيحمل رجاله على خيولهم فإن « اعترض عليه ابراهيم ابن خيمر موه له العذر وحسن له الرد » .

وأوفى ابن حفصون بما وعد به ابن مستنة فلم يكن سيره عبر البلاد المحاربة سوى مظاهرة حربية ، غير أنه استغل هذه الفرصة للتفاهم مع جميع الأسبان الذين لقيهم في طريقه وللاتفاق معهم على مساعدة أهل البيرة الذين هزمهم « سوار » في وقعة « المدينة » ، ومع أنه لم يصادف في تلك الحملة ما كان يؤمله من النجاح إلا أن اليأس لم يداخله أبدا بل تشجع بما عقد من محالفات ، ولعله أدرك أن أنصاره قد عيل صبرهم من تسوياته ومسلكه الغامض ، ورأى أن اللحظة قد حانت لحلح القناع الذي يتستر به فحبس ابراهيم بن خيمر وجماعة من ضباط الجيش الأموي ، ثم جاهر السلطان بعدائه (٣٠) .



لم يكده ابن حفصون يذيع هذا القرار حتى وجد نعم الحليف في نصارى قرطبة ، فقد مضى العهد الذى كانوا يرون فيه الاستشهاد هو السبيل الوحيد لظهور مقتهم للفتاحين ولتحمسهم للدين ، وأغرتهم الفوضى الشاملة بامتشاق الحسام لتحرير بلادهم ، حتى لقد اشتد أكبر صنائعهم فى بغض الأمويين ، ومن هؤلاء الكونت [شربند بن حجاج القومس] وهو ابن خادم من خدم الكنيسة وكان لا يتورع عن الاقدام على أى عمل بالغا ما بلغ من الخسة ما دام هذا العمل يدنى مكانته من السلطان ، ولما كان موقفنا أن أحسن وسيلة تقربه من ذلك الهدف هى ملؤه الخزينة فقد عمد الى ارهاق أبناء ملته بالضرائب مما حملهم على جب دينهم ، ويقول عنه أحد المؤرخين انه لم يكتف بقتل الأحياء بل كان أيضا يمتن حرمة الموتى ، وقد أراد أن يزيد الكراهية فى قلوب المسلمين على المسيحيين فأخرج جثث الشهداء من تحت مذابح الكنائس وعرضها على حجاب السلطان منسدا بوقاحة المتعصبين الذين جرؤوا على تخصيص مثل هذا المكان الطاهر لمن قتلوا بسيف الشرع ، فمقته النصارى مقنا لم يمتوته أحدا قط ، وراح القساوسة ينقبون معاجم اللغة بحثا عن ألفاظ يستعملونها فى قدحه وتجريحه ، فتمتعوه « بالأحقق والسفيه والتكبر والطاغية والطماع والشره والслаب القاسى العنيد المتعجرف » ، وقالوا « ان قحتة دت الى معارضة ارادة الرب » ، ولقبوه « بالشيطان المريد » ، وكانوا محقين فى كراهيتهم اياه اذ أثقل كاهل جميع كنائس العاصمة بالضرائب الباهظة حتى عجزت عن دفع رواتب رجالها ، وفرض عليها سرفاندو [أى شربند] قبول رجال جبناء مغمورين ممن يؤثرهم هو ويتناولون رواتبهم من الحكومة . أضف الى ذلك أنه كان ألد عدو للشهداء ، كما كان شديد الوطأة على المدافعين عنهم ممن كان ينصب لهم الأحيال فى حلق بالغ ودهاء شيطاني . فقد حدث ذات مرة أنه لام كلا من الشماس سمسون وفاتسيس أسقف قرطبة لاغرائهما أحد تلاميذهما بالتجديف فى الرسول ثم قال للسلطان « هلا استدعيتهما سمسون وفاتسيس وسألتهما عما اذا كانا يعتقدان فى صلوق ذلك المجلف ؟ فاذا دفعهما الخوف الى الانكار فمر لهما بخنجرين واطلب اليهما قتل ذلك الرجل ، فان رفضا قامت الحجة لديك على أنه صنيعتهما ، وحينذاك أعطنى سيفا أجهز به على ثلاثتهما » (٣١) .

مضى على هذا القول عشرون سنة تغير معها الزمن وتبدل الرجال الذين على غرار « شربند » الذى كان على جانب كبير من بعد النظر اذ سرعان ما اشتد فى كراهيته للسلطان الذى أوشك على السقوط عن العرش ، كما بالغ فى تأييده لزعيم الحزب الوطنى الذى اعتقه أنه سيخلف السلطان ، واذا ذاك أخذ فى التقرب الى اخوانه المسيحيين الذين اضطهدهم من قبل ، وراح يدبر معهم المؤامرات ويعمل غاية جهله لاثارة الفتنة ، وعلم البلاط

بطرف من مؤامراته فقبض على أخ له ، فلما علم شربند بما جرى تحالف هو واخوانه المتآمرون ، حتى اذا صار خارج العاصمة اطمأنت نفسه لأن نفوذ السلطان لم يكن يجاوز قرطبة ، ولما لم يعد هناك ما يخشاه من ناحيته فقد رسم خطته للاستيلاء على حصن « بلاى » الهام المعروف باسم « أجويلار » وهو على مسيرة يوم جنوبى (٣٢) قرطبة ، ولم يكن أمنع من بقية حصون السلطان الأخرى ، لذلك نجح فى الاستيلاء عليه ، ولما استقر فى « بلاى » رأى مخالفة ابن حفصون الذى رحب به وأنفذ اليه بعض القوات وأوصاه بمواصلة الحملات على ريف قرطبة ، ولم يكن هناك من يشأو « شربند » فى تنظيم تلك الحملات وفى معرفته التامة بجميع نواحي ذلك الاقليم ، ويشهد له المؤلفون العرب بأنه كان فارسا جريئا ، فكان اذا جاء المساء غادر حصنه ثم عاد اليه مع تباشير الصباح ويكون هو فيما بين المساء والصباح قد خرب الحقول وأحرق ما أمكنه من القرى ، وكانت الجثث المطروحة على الأرض تشير الى الطريق الذى سلكه ، وانتهى به الأمر أخيرا الى أن لقي مصرعه فى أثناء غارة له ، غير أن أتباعه واصلوا عمله الدموى الذى بدأه (٣٣) .

أدى استيلاء ابن حفصون على حصن بيانة (٣٤) الى أن أصبح فى حوزته - أهم الحصون الموجودة فى جنوب الوادى الكبير - ، وخضعت له كل بلاد الأندلس تقريبا ، واعتقد السلطان أنه لم يعد يستطيع أن يخلع على أى شخص لقب « حاكم البيرة » أو جيان ، وهو لقب صار اجوف فقد (٣٥) قيمته ، ثم ان زعيم المولدين تباهى بقوته الفعلية فأراد توكيدها ، وكان يعتقد أن قرطبة لن تلبث أن تقع فى يده ، واذا ذاك تؤول اليه مقاليد الأمور فى اسبانيا ، لكنه أدرك أنه اذا ظل كما هو اضطر لمناضلة العرب ثقة منه أنهم لن يخضعوا لسلطانهم طالما أنه قادر على أن يطلع عليهم بلقب « زعيم الاسبان » ، فكان هدفه ومطمحه أن يحصل من خليفة بغداد على قرار بتولية حكم الأندلس ، ولم يكن ذلك الأمر بالذى يؤوده اذ لم يكن لخلفاء بغداد سوى سلطة اسمية على الولايات البعيدة عن مركز امبراطوريتهم ، وكان له أن يطمع فى طاعة العرب اذا رضى الخليفة أن يبعث اليه بمرسوم يوليه فيه الولاية فلا يغفل حينذاك اسبانيا بل ممثل أسرة لها الصدارة بين الجميع .

ولما استقر رأى [ابن حفصون] على هذا القرار أخذ فى مفاوضة ابن الأغلب والى افريقية من قبل الخليفة العباسى مستميلا اياه بالهدايا العظيمة التى راح يصله بها ، فرحب ابن الأغلب وأجزل له العطاء ، وشجعه على المضى فى خطته ووعد به بذل جهده حتى يتسلم من الخليفة المرسوم المنشود (٣٦) .

وشرع ابن حفصون في التماهي للحنة التي يرفع فيها راية بني العباس ، واقترب من قرطبة ، وضرب معسكره الكبير في أستجة (٣٧) ، وكان يزور بين آونة وأخرى «بلاى» يحث القوم على سرعة اتمام التحصينات التي أمر بها في تلك البقعة حتى تزداد منعة على منعة ، وليأتى بالامدادات لجند الحامية ، يثير بها حميتهم ان كانت فى حاجة الى الانارة ، وبذلك لا تنقضى أشهر - أو ربما بضعة أيام - حتى يدخل العاصمة فاتحا .

وخيمت الكابة المحزنة على العاصمة التي كابدت مخاوف الحضار قبل أن يضربه عليها ، وكان المؤرخون العرب يقولون ان قرطبة صارت أشبه ببلك بعيد معرض لهجمات العدو (٣٨) ، وطالما استيقظ السكان مذعورين أثناء الليل على صرخات الفرع من الفلاحين التعساء تنطلق من الشاطيء الآخر للنهر يفتك بهم فرسان « بلاى » (٣٩) . وحلت فى احدى المرات أن دفع التهور احمه أولئك الفرسان للتقدم حتى عبر الجسر ثم رمى بسهم فى التمثال القائم فوق باب القنطرة (٤٠) .

ولقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الاحداث يقول ان الدولة كانت مهددة بالخراب التام ، وتوالت عليها النكبات بعضها فى أثر بعض ، وعمتها السرقة وفشى النهب ، وسبيت النساء والأطفال (٤١) ، وضج الناس من تقاعس السلطان وتراخيه وخوفه (٤٢) ، وتدمر الجند لعدم تسلمهم رواتبهم ، وكفت الولايات عن إرسال الضرائب ، ونضبت خزينة الدولة ، وعمد السلطان الى الاستئانة لدفع ما يبعثه الى من ظلوا الى جانبه من العرب فى الولايات المختلفة (٤٣) ، وقفرت الأسواق لعدم التجارة ، وارتفع ثمن الحبز ارتفاعا فاحشا (٤٤) ، ولم يعد أحد يفكر فى المستقبل ، وراى اليأس على الأفئدة .

وكتب ابن حبيب يقول « انه سرعان ما سيعز الذليل ، ويذل العزيز ، وخاف الناس أن يفقد الأمويون أمنهم الذى كانوا يجدونه فى ظل راية عبد الرحمن الأول » .

أما الفقهاء الذين عدوا المصائب العامة التي حاقت بالناس غضبا من الله والذين سموا ابن حفصون بغضب الله (٤٥) فقد أزعجوا البلد بتكهناتهم المحزنة فكانوا يقولون (٤٦) : « واهى لك يا قرطبة ، وما أتعس حظك أيها المتلف الخسيس ، يا بالوعة الاقذار ورمز الخراب ، ويا وطن المصائب والشدائد ، أنت يا من عدمت الحليف والصدى ٠٠٠ غلما حين يقف على بابك القائد ، الكبير الأنف ، الضخم الجثة ، الذى تتألف مقعته جيشه من المسلمين ، ومؤخرته من المشركين ، حينذاك يتم خرايك ، ويفتش سكانك عن ملجأ لهم فى «قرمونة» غير أنه سيكون ملجأ ملعونا ، وأخذ الناس

يلعنون على المنابر «خانقاه الظلم» قاصدين بذلك قصر السلطان ، بل لقد
 حددوا الوقت الذى ستقع فيه قرطبة فى أيدي الكفار ، ويقول فى ذلك أحد
 المتنبيين : « يا قرطبة المزدولة ، لقد أبغضك الله منذ أن أصبحت مباءة
 للأغراب والمجرمين والعاهرات ، وستحل عليك نعمة الله القاهرة
 أما أنتم أيها الذين تستمعون الى فسترون أن الفتنة تخرب كل بلاد الأندلس ،
 ففكروا فى أى شيء آخر غير الأباطيل الدنيوية ، واعلموا أن الضربة القاتلة
 سوف تأتيكم من الجانب الذى ترون فيه الجبلين : الأسمر والأسود ،
 وستبدأ فى الشهر التالى : شهر رمضان ، ثم ينقضى شهر وفى اثره آخر ،
 وحينذاك تحيق نكبة فادحة بالقصر العظيم : خانقاه الظلم فارعوا جيذا
 نساءكم وأطفالكم يا سكان قرطبة ، واهتموا ألا تدعو عزيزا لكم على مقربة
 من خانقاه الظلم أو المسجد لأنه لن يبقى القوم يومذاك على طفل و امرأة ،
 ونستحل هذه النكبة يوم الجمعة بين الظهر والعصر وتظل حتى غروب
 الشمس ، أما المكان المأمون فسيكون فى جبل أبى عبدة حيث كانت تقوم
 الكنيسة » (٤٧) .

ربما كان أشد الناس انزعاجا هو السلطان فقد باتت الأخطار تهدد
 ذلك العرش الذى كان السلطان شديد الحرص عليه والذى لم يجلس
 عليه الا باغتيال أخيه ، ثم انه استفرغ جميع ثروته ولم تجده نفعا محاولة
 اصطناع سياسة خالها نافعة مجدية .

اذن فما الذى يفعله الآن ؟

أيعود الى سياسة أخيه الفظة ؟

لم يكن يتأتى له ذلك اذا أراد ، فقد نضب المال الذى عنده ، وانفض
 عنه جيشه ، هذا الى جانب ما طبع عليه هو نفسه من كراهية للحرب اذ كان
 أميرا تقيا ملازما للبيت غريبا عن المعسكرات وميادين القتال ، ومن ثم
 اضطر لمتابعة سياسته السلمية حتى لا يقع ثانية فى يد العليج الخبيث الذى
 طالما غرر به وخدعه ونعنى به ابن حفصون الذى أصبح عازفا عن الاتفاق
 معه ثقة منه بانتصاره عليه ، وحاول عبد الله عبثا أن يحمله على مسالته ،
 لكن لم تجده نفعا الشروط الطيبة التى تقدم بها اليه ، فقد رفض
 ابن حفصون جميع عروضه مستخفا بها (٤٨) ، وكان السلطان كلما رد
 خائبا اتجه الى الله (٤٩) ليأسه من الناس مغلقا حجراته على نفسه وعلى أحد
 النساك (٥٠) ، أو عكف ينظم مثل هذه الأبيات (٥١) :

أرى الدنيا تصير الى فناء وما فيها لشيء من بقاء
 فبادر بالانابة غير وان على شيء يصير الى فناء
 كأنك قد حملت على سرير وغيب حسن وجهك فى الثراء
 ففانس فى التقى واجنح اليه لعلك ترضين رب السماء

غير أنه قدر له أن يسترد في أحد الأيام شجاعته وذلك في ختام عام ٨٩٠ م [= ٢٧٧ هـ] حينما أقبل عليه أحدهم من فاحشة ابن حفصون . يقدم إليه رأس خير بن شاكر صاحب « شوذر » ، فرأى عبده الله في هذا بارقة أمل ، وخيل إليه أن خصمه اللدود موشك على أن يعقد معه الصلح الذي يرتجيه منذ أمد بعيد ، وكانت رأس « خير » عنده أصدق دليل على أن الوفاق قريب ، وظن أن ابن حفصون يشكره على معرفته معه ، إذ حذرهُ السلطان بأن « خيرا » يخادعه ويرى في « ديسم » أمير « تدمير » منافسا آخر لابن حفصون الذي كان شديد الغيرة على سلطته فانتقم منه أشد انتقام . ذلك أن خيرا سأله أن يوافيه بمدد يقوى به فوافاه به إلا أنه أصدر سرا أمره إلى قائده « الأحيمر » بقطع رأس الخائن فاطاعه (٥٢) .

لكن ابن حفصون لم يلبث أن أخرج السلطان من حلامه فلم يمض لصالحته بل نهض لحصار قلاع كورة « قيرة » التي كانت لا تزال تابعة للسلطان (٥٣) .

ما كان للأمور أن تتعقد أكثر مما هي عليه وأدرك عبد الله أخيرا أنه ينبغي عليه أن يخاطر بكل شيء في سبيل المحافظة على كل شيء ، فصارع وزراءه بعزمه على النهوض لقتال العدو ، فوقع ذلك الخبر من حجابهِ موقع الدهشة وقالوا له :

« استنّب بعض قوادك للمسير بجيشك لاستغلال شوكة الحبيب (٥٤) وكثرة أنصاره » ، ولكنه أصر على مشروعه (٥٥) .

ودفعه احساسه بكرامته ومعرفته بطيب نبعته إلى إشارته الموت في ساحة الوغى على البقاء ذليلا .



الفصل الخامس عشر

خروج ابن حفصون لمهاجمة السلطان عبد الله الذي
أخذ يزحف على « بلای » • تخاذل قائد جيش السلطان
وانتشار النبؤات فيه • هزيمة جناح الأندلسيين الأيمن •
ابن حفصون يوشك على الهلاك في الوقعة • ورجوع عسكر
استجة الى كورتهم •

هروب ابن حفصون الى أرشذونة واستيلاء السلطان
على حصن بلای • مقاومة استجة لهجوم عبد الله عليها ثم
استسلامها له • ارتداد السلطان رغم أنفه الى أرشذونة
وعودته الى قرطبة •

وقعة بلای من أعمال قبره سنة ٢٧٨ هـ

تلقى ابن حفصون تصميم السلطان بشيء من السرور والدهشة ، وقال بالأسبانية لابن مستنة : « هذا توهيم للبيطة (١) ، لينة فعل ، من جاءني يفصولة نحوى أعطيته خمسمئة دينار » ، ولم يلبث طويلا حتى وافاه الخبر وهو فى « استجة » بأن السلطان قد ضرب خيمته فى سهل « شقندة » فأجمع ابن حفصون العزم على أن يمضى فى لحظته لاحتراقها فان كتب له التوفيق فيما نهض به جلل السلطان بعار الدهر .

بلغ ابن حفصون سهل « شقندة » وقد مد الظلام طنبه على الدنيا ، واستصحب معه بعض الكتائب وباعت القائمين بحراسة الفسطاط من العبيد الجند الذى لم تمنعهم قلة عددهم من الاستبسال فى مقاتلة عدوهم ، وتعالى صراخهم ، فهب المسكر لنجدتهم من خارج المدينة ، ولما كان ابن حفصون يرمى من وراء ذلك الى خديعة السلطان فانه سرعان ما أمر فرسانه أن يلوا أعنة جيادهم ويكروا على « بلای » وذلك حين رأى خطته موشكة على الفشل ، فقصهم فرسان السلطان وقتلوا بعضا منهم .

وعلى الرغم من تفاهة هذا الهجوم الليلي الا أنه كانت له دلالات عظيمة فى أعين القردانيين ، فما تنفس الصباح حتى خرج جميع سكان العاصمة لاستقبال فرسان السلطان الذى عادوا من وراء « نارديم » ومعهم بعض جيادهم التى استولوا عليها ، وكذلك بعض رؤوس قتلاهم ، وتظر الناس بعين الإعجاب الى تلك الغنائم ، وأسر بعضهم الى بعض فى كبرياء ونشوة بأن ابن حفصون قد ضل الطريق ولم يدغل « بلای » الا مع فارس واحد . ومع ذلك فان معركة هائلة كانت على وشك الوقوع ، ولم يكن ثم محيص عن الاشتباك رغم أن إحدى الجذاعتين كانت ضعفت الأخرى ، فلم يكن

جيش السلطان يتجاوز أربعة عشر ألف جندي منهم أربعة آلاف من العسكر النظاميين ، أما ابن حفصون فكان فى ثلاثين ألف مقاتل ، ومع ذلك فقد أمر السلطان بالمسير الى « بلاى » والزحف عليها ، حتى اذا كان يوم الخميس ١٥ أبريل ٨٩١ م [= ٢ محرم ٢٩٨ هـ] أصبح الجيش على مقربة من نهر صغير (٢) لا يبعد عن الحصن سوى نصف فرسخ ، واعتقد رجال كلا الفريقين أن المعركة ناشبة فى الغد .

كان ذلك يوم الجمعة - جمعة الآلام - عند النصارى (٣) ، وزحف جيش السلطان فى الصباح الباكر بينما كان ابن حفصون يعبئ جنده للمعركة عند سفح الجبل القائم عليه الحصن وقد امتلاؤا حماسة ودفعهم شوقهم للقتال الى الثقة بانتصارهم ، وكانت الحال على غير هذا المنوال عند عبد الله فقد كان جيشه آخر ما تبقى لديه ، وهو السند الذى كان عليه وحده يتوقف مصير الأمويين فان أخفق ضاعوا نهائيا ، ومما زاد الطين بلة سوء قيادته حتى ان قائده عبد الملك بن أمية لم يأخذ حذره ازاء عدوه ولم يفكر فيما يلزمه للقضاء عليه ، فتقدم حتى اذا أدرك صعوبة موقعه أمر الجيش بالارتداد الى جبل واقع شمالى الحصن ، وبينما هم آخذون فى تنفيذ هذا الأمر اذا بقائده المقدمة - وكان مولى أمويا شجاعا اسمه عبيد الله - يتقدم من جماعة أبى عبيد وقال له : الله الله فى الناس ! .. أين يذهب بك أيها الأمير ؟ ، أبعد أن استقبلنا عدونا واستقبلونا نولهم أديارا ؟ ونعيد عنهم بسنتنا ؟ .. اذن والله يقوى طمعهم فينا ويتصور حيادنا عنهم بغير صورته فيقدمون علينا ولا نأمن أن يكسرونا ! » .

كان الحق فيما قاله عبيد الله هذا ، فقد أدرك ابن حفصون غلطة عدوه وتاهب للاستفادة منها ، كما أن السلطان لم يكن راضيا أبدا عن مسلك قائده هذا ، ومن ثم سأل عبيد الله عما يفعل فأجابه : « المضى قدما ، والاختلاط بهم صمتا ، واطلب مناجرتهم عزما ، ويقضى الله قضاءه » .

فقال السلطان : دونك فتقدم ! .

لم يضع عبد الله لحظة فما لبث أن عاد الى كتيبته وأمرها بمهاجمة العدو ، فلبى الجنود أمره رغم يأسهم من النصر ، واذا ذاك قال أحد الضباط للفقير أبى مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى ، وكان معروفا هو الآخر بشدة تقواه حتى ليسمونه بشيخ المسلمين : « ما عندك فيما قد حضر أيها الشيخ ؟ » .

فأجابه أبو مروان : « لا أقول لك يا ابن أخى غير ما قاله الله تعالى (٤) ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » .

لم تكن بقية الجيش أحسن حالا من مقدمته ، وتلقى الجند الأمر بحط متاعهم وضرب الخيام تأهبا للقتال ، وبينما هم منهمكون في مهـ فسطاط السلطان اذا بأحد الأعمدة يسقط فيسقط السرادق على الأرض ، فتهاشم القوم في كل ناحية بأن ذلك نذير سوء وطالع شر ، واذ ذلك قام ضابط شهم فقال : « أيها الناس : انه لا بأس بكم ولا طيرة تلحقكم فقد اندق عمود القبة يوم الكر كريد فكان بعده الفتح المبين » . ثم ثقف الرجل السرادق بعمود أخذه من المتاع .

كان على الفقهاء والضباط الذين في المقدمة - حين بدأ القتال - أن يعملوا على محو الأثر الذي نجم عن كثير من التكهّنات ، وكانوا يتمتعون بذكرة طيبة وخيال مرع ، فلم يجدوا صعوبة في اقتباس كل ما يلائمهم من الحوادث السابقة ، فحارب في الصف الأول عبد الله الرميحي وكان محاربا شجاعا فلبس الخوذة والدرع ، كما كان في الوقت ذاته شاعرا مبرزاً فأخذ يرجز كلما ضرب بالرمح أو السيف ، ثم اذا به يسقط فجأة ميتا فدعر الجند وصاحوا « ما نرى هذه الطيرة الا شرا » . فقال الفقهاء : « أيها الناس ، لا يهولنكم قتل عبد الله فان ذلك علامة النصر ، هكذا كان أول قتيل من الطائفتين يوم وقعة وادي سليط مع أهل طليطلة : فارس من فرساننا ، ثم كان النصر الذي لا كفاء له ! » .

سرعان ما احتدم القتال وتعالى الصراخ ، واختلط ضجيج الأبواق بأصوات الفقهاء المسلمين يتلون آيات من القرآن العظيم ، والقساوسة يرتلون الانجيل ، وحدث ما لم يكن في الحسبان اذا نتصرت ميسرة السلطان على ميمنة ابن حفصون وأرغموها على الارتداد ، وخذوا بتسابقون في ضرب الرقاب وحملها الى السلطان الذي وعد بمكافأة كل جندي يحمل اليه رأسا من رؤوس الأعداء على الرغم من أنه هو نفسه لم يساهم في القتال بل كان قاعدا في فسطاطه يراقب الآخرين وهم يتحاربون من أجله ، على حين أخذ هو ينشد هذه الأبيات :

من كان بالكفة أو كثر العدد

ذا ثقة في نفسه أو مستعد

فثقتي بالواحد الفرد الصمد

بعد أن حاقت الهزيمة النكراء بجناح الأندلسيين الأيمن كر جميع جيش السلطان على الميسرة التي يقودها ابن حفصون نفسه ، لكن على الرغم من مجهوداته وما أظهره كما هي العادة من ضروب الشجاعة وآيات الكفاءة الا أنه لم ينجح في حمل جنده على الثبات في أمكنهم ، ذلك لأن التهور والاندفاع كان أكثر من تريثهم ، كما كان من السهل دفعهم للتمرد والياس

من الخاتمة ، قولوا الأدبار تاركين الميدان لعدوهم ، وهرب بعضهم الى « أستجة » ، فتعقبهم الفرسان الملكيون الذين قتلوا منهم المئين ، ومضى بعضهم - وفيهم ابن حفصون ذاته - للاعتصام بالقلعة التي تزاحم هاربو الميمنة على يابها ، فحاول الجند عبثا أن يشقوا طريقهم وينفذوا زعيمهم ابن حفصون ، لذلك جذبه الجند الواقف على السور من ذراعيه وحملوه من فوق حصانه الى داخل الحصن .

بينما كانت هذه الجماعة لاتزال تتدافع على أبواب الحصن كان جند السلطان ينهبون معسكر عدوهم وقد دبّت نشوة الفرح في أعطافهم ازددهاء بالنصر الذي كان فوق ما يأملون ، فأخذوا يهللون سخرية من أعدائهم الذي كانوا يعدونهم جميعا كفارا ، والذين فشلوا في القتال قبل وقعة « شقندة » ، فأخذ العسكر في التندر عليهم ، وقال شاعرهم :

محي السيف ما زخرفت أول وهلة ودونك فانظر ما أضاء لك القدرح
فكم شارب منكم صباحا بعد سكرة وما كان لولا السيف من سكره يصحو
أقمنا عليها النهو في يوم عيدهم فكم لهم فصحانه : قطع انفصح
ألا تعست تلك الوجوه وقبحت فما خلقا الا لها : التمس والقبح
فيا وقعة أنست وقبعة راهط ويا عزمة من دونها البطن والنطح
وياليلة أبقت لنا العز دهرنا وذلا على الأعداء صل به الترح

وأخيرا قام شاعر البلاط ابن عبد ربه فنظم هذه القصيدة الطويلة التي ضميمها تلك المسأخر الكبيرة وكلمات الحراس ، والتي يحل الذوق الفاسد والتلاعب بالألفاظ فيها مكان الصدارة ، لكنها كانت على الأقل تمتاز بأنها أجلى تفسير للفرامية والاحتقار للذين يحس بهما أتباع السلطان للألسنين .

وتم دافس آخر كان مدعاة لسرور جند السلطان الا وهو ايتار ابن حفصون البقاء في الحصن وإصراره على عدم رحيلهم وإراد أن يحلهم على البقاء بالحصن رغم أنوفهم ، لكنهم نقبوا السور الشمالى ونفذوا منه الى بلدتهم ، فلما رأى الجند الآخرون بأنفسهم قالوا انهم شرذمة قليلون استباحوا أن ينهبوا وحدهم بالذبح عن الحصن ومن ثم فلا مناص لهم من إخلائه ، فخرج ابن حفصون - بعد لاي - لمطلبهم ، لذلك فانه ما كاد الليل أن ينمض حتى كانوا قد غادروا الحصن ولم يكن ذلك ارتدادا بل هزيمة كراه وعرويا شاملا .

تقضت فترة طويلة على ابن حفصون وهو - في وسط هذه الفوضى الخيئة واللام الشامل - يفتش لنفسه عن دابة يمتطيها ، حتى تسنى له

أخيرا أن يجد قرسا هزيلا واهيا كان لجندى نصرانى ، فلما امتطاه لم يكف عن وخزه بقدميه محاولا حمل هذا الحيوان التعس على الركض ، وكانت قد انقضت على هذا الحصان سنوات عدة لم يعرف فيها سوى التمهل ، لكن راكبه اليوم كان مضطرا للاسراع اذ ما كاد رجال السلطان يعلمون بهرب ابن حفصون حتى راحوا يتعقبونه ، وحينذاك قال ابن مستنة الذى كان يركض بجواده الى جانبه وكان لا يزال محتفظا بهدوئه رغم الخطر المحدق به وبرفيقه : « قد وفر الله عليك الخمسمائة دينار التى كنت بذلتها فكيف رأيت عقبى الاغترار ببنى أمية ؟ » .

فرد عليه ابن حفصون غاضبا حنقا ولم يكن من طبعه المرح ولا الدعابة وقال : « ذلك من جنبك وجبن أمثالك أشباه الرجال ولا حقيقة !! » .



ولما تنفس الصباح كان ابن حفصون قد بلغ مع ربة من رفاقه بلدة « أرشدونة » لكن لم يطل لبثهم بها ولم يستقروا بها غير برهة وجيزة ، ثم أمر سكانها باللاحاق به فى « بوبشترو » التى أغد السير اليها .

أما السلطان فقد استولى على قلعة « بلاى » حيث وجد بها وفرة من المال والنخيرة وآلات الحرب ، فطلب السجل المتضمن أسماء جميع رعاياه المسلمين ، ثم جاءوا اليه بالأسرى فأبقى على حياة مسلميهم ، على أن يقسموا أنهم لازالوا على اسلامهم ، أما غيرهم فقد أمر بشنقهم عن آخرهم ان لم يسلموا ، فأثروا جميعا الموت على الارتداد عن دينهم ولم يشذ عنهم سوى واحد خائنه شجاعته وهم يسرون به الى القتل فاشترى حياته باسلامه ، أما الباقون وكانوا قرابة ألف رجل فقد لاقوا منيتهم ، وربما كان هؤلاء الجند المجهولون أحق بلقب الشهادة من متعصبى قرطبة الذين أدخلوهم فى عداد القديسين منذ أربعين سنة قبل هذا الحادث .



ترك السلطان حامية كافية فى حصن بلاى ونهض هو لمحاصرة استجة التى قاومته أعنف مقاومة بفضل كثافة حاميتها التى زادها عددا الجهور اللجب ممن فروا اليها ، الا أن ذخيرتها لم تكن كافية لسد رمق المدافعين عنها فلم تنقض بضعة أسابيع حتى أحس الناس بالجدب الذى أخذ يتزايد يوما بعد يوم ومالوا الى التسليم ، واذ ذاك شرع الأندلسيون فى التفاوض فأصر السلطان على أن يستسلموا بلا قيد أو شرط ، فرفضوا ذلك رفضا تاما رغم المجاعة التى كانت تهدد المدينة بالسمار المروع مما دفع سكانها لأن يظهرُوا للمحاصرين - من فوق أسوارها العالية - نساءهم وأطفالهم

الجوعى وصاحوا مسترحمين ، فرضى السلطان أخيرا وأمنهم وأخذ منهم
الرهائن وعين عليهم حاكما ، ثم تابع هو زحفه على بوبشترو ، وضرب
معسكره على كئيب من حصنها •

كان من المستحيل قهر ابن حفصون وهو يعرف كل جبل وواد ومر
فى منطقة بوبشترو مما لم يخف على جند قرطبة الذين أخذوا فى التتمير ،
زاعمين أن أمد الحرب قد طال ، ونهم لا يريدون انهاك مابقى من قواهم
فى مجهود غير مجدى ، وقالوا ان عدد خصمهم لابد وأن يتكاثر فى صراع
يظهر فيه تفوقه حين تضطره الظروف للدفاع عن نفسه ، فاضطر السلطان
للنزول على ارادة عسكره ، وأصدر أمره بالارتداد الى « رشذونة » ، لكنهم
فى أثناء رجوعهم اليها مروا عبر مر شديد الضيق باغتتهم فيه ابن حفصون
بالحجوم لكنه لم يستطع هزيمتهم بفضل مهارة عبيد الله وشجاعته •

ثم دخل السلطان مدينة «البيرة» التى سلمه أهلها الرهائن ، ومن
ثم سار بجيشه الى قرطبة (٥) •

الفصل السادس عشر

ابن حفصون يتظاهر بموادة السلطان ويعمد الى اثاره
سكان أرشدونة ضده . موقف الجماعات المختلفة من
الأحداث . ابن حفصون يباغت السلطان اذ يدخل البيرة
ويزحف على جيسان ثم رجوعه الى بوبشترو . اغتيال
سعيد بن جودي وأثره . السلطان عبد الله يحارب صغار
الثوار من أجل المال . كريب يطالب هشاما بإطلاق سراح
أخيه المطرف الذي يهاجم بعض القلاع والمدن . توافد
الامدادات على كريب . النزاع بين القادة وتهديدهم السلطان
بإبن حفصون . تنصر ابن حفصون وأثره . الصلح بين
ابن حفصون والسلطان عبد الله ثم الحرب بينهما
سنة ٢٩٠ هـ . مهاجمة ابن حفصون لابن أبي عبيدة وانتصار
السلطان وانتقامه . السلطان يستألف ابن حجاج اذ يرد
عليه ولده . الأديب أبو محمد العذري الحجازي . قمر
الجارية وشعرها في ابراهيم بن حجاج . عظمة البلاط
ووفود ابن عبد ربه صاحب العقدة الفريد . عظمة خاق
ابراهيم بن حجاج .

بقية عهد عبد الله

انتصر السلطان قرب بلاى فى لحظة كان موشكا فيها على الضياع واستولى على بلاى واستجة وأرشدونة التى تعتبر جميعها المراكز الأمامية للفريق الوطنى ، كما عادت « البيرة » الى طاعته (١) ، وحذت حذوها جيان التى ارتد اليها ابن حفصون بجنده ، ولاشك أن ذلك كله كان فوزا عظيما للسلطان لما أحدثته من الأثر العميق فى الراى العام كان أكبر مما هو متوقع ، وفقد ابن حفصون كثيرا من هيئته ولم يكن شىء من ذلك خافيا عليه ، وأصبح ابن الأغلب يزور عن لقاء رسله بعد أن كان عظيم الترحيب بهم ، متذرعا بانشغاله باخماد الثورات ، وإن ليس لديه من الوقت ما يصرفه فى الاهتمام بشئون الأندلس (٢) ، وطبيعى أنه لم يكن فى استطاعة ابن الأغلب أن يشغل نفسه - وهو بافريقية - بمساعدة دعى باء بالهزيمة ، كما أنه لم يكن هناك ما يدعو خليفة بغداد لأن يولى هذا الدعى أمر الأندلس .

أما السلطان فقد تبوأ مكانة عظمت فى نفوس الأهالى ، ورأى المواطنون: الوادعون الذين كرهوا الاضطرابات والفوضى - فى إعادة القوة للسلطان الوسيلة الوحيدة لاقرار الهدوء واستتبات السلام ، وأجمعوا أمرهم على ذلك . ومع أنه لا يمكن تجاهل الفوائد التى جناها السلطان الا أنه راح يبالغ فى تقديرها ، ولاشك أن ابن حفصون قد أصيب بصدمة عنيفة فى قوته وإن لم تتلاش نهائيا ، كما أنه لم يأس قط من استعادتها ، ولكنه كان فى لحظته هذه أحوج ما يكون للسلم فجنح اليه حتى لقد استجاب الى ما طلبه السلطان منه من تسليمه أحد أبنائه رهينة لديه ، غير أنه لما كان يضمّر معاودة القتال حالما تواتيه الفرصة فقد تمكن من أن يخدع السلطان إذ لم يسلمه ابنه بل رهن لديه ابن خازن له ، وبقي أمر هذه الخديعة مكتوما حتى ثارت الشكوك ، فلما علم السلطان بالحقيقة استنكر هذا العمل من ابن حفصون وأنبه على يمينه الفاجرة وأصر أن يكون الرهينة ابنه الحقيقى ،

فلما أبى ابن حفصون اجابة هذا الشرط عاد القتال بين الجانبين من جديد (٣) .

استرد الزعيم الأندلسى بسرعة عجيبة الأراضى التى فقدتها من قبل ، ولما كان موقنا من قدرته على الاعتماد على سكان مدينة « أرشذونة » فقد بعث اليها طائفة من الرجال يشجعونها على التمرد فألقوا القبض ليلا على العاملين اللذين وكل اليهما السلطان حكومتها وأسلموهما الى ابن حفصون ساعة أن دخلها هو وجنده سنة ٨٩٢ م [= ٢٧٩ هـ] ، وسرعان ما وفد اليه مبعوثو « البيرة » يعلنون اليه أن مدينتهم قد ثارت هى الأخرى ، وأنها تعتمد على مساعدته لها ، فأجاب ملتسهم وزودهم بحامية من عنده ، غير أن الحزب السلطاني المتكاثر فى « البيرة » لم يطاوع لهذه اللطمة اذ بادروا كل رجاله الى حمل السلاح بمعونة حاكم Ubeda وطردوا جنده ابن حفصون ، وانتخبوا مجلسا محليا ، وجاءوا بالحاكم الذى بعثه السلطان اليها فأدخلوه البلد .

أما دعاة الانفصال وأنصار الاستقلال فقد فزعهم اقتراب جيش السلطان الذى كان ينازل وقتذاك « كركبولة » - أحد حصون ابن مستنة وظلوا ساكنين لم يقاوموا لكن ما كاد الجيش يعود الى قرطبة حتى رفعوا رؤوسهم وتحركوا وأرسلوا الى ابن حفصون يسألونه المشورة ، واغتنموا فرصة الظلام فأدخلوا بعض جنده الى القلعة ، ولما أدرك ابن حفصون نجاح الحطة اذ رأى المشاعل التى أوقدها أنصاره دخل المدينة فى معظم رجاله فاستولى النهول من المفاجأة على جند السلطان الذين انتبهوا على صيحات الفرح من جانب عدوهم فلم يفكروا فى مقاومته ونزل بهم أشد ضروب العقاب ، فصودرت كل ممتلكاتهم وقتل الوالى الذى عينه السلطان .

لما استتب الأمر فى البيرة لابن حفصون وجه جنده لمحاربة ابن جودى وعرب غرناطة ، وأدرك ابن جودى أن المعركة القادمة ستكون فاصلة ، فاستدعى لنجدته جميع حلفائه الا أنه أصيب بهزيمة نكراء ، ودفعته غفلته للابتعاد عن غرناطة وهى دعامته ، فلقى الكثيرون من جنده مصرعهم اذ كان عليهم أن يسلكوا بقاعا كثيرة قبل أن يستطيعوا العودة الى حصنهم ، ورأى سكان « البيرة » فى هذا النصر تعويضا كبيرا لهم عن الهزائم التى لحقت بهم من قبل ، والواقع أن فشل العرب كان فشلا ذريعا فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

واستخف النصر ابن حفصون فزحف على « جيان » وواتاه من الفوز مثل الذى واته فى « البيرة » فاستولى عليها ، وولى أمرها حاكما من قبله ، كما أقام بها حامية حتى اذا فرغ من ذلك انقلب الى بوبشترو (٤) .

وشاهد عام ٨٩٢ م [= ٢٧٩ هـ] استرداد ابن حفصون لكل ما كان قد فقده من قبل باستثناء بلاى واستجة ، ولقد ظلت قوته مدة خمس سنوات على حالها ، غير أنه فقد البيرة ، ولم تسعفه مفاجآت أنصار السلطان فى هذه المدينة فى التغلب عليها ، بل ان مسلكه تجاههم أحقهم عليه فأخذوا يتربصون أول بادرة تسنح لهم للتخلص من نيره ، وحانت هذه الفرصة عام ٨٩٣ م [= ٢٨٠ هـ] حين وقف جيش السلطان أمام أبواب مدينتهم بعد غزوة قام بها فى أرباض بوبشترى وأعطى قائده الأمير مطرف أمانا شاملا للسلطان على شرط أن يسلموه جند ابن حفصون وقائدهم ، ورضى الأهالى بذلك نظرا لتأثير رجال السلطان العظيم عليهم ، ومنذ ذلك الوقت عادت البيرة الى طاعة السلطان وضعفت الروح الوطنية والحركة ، كما أخذوا يحاربون عرب غرناطة حربا أعنف من محاربتهم السلطان .

ولم يكن استدعاؤهم ابن حفصون الا للوقوف ضد العرب الذين دب اليأس فيهم منذ هزيمتهم فى واقعة غرناطة ، وازداد ضعفهم بما جرى بينهم من الشقاق ، فانقسموا فريقين أحدهما فى جانب سعيد بن جودى والآخر فى جانب محمد بن أضحي سيد الحامة القوى الذى كن سعيد يضم له البغض الشديد حتى لقد وضع جائزة لمن يأتيه برأسه ، وكانت غفلة سعيد وطيش مسلكه عاملين فى حرج موقفه ، وأدت به غطرسته وخيلاؤه وكثرة مبادله الى كراهية كثير من الزعماء له ، وانتهى الأمر أخيرا بأن قام أحدهم وهو أبو عمر عثمان الذى خدم سعيد سعادته العائلية فصمم أن يسحو عاره بسم الفاسق اذ علم أن امرأته قد واعدت الأمير على اللقاء فى بيت امرأة يهودية فذهب اليه وكمن له هو وبعض أصحابه ، حتى اذا جاء سعيد بن جودى وثب عليه أبو عمر وقتله ، وكان ذلك فى ديسمبر (٥) ٨٩٧ م [= ٢٨٤ هـ] ، وقد أدى هذا القتل الى زيادة اضطراب الأمور ، واغتنم القاتل وجماعته الفرصة فأسرعوا للاعتصام بقلعة « نوالش » شمالى غرناطة وأمروا عليهم ابن أضحي ، ولما كانوا لا يميلون لمعاداة السلطان فقد سألوه أن يقر هذا الاختيار ، وحاولوا أن يفهموه أنهم انما قتلوا سعيدا من أجل صالح الدولة ، زاعمين أنه كان يدبر اشعال الثورة ، وأنه نظم أبياتا يقول فيها :

قل لعبد الله يجدد فى الهرب نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنا انما الملك لابناء العرب
قربوا السورد (٦) المحلى بالذهب واسرجوه ، ان نجمى قد غلب

وغير بعيد أن يكون سعيد هو ناظم هذه الأبيات .

ومهما يكن الأمر فإن السلطان الذى فرح بتبرير العرب لموقفهم على هذه الصورة قد أجاز عملهم وأقرهم عليه ، إلا أن أصدقاء سعيد القدامى رفضوا الاعتراف بابن أضحى ، إذ أحقهم وأغاظهم قتل زعيمهم ، ولم يتعزوا عن قتله فتناسوا كل عيوبه ومثالبه التى ارتكبها فى حقهم ولم يعودوا يذكرون سوى حسناته ، فقام أحدهم واسمه مقدم بن معافى - وكان سعيد قد جلده ظلما - ونظم هذه الأبيات :

من الذى يطعم أو يكسو وقد حوى حلف الندى رمس
لا اخضرت الأرض ولا أروق الـ عود ولا أشرفت الشمس
بعد ابن جودى الذى لن يرى أكرم منه الجن والانس
وسمعه عربى وهو ينشد هذه الأبيات فصاح به : « أثرىه وقد أمر
بجلده ؟ » ، فأجابه : « والله انه نفعتنى حتى بذنوبه ، ولقد نهانى ذلك
الأدب عن مضار جمة كنت أقع فيها على رأسى ، أفلا أرى له ذلك ؟ »
والله ما ضربنى الا وأنا ظالم له ، فأبقى على ظلمى له بعد موته ؟ »
أما أصدقاء سعيد الخصى فقد تطلّعوا للانتقام وقال الأسدى من
قصيدة طويلة (٧) :

لا سألغت الراح لى من كف ساقيا
حتى تقرب نفسى من تمنيا
وأن أرى الخيل تردى فى أعنتها
لئلا من كان قبل اليوم يرضيها



ونار أصدقاء سعيد من أجله ، غير أن العرب دأبوا على منازلة بعضهم البعض فما كان من السلطان والاندلسيين الا أن تركوهم يتناحرون ويتقاتلون فيما بينهم (٨) .

أفاد السلطان فائدة عظمى من خضوع البيرة. الذى كان فاتحة خير عميم موصول الحلقات ، فقد أدرك عدم جدوى محاربته لابن حفصون ومن ثم وجه جيشه ضد الثوار الذين هم دون ابن حفصون قوة غير باغ من ذلك القضاء عليهم أو الاستيلاء على مدنها وحصونهم ، بل كان جماع هدفه أن يرغمهم على دفع الجزية اليه (٩) ، ولذلك كان يبعث لهم كل عام بحملة أو حملتين يفسد فيهما حقول القمح أو يحرق القرى ويحاصر الحصون ، فان رضى الثوار بدفع الجزية وتسليمه الرهائن تركهم فى سلام وقصد غيرهم لمهاجمتهم ، ولم يكن من شأن هذه الحملات أن تأتى بنتائج حاسمة أو تسفر عن عواقب خطيرة ، لكنها كانت مع ذلك مجدية ، فقد كانت

الخزينة خاوية وأدركت الحكومة أنه ينبغي عليها أن تتجهز بعصب الحرب قبل اقدامها على حرب شاملة ، أعنى أنه يجب أن يتوفر عندها المال الذى هيأته لهذه الحملات لا سيما حملة ٨٩٥ م [= ٢٨٢ هـ] ضد اشبيلية التى كانت لا تزال فى نفس الحال ، فعليها وال من قبل السلطان وكان عمه هشام مقيما بها .

أما الحكام الحقيقيون فهم بنو حجاج وبنو خلدون الذين كانوا راضين كل الرضى عن مكانتهم التى تهيم لهم كل مظاهر الاستقلال دون أن يلاحظوا المتاعب التى تصاحب الاستقلال فى العادة فكانوا يفعلون ما يشتهون : لا يدفعون الضرائب على الرغم من أنهم لم يكونوا فى حرب ضد السلطان ، وكانوا يعرفون أنه لا استقامة لمصالحهم الا باستمرار هذه الحال ، حتى كان عام ٨٩٥ م [= ٢٨٢ هـ] حين نادى أحد عمال السلطان بالنهوض للحرب ، فبادر ابراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون [أخو كريب] بأجابة الدعوى والمضى الى قرطبة مع أبناء جنسهم ، واقتفى مثلهم حليفهم سليمان صاحب شذونة وأخوه مسلمة .



كان الجميع يعتقدون أن الحملة ناهضة لمهاجمة المولدين من أهل تدمير ، ويمكن للمرء أن يتصور حيرة كريب وفزعه حين رأى الجيش يزحف على اشبيلية بدلا من الزحف على الشرق ، ووجد سليمان الفرصة للانفلات ، أما بقية ضباط وجنود اشبيلية وشذونة فقد قبض عليهم تنفيذاً لأمر الأمير مطرف .

كان من الضروري تنفيذ اجراءات ناجحة حاسمة ، وذلك ما فعله « كريب » فقد احتل هو ورجاله جميع أبواب القصر واتجه شطر البهو فوجد به الأمير هشاماً فصاح به وعيناه تتقدان غضبا : « لقد قبض المطرف على أخى ، وانى لمانعك من التسوق وطلب الحاجات ، وأقسم بالله لئن بدر من القائد الى أخى شيء أكرهه لآخذن بثأرى فيك ٠٠٠ » ، فكانت به بالكف عنه وعن قومه ، والرفق بهم ، والاسترحام على نفسك .

كان هشام يعرف أن ليس « كريب » بالرجل الذى يرجع عن تنفيذ تهديداته فبادر فأطاعه الا أن الكتاب الذى بعث به الى المطرف لم يات بالغرض المنشود ، ذلك أن الأمير تهيأ للزحف على اشبيلية بدلا من اطلاق سراح الأسرى وبعث الى كريب بأمره بفتح الأبواب ، وخاف كريب على حياة أقاربه ، وكره مباشرة عمل ما قبل أن تصله الامدادات المنتظرة من « لبلة » و « شذونة » ، ومن ثم رأى الحكمة فى الاعتدال والمسايرة ،

وأذن لعسكر السلطان بدخول المدينة فى جماعات صغيرة لشراء الطعام ، كما وعد بدفع الجزية واطلاق سراح الأمير هشام الذى لم يكن يهتم بشئ اهتمامه بأن يغادر المدينة سالما .

وجه مطرف جيوشه بعد ذلك ضد جند طالب بن مولود المعدى (١٠) وهاجم قلعتى : « مونت قيق » الواقعة على نهر « وادى آره وحصن « أقوط » (١١) ، واستبسل طالب فى الدفاع ، ثم تعهد بدفع الجزية واعطاء الرهائن وحذت حذوه مدينة « بنى السليم » و « وبر » ، واستولى مطرف بالقتال على « بنريشة » وأقام بها حامية ، غير أن سليمان صاحب هذا الحصن والذى كان اذ ذاك فى « أركش » هاجم جيش السلطان قبل وصوله الى مورة ، وكبده خسائر فادحة .

استشيط المطرف غيظا من هذه الهزيمة ، وتجلى غيظه فى الانتقام من ثلاثة من أصدقاء سليمان وأقاربه كانوا بين أسراه حيث عمد الى قتلهم .

وحوالى شهر أغسطس وجد الجيش نفسه ثانية أمام اشبيلية ، واعتقد مطرف أن « كرييا » سيبدى من الطاعة ما أبداه فى المرة الأولى ، ولكن أخطاه التقدير فقد اغتنم « كريب » المهلة التى أتاحت له وصرفها فى اعداد نفسه للدفاع ووصل حلفاؤه الى المدينة ، ومن ثم أبى الخضوع ووجد مطرف حينذاك الأبواب مغلقة ، ف قيد بالحديد خالد بن خلدون وإبراهيم بن حجاج وغيرهما من الأسرى ، على أن ذلك لم يجده نفعاً ولم يقل من شوكة « كريب » الذى عمد الى مغادرة المدينة وباغت طليعة جيش « مطرف » الذى مرت عليه لحظة توقع القوم فيها له الهلاك ، غير أن قواده نجحوا فى تجميع عسكرهم وصدوا الاشبيليين ، وأسرف فى تعذيب خالد وإبراهيم ، كما ظل مقيما ثلاثة أيام سويا يهاجم المدينة دون أن ينال منها ما يشتهى ، ولما كان يريد الانتقام جهد ما أمكنه من بنى خلدون وحجاج فقد استولى على حصن لابراهيم قائم على الوادى الكبير ، وأضرم النيران فى السفن التى وجدها فى الحوض ، ثم أمر بهدم البناء ، وقيد إبراهيم من يديه ورجليه وناوله فأسا وأرغمه على العمل فى هدم حصنه كما خرب حصنا آخر لكريب ، فلما فرغ من ذلك كله انقلب الى قرطبة (١٢) .

ولما عاد الجيش الى العاصمة ووصلت اليها جزية اشبيلية اقترح أحد الوزراء على سيده الذى كان يعمل جهده على الظفر بابن حفصون وان لم يبذل أى محاولة لمسألة الارستقراطية العربية ، أقول ان أحد الوزراء اقترح على مولاه أن يرد على أسراه حريتهم ، بعد أن يحملهم على قطع يمين الولاء له ، وقال له : « ان حبسهم عن حصونهم مما لا يؤمن معه تغلب

ابن حفصون عليها ، وهم على كل حال أضعف شوكة منه ، وإن توثقت منهم بالإيمان ؛ ومننت عليهم بالاطلاق شكروا حادث النعمة ، فنزل السلطان على هذه المشورة ونادى بالاطلاق سراح الأسرى على أن يعطوه الرهائن ، وأن يقسموا خمسين مرة بالمسجد الجامع أن يظلوا مقيمين على الإخلاص له ، فأقسموا له كما أراد ، وسلموه الرهائن ، وكان من بينهم ابن ابراهيم البكر واسمه عبد الرحمن ، لكنهم ما كادوا يعودون الى اشبيلية حتى نقضوا عهودهم ورفضوا دفع الجزية وقاموا بالثورة (١٣) ، وتقاسم ابراهيم وكريب الولاية بينهما مناصفة (١٤) .

طلت الأمور على هذا المنوال حتى سنة ٨٩٩ م [= ٢٨٦ هـ] ، غير أن تكافؤ قوة كل من الزعيمين أدت الى انقسامهما على بعضهما فما لبثا أن تنازعا فيما بينهما ، وحاول السلطان اذكاء هذه الفرقة جهد ما أمكن ، فأبلغ « كريبا » الفاظا كريهة زعم أن ابراهيم قد قالها ضده كما ذكر لابراهيم نوايا كريب السيئة نحوه .

وفي ذات يوم تسلم عبد الله من خالد رسالة يذم فيها له ابراهيم فكتب جوابه في نهايتها وأعطاهها مع رسائل أخرى الى خادم من الخدم عهد اليه بإيصالها ، لكن تهاون الخادم ادى الى سقوط الرسالة منه فالتقطها أحد الخصيان وقراها فراها فرصة للحصول على مكافأة طيبة فأعطاهها الى رسول من رسل ابراهيم وأوصاه بتسليمها الى مولاه .

ما كادت عينا ابراهيم تقعان على المكتوب حتى تأكد لديه أن بنى خلدون يتآمرون على سلطته وحرите بل وعلى حياته ، لكنه كان يعرف أن لابد من اصطناع الحيلة ان أراد الانتقام ، ومن ثم تغالى في الظاهر بالود لهم ، ودعاهم لتناول الطعام عنده فأجابوا دعوته ، وبينما هم على المائدة اذا بابراهيم يطلعهم على كتاب خالد وانطلق يسلمهم بالسنة حداد ، فانتصب خالد واقفا واستل خنجره من كمه وضرب به ابراهيم فى رأسه فتمزقت قلنسوته وأصاب الجراح وجهه ، وسرعان ما نادى على جنده الذين تكاثروا على رجلى بنى خلدون وقتلوهما ورمى ابراهيم برأسيهما فى الساحة ، وهاجم حرسهما الموجود بها فقتل البعض وفر البعض الآخر .

خلصت سيادة الولاية بلا منازع لابراهيم ، لكنه لما كان يشعر بضرورة تبرير مسلكه أمام السلطان الذى كان لا يزال محتفظا بابنه عنده فقد بعث اليه يقول انه لم يكن له أن يسلك غير ما سلك ، وأن بنى خلدون كانوا يحرضونه دائما على الثورة ، وأنه كان فى أعماق نفسه لا يقرهم على وجهة نظرهم ، كما تعهد له بتدبير جميع الأموال المطلوبة لبيت المال ، ودفع سبعة آلاف دينار سنويا اذا عينه السلطان حاكما ، فقبل السلطان

عرضه ، غير أنه بعث في الوقت ذاته الى ولاية اشبيلية شخصا اسمه « القاسم » ليشارك ابراهيم في حكمها ، ولم يكن ابراهيم راضيا عن وجود شريك له ، وبعد بضعة أشهر أعلن للقاسم أنه زاهد في خدماته ، شاكرا له اياها .

بعد أن تخلص ابراهيم من القاسم بهذا الأسلوب المتشامخ أراد من السلطان أن يرد عليه ولده ، فكثرت توسلاته اليه من أجل ذلك الغرض ، لكنها باءت بالفشل ، وأبى السلطان أن يتخلى له عن رهيئته ، وطمح ابراهيم في ارباب السلطان فرقص دفع الجزية وحالف (١٥) ابن حفصون سنة ٩٠٠ م [= ٢٨٧ هـ] .



كان هذا التحالف في صالح الزعيم الأندلسي الذي استولى على « استجة » قبل ذلك بثلاث سنوات (١٦) فلما كان العام المنصرم تخلص من تردده واستقر عزمه على التنصر فتنصر هو وجميع أفراد أسرته ، والواقع أنه كان مسيحيا في قرارة نفسه من زمن بعيد ، ولم يكن يحول بينه وبين اقتفاء مسلك أبيه الذي عاد الى حضن الكنيسة قبل ذلك بعدة سنوات (١٧) سوى خوفه من أن يفقد حلفاءه المسلمين ، وقد برهنت الحوادث على صدق مخاوفه ، اذ انفصل عنه واحد من أبرز قواده وهو يحيى بن أناتول ، الذي كان شديد الرغبة في العمل تحت امرة عمر بن حفصون المسلم ، ثم أبى عليه ضميره أن يشتغل مع صمويل النصراني وهو الاسم الذي تسمى به عمر بعد تعميده (١٨) .

كما أن [عوسجة] بن الخليفة (١٩) سيد قسيط البربري وحليف عمر حتى ذلك الوقت أعلن الحرب على ابن حفصون وحاول التقرب من السلطان ، وهكذا كان لمسلك المرتد وقع عميق في كل مكان ، ففرح المسلمون الذين في اقلية « الكافر » من أن يشغل النصراني الوظائف العليا ، كما ضاع أمل المؤمنين الصادقين وخافوا أن تساء معاملتهم ، ودأب البلاط - بمعاونة الفقهاء - على اذاعة هذه الشائعات . سواء أكانت حقيقية أم مدسوسة . وحاول أن يؤثر على المخلصين بأن خلاصهم النهائي سيخطر ان لم يقوموا قومة رجل واحد لتحطيم هذا « الخبيث » (٢٠) .

في تلك الظروف أم يكن هناك أيدي علي ابن حفصون من عرض صاحب اشبيلية عليه فقد نشئ في كل مكان عن إلقاء له ، ففاوض ابراهيم بن القاسم صاحب « أرذيلة » في مراکش (٢١) ، وفاوض بني قسي (٢٢) وراك ليون (٢٣) ، غير أن تحالفه مع ابن حجاج كان بلا شك أجداها جميعا عليه ، اذ طمح أن يقربه هذا الحلف من نفوس المسلمين فيبادر الي عقدته .

وأضعفه إبراهيم بالمال والخيول فعادت قوته الى ما كانت عليه سالفا من
البأس (٢٤) .

عاود سوء الحظ السلطان الذي كانت سياسته تسير عكس ما يشتهى
رغم كل ما يفضله ، فقد فشلت المحاولة التي اصطنعها لمسالة أقوى سيد
عربي ، مثلما فشلت محاولاته السابقة في كسب زعيم الجماعة الاسبانية ،
وأصبح موقفه يدعو الى الرثاء ، فقد كان عليه - اذا أراد مقاومة التحالف
المعقود ضده - أن يوجه ضده جميع جنوده مما يحمله على التخلي عن
الحملات السنوية التي كان يرغم بها الثوار الآخرين على دفع الجزية له
فان هو فعل ذلك وقع في ورطة الحاجة الى المال ، وواضح أنه لم تكن له
حرية الاختيار اذ لم يبق أمامه غير سبيل واحد ألا وهو التذلل أمام
ابن حفصون والاتفاق على شروط صلح يرتضيه الطرفان ، ونحن نجعل
ما ارتضياه من الشروط وان كنا نعرف أن أمد المفاوضة طال حتى تم
الصلح سنة ٩٠٩ م [= ٢٨٩ هـ] فأرسل ابن حفصون الى قرطبة أربع
رهائن من بينها أحد صرافيه واسمه خلف وكذلك ابن مستنة (٢٥) .

لم يطل أمد هذا السلم بينهما ، وسواء أكان ابن حفصون لم يجد
فيه ما كان يؤمله أو أن السلطان لم ينفذ شروط الاتفاق فقد شبت الحرب
بينهما عام ٩٠٢ م [= ٢٩٠ هـ] ، ففي هذه السنة تحدث ابن حفصون
مع ابن حجاج في « قرمونة » فقال له : « أنفذ الى خيرة رجالك وول عليهم
هذا العربي الكريم (٢٦) ، واننى لماض لقتال ابن أبى عبدة فأظهر عليه
وأقتله ثم نهب قرطبة » .

وسيج « فجيل » هذا الحديث ولما كان عربيا صميما فقد كان
أميل للسلطان منه الى هؤلاء الاسبان ، فجرحه أسلوب ابن حفصون الساخر
وقال له : « انك لتعلم انك من نفل الذين عليهم مداره من ذوى الحمية ،
وهم كثير » .

فقال له ابن حفصون : « ومن هو ابن أبى عبدة هذا حتى تخوفنيه ؟ »
وهل عنده من الرجال ما عندي ؟ » .

فأجابه به : « انه والله ما يرضى بالفرا » .

ووافق ابن حجاج على خطة حليفة رغم معارضة « فجيل » وأمر قائده
بالانضمام اليه .

وعلم ابن حفصون من جواسيسه أن القائد الأموي غادر « شنيل » ،
وأنه ضرب خيامه في « اسطبة » فمضى ابن حفصون لمهاجمته ، وعلى الرغم

من أنه لم يكن معه سوى فرسانه فقد كان انتصاره كبيرا ، وقتل ما ينيف على خمسمائة رجل من العدو ، حتى اذا دنا المساء وصل مشاته الى ميدان القتال وكانوا خمسة آلاف رجل فلم يدعهم يستجمعون بل أمرهم بالتقدم فى لحظتهم ثم دخل خيمة « فجيل » وقال له : « هلا نهضت للقتال ؟ » فسأله : « ومن أقاتل ؟ » قال : « تقاتل ابن أبى عبدة ! » فأجابه فجيل : « الرجل حمى الأنفة ، عظيم الهمة ، لو اجتمع عليه أهل الأندلس ما رضى بالفرار ولا ركب طريقه ، وفتحان فى يوم واحد تحكم على الله واحتقار لما ابتدا به من النعمة ، وقد تهيأت لك وقعة يتحير فى ذلها مدة ، وبالحرى أن تدرك منه فرصة فحد عنه جهدك ، وخله والطريق ، وتهن مسرة فتحأك » .

فقال ابن حفصون : « ما أبعد ما ظننت ، وما هو الا أن يشعر بنا فيركض فرسه ويطير على وجهه ، وحماذاه أن يفوتنا بركضه ، وغدا يدخل قرطبة لا محالة لا يستثنى فى أمنته » فنهض ابن فجيل ولبس سلاحه ودرعه وقال : « اللهم انك تعلم أنى برىء من شؤم هذا الراى فسلمنى من خطئه » .



بينما كان المتحالفون يسرون صامتين بغية مفاجأة العدو كان ابن أبى عبدة - وهو لا يزال خجلا من هزيمته - جالسا الى احدى الموائد ، واذا به يفتبه فجأة الى عاصفة من العجاج ثارت على مسافة بعيدة فقام للحال واحد من أحسن رجالاته واسمه « عبد الواحد الروطى » وغادر القسطنطاط ليتبين الأمر ثم عاد ليقول : « ان غبش الظلام يطمس المعالم أمامى ، لكنى أحسب أن ابن حفصون قادم نحونا برجاله وفرسانه ليفجؤنا » .

ما كاد « الروطى » يقول هذا حتى بادر الضباط الى سلاحهم وجروا الى خبولهم فاعتلوا ظهورها واستصحبوا رجالهم لصعد العدو، حتى اذا صاروا على مقربة منه صاح كثير من الجند « أغمدوا الرماح وأشهروا السيوف ! » ، فلبى القوم أمرهم واذا ذاك حاجم رجال السلطان أعداءهم فى ضراوة شديدة حتى لقد قضاوا على أكثر من ألف وخمسمائة رجل منهم وأرغموهم على طلب التجاة فى الهروب الى مخبأاتهم .

فلما كان صباح اليوم التالى بلغ السلطان خبر انتصار جيشه بعد هزيمته ، فأظهر غضبه على المتحالفين وأمر بقتل من عنده من رهائنهم ، وأجهز بيده على ثلاثة منهم ، أما الرابع وهو ابن مستنة فقد أبقى السلطان على حياته اذ قطع العهد على نفسه أن يخلص للسلطان منذ الآن (٢٧) .



جاء دور عبد الرحمن بن حجاج الذى لم ينخر أبوه المال ولا المواعيد فى سبيل توفير أصدقاء له فى البلاط ، ودأب على القول بأنه عائد الى

طاعة السلطان حالما يرد عليه ابنه (٢٨) ، فكان من أصدقائه « بدر الصقلي » الذى جرؤ على الإشارة الى ذلك القول أمام السلطان وهو يتهيثو لقتل عبد الرحمن [ابن حجاج] قائلا له : « يا مولاي عندي نصيحة تسمعها وان لم يكن من قدر مثلى الإشارة عليك بالنصح ، فقد نفذ قتل ابن أخى ابن حفصون بقدر لا يرد ، فان قلت ولد ابن حجاج معه فى مقام واحد عقدت ما بينهما من الحلف ما بقيا ، وابن حجاج عربى ترجى فيآته ، وابن حفصون مولد لا تطفأ غلته » ، فاستدعى السلطان وزراءه (٢٩) وسألهم الرأى فاستصوبوا رأى بدر ، فلما خرجوا من عنده عاد بدر لمحادثة مولاه مؤكدا قدرته على الاعتماد فى المستقبل على اخلاص الزعيم الاشبيلي ابن حجاج ان هو رد عليه ابنه عبد الرحمن ورد على عبد الرحمن [بن حجاج] حريته ، فلما رأى [بدر] تردد مولاه وتوسل اليه بصديق له من ذوى النفوذ هو الخازن التجيبى فى أن يشير عليه بالرأى الذى ارتآه بدر والاخذ به فى كتاب يرفعه اليه ، فلما طالعه عبد الله تلاشى تردده وطلب الى التجيبى أن يبعث بعبد الرحمن [بن حجاج] الى أبيه (٣٠) .

لن نصف الفرحة الفامرة التى أحسها ابن حجاج حين ضم الى صدره ابنه البكر الذى افتقده سنوات عدة ، وفى هذه المرة أظهر عرفانه للجميل بصورة أعظم من كل مرة سابقة ، ولقد صدق حينما قال فى الخطاب الذى وجهه الى السلطان بعد موت رجله ابن خلدون أن هذين كانا يدفعانه دائما على الثورة ، وكان « كريب » شيطان سوء له ، فلما مات هذا الخائن الطماع تغير ابن حجاج تغيرا تاما ، فهو - وان لم يقطع علاقاته مع ابن حفصون الذى دأب على وصله بالهدايا - الا أنه لم يعد حليفه ، كما أخذ يبعث فى انتظام الى السلطان بالجزية والرجال بدلا من مناجزته العداء (٣١) ، وأصبحت علاقاته به منذ ذلك الوقت علاقة الأمير الاقطاعى بسيده الا أنه كان مطلق التصرف فى أملاكه ، فكان له جيشه الخاص به يدفع له أجره من جيبه كما يدفع السلطان رواتب عسكره الخاص ، وكان هو الذى يعين جميع الموظفين بأشبيلية من القاضى وصاحب الشرطة الى أقل حاجب أو حارس للمدينة ، ولم يكن ينقصه أبدا شئ من الأبهة الملكية ، فكان له مجلس قضاء وجيش يتألف من خمسمائة فارس ، وكانت الطرز تخرج باسمه ، ولقد أحسن استعمال سلطته فكان شديدا فى الحق حتى انه لا تأخذه هوادة فى الضرب على أيدي المجرمين ، وأقر النظام بيد من حديد ، فكان أميرا وتاجرا وأديبا ومجبا للفنون ، وكانت سفنه تأتى اليه محملة بهدايا الحكام عبر البحار وبأقمشة مصر ، ويفد عليه علماء بلاد العرب ومغنيات بغداد ، ودفع مبلغا جسيما فى « قمر » الجميلة (٣٢) التى سمع الثناء المستطاب على مواهبها ، كما استقدم الى بلاطه أبا محمد العذرى (٣٣) البدوى أحد علماء اللغة بالحجاز .

وكان العذرى نسيج وحده فى فصاحة اللغة وجمال التعبير ، وكانت
« قمر » الرقيقة تضم الى موهبتها الغنائية فصاحة طبيعية وعبقرية شعرية ،
وكانت عالمة بضروب الادب ، وفى ذات يوم عرض بعض الجهال الذين
يتفاخرون بشرف مولدهم بأصلها وماضيها فقالت (٣٤) :

قالوا أنت « قمر » فى زى أطمار من بعدما هتكت قلبا بأشعار
تمشى على وجل ، تغدو على سبل تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرة هى من أحرار موضعها ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم لله من أمة تزرى بأحرار
ما لابن آدم فخر غير همته بعد الديانة والاخلاص للبارى
دعنى من الجهل لا أرضى بصاحبه لا يخلص الجهل من سب ومن عار
لو لم تكن جنة الا لجاهله رضىت من حكم رب الناس بالنار

ويبدو أن قمرا لم تكن توقر عرب الأندلس ، ولما كانت قد تعودت
بشاشة بغداد المستملحة فقد وجدت نفسها ملقاة فى بلد لا يزال يحتفظ
الى حد بعيد بمظاهر خشونة العهد القديم ، ولم يلق أحد من قبول لديهم
غير الأمير الذى قالت تمدحه :

ما فى المغارب من كريم يرتجى الا حليف الجسود ابراهيم
انى حللت لديه منزل نعمة كل المنازل - ماعدا - ذميم (٣٥)

لم تبالغ قمر فى امتداحها ما كان عليه ابراهيم من السخاء الذى شهد
له به الجميع فوفد عليه زرافات من شعراء قرطبة التى كان سلطانها البخيل
يكد يتركهم يموتون جوعا ، وكان على رأسهم شاعر القصر ابن
عبد ربه (٣٦) ، فما قصر ابراهيم أبدا فى وصلهم وصلا جميلا ، وحدث
فى مرة واحدة فقط أن كف يده عن العطاء وذلك حين ألشده القلغاط (٣٧)
- وكان هجاء مقذعا - قصيدة تفيض بالسخرية المريرة من وزراء قرطبة
ورجال البلاط فيها ، وعلى الرغم من أن ابن حجاج كان يكره بعضهم الا
أنه لم يبد أى مظهر من مظاهر الاستحسان لهجومهم ، فلما فرغ الشاعر
قال له فى برود « أخطأت ان كنت تحسبنى ممن يغرم النيل من غيره ا » .

وعاد القلغاط الى قرطبة صفر اليدين يائسا مفضيا ، فنفس عن
حقده بقوله :

لا تنكرى للبين طول بكالى فالبين برج بى وعيز عزائى
أبغى نوال الأكرمين معا ، ولا - أبغى نوال البومة البكماء

ولم يكن ابن حجاج بالرجل الذي يحتمل أمثال هذه السفاهات فلما
سمع كيف انتقم الشاعر منه كتب اليه يقول : « والله الذي لا اله الا هو
لئن لم تكف عنى ما أخذت فيه لأمرن من يأخذ رأسك وأنت فى فراشك » .
ومنه ذلك الحين كف القلقاط عن هجو صاحب اشبيلية (٣٨) .

الفصل السابع عشر

استسلام اشبيلية للسلطان عبد الله ثم استسلام بقية
الأقاليم له • الانتصارات السلطانية • «لب» يوادع السلطان •
موت عبد الله واستخلاف عبد الرحمن الثالث وسياسته
الصريحة • توالى هزائم الثوار وضعف حماسهم • ابن حفصون
يضاعف من كراهيته للعرب والمسلمين • تطلع «أرجنتيا»
بنت ابن حفصون للاستشهاد • قيام عبد الرحمن الثالث
بمهاجمة حصن جيان والمتلون • استسلام كثير من حلفاء
ابن حفصون لعبد الرحمن • انتصارات عبد الرحمن المتتالية •
الأرستقراطية الاشبيلية تتطلع الى ابن حفصون ولكنها تمنى
بالحزيمة أمام عسكر عبد الرحمن الذي تعتزم قواته مهاجمة
مريّة • استيلاؤه على حصن طرش • المجاعة تجتاح قرطبة •
نهاية ابن حفصون وموته •

الفصل السابع عشر

عهد عبد الرحمن الثالث

كان اتفاق السلطان مع ابن حجاج فاتحة عهد جديد هو عهد استقرار قوة السلطان ، فقد كانت اشبيلية مركز الثوار في جميع أنحاء الغرب ، فلما استسلمت وجدت جميع الأقاليم الممتدة من الجزيرة الخضراء حتى لبلبة نفسها مضطرة هي الأخرى للاستسلام (١) ، وقد دأبت هذه الولايات - في السنوات التسع الختامية من حكم عبد الله - على دفع الجزية بانتظام تام ، ومن ثم لم تعد هناك حاجة لارسال الجند اليها ، واستطاع السلطان اذ ذاك توجيه كل قواته ضد الجنوب ويرجع الفضل في هذه النتيجة الطيبة الى نصيحة بدر الحكيمه ، لذلك لم يتوان السلطان عن اظهار امتنانه له ، فلقيه بالوزير وأدناه اليه ووثق به ثقة بالغة حتى ان بدرا رغم انه لم يكن حاجبا الا أنه « كان الحاجب في الحقيقة (٢) » .

لقيت جيوش السلطان في الجنوب انتصارات توالى بعضها في اثر بعض فاستولى جنده عام ٩٠٣ م [= ٢٩١ - ٢٩٢ هـ] على « جيان » ، وانتصروا سنة ٩٠٥ م [= ٢٩٣ هـ] في معركة وادي بولون على ابن حفصون وابن مستنة (٣) .

كذلك انتزع السلطان قنيط من بني الخليع (٤) سنة ٩٠٦ م [= ٢٩٤ هـ] ، فلما كان العام التالي ٩٠٧ م [= ٢٩٥ - ٥٢٩٦] استخلص « لوقه » من ابن مستنة (٥) ، كما استولى على « بياسة (٦) » ، في سنة ٩١٠ م [= ٢٩٨ - ٢٩٩ هـ] ، كما ثار في السنة التالية سكان « أشر » على مولاهم « فضل بن سلمة » صهر ابن مستنة فقتلوه وبعثوا برأسه الى السلطان (٧) الذي أصاب نفس هذا التوفيق في الشمال ، فقد حدث في سنة ٨٩٨ م [= ٢٨٥ هـ] أنه اشتد الخوف من اتحاد أقوى رجل في الشمال مع أقوى رجل في الجنوب ، اذ وعد محمد بن لب - من بني

قسى - بالشخص الى ولاية جيان للاتفاق مع ابن حفصون ، وحالت حربه مع الانقر (٨) حاكم سرقسطة من المجيء بشخصه ، فأرسل مكانه ابنه « لبأ » الذى بلغ « جيان » وتلبث ينتظر مقدم ابن حفصون ، واذا به يعلم نبأ مقتل أبيه وهو قائم على حصار سرقسطة وذلك فى أكتوبر ٨٩٨ م [= ربيع الآخر ٢٨٥ هـ] ومن ثم عاد الى بلده دون أن ينتظر مجيء ابن حفصون ، وانطوى كل خبر عن مشروع التحالف الذى كان يقض مضجع البلاط (٩) .

بذل لب كل جهده فى الحصول على عطف السلطان عليه بدلا من مناجزته العداء ، فعينه السلطان حاكما على تطيلة و « طرزون » ، واستعمل « لب » قواته فى حروبه الدائمة ضد جيرانه ومنهم صاحب وشقة وملك ليون وكونت برشلونه وكونت « بلادز » وملك نفارة ، ولم يكف عن محاربتهم حتى لاقى منيته فى معركة ضد ملك نفارة (١٠) سنة ٩٠٧ م [= ٢٩٥ هـ] فلما خلفه أخوه عبد الله لم يحارب السلطان بل حارب ملك نفارة (١١) ، واذا ذاك لم يعد بنو قسى خطرا على الأمويين .

كانت الأمور تجري فى كل مكان وفق ما يشتهى السلطان ، فكان أهل قرطبة ينظرون فى طمأنينة الى الغد (١٢) ، وراح الشعراء بنظمون أناشيد النصر التى بعد العهد بينهم وبينها منذ تسع سنوات ، وكانت قوة عبد الرحمن تخطو خطوات وثيدة الى الأمام ولكن لم يتم شيء ذو بال حتى كان يوم ١٥ أكتوبر ٩١٢ م [= الثالث من ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ] حين مات عبد الله فى الثامنة والستين من عمره بعد أن امتد حكمه أربعة وعشرين عاما (١٣) .



كان اسم ولى العهد عبد الرحمن وهو حفيد عبد الله ابرر محمد البائس الذى قتله أخوه مطرف بأمر أبيه (١٤) ، فدرج عبد الرحمن فى مهاد اليتم ، وكفله جده الذى كان ضميره يوخزه على الدوام ، ومن ثم أحاط هذا الطفل الصغير بكل عطفه ، واختاره منذ زمن بعيد ليكون خليفة من بعده (١٥) ، ولما كان عبد الرحمن لا يعدو الثانية والعشرين (١٦) من عمره فقد خيف أن ينازعه أعمامه التاج اذ لم يكن ثم قانون للوراثة فقد جرت العادة أن يعتلى العرش - حين يخلو العرش من جالس عليه - الابن البكر أو أقوى رجال الأسرة المالكة ، ولكن الأمور سارت على عكس ما كان متوقعا ، فلم يعارض أحد فى اختيار عبد الرحمن الذى رحب به جميع الأمراء ورجال الحاشية ، ورأوا فيه الدليل على مقدم الرخاء والمجد ، وقد عرف الأمير

الشباب كيف يجتذب العطف عليه وأوحى الى جميع من عرفوه بفكرة عالية عن مواهبه (١٧) .

ومع أن عبد الرحمن الثالث قد تابع العمل الذى بدأه جده الا أنه اصطنع لذلك وسيلة أخرى فاستبدل بسياسة عبد الله الرجعية المتلوية سياسة تتسم بالصدق والجرأة والاقدام ، ودفعه اذراؤه للوسائل المعوجة الى مصارحة الثوار الاسبان والعرب والبربر أن ليست الجزية هى غاية ما يطلبه منهم بل انه يطلب أيضا حصونهم ومدنهم ، ووعد الذين يخضعون له بالعفو الشامل ، وهدد من ليسوا كذلك بالعقاب الشديد .

وخيل للناس أن هذه المطالب لا بد وأن تدفع اسبانيا كلها للتكاتف ضده ، لكن لم يحدث شيء من ذلك أبدا ، فلم تجر شدته المتاعب عليه بل كبحت الجماع ، كما أن الخطة التى انتهجها لم تكن بعيدة عن الصواب ، فقد كانت خطة نيرة أملت ظروف الأحداث الجارية ومقتضيات الأحوال .

وحدث التطور بالتدريج ، ولم تبق الأرستقراطية العربية على ما كانت عليه من البأس فى مستهل حكم عبد الله ، إذ فقدت أبرز رجالها بموت سعيد بن جودى وكريب بن خلدون وإبراهيم بن حجاج (١٨) ، وخلا الميدان من رجل تؤهله مواهبه وقدرته على سد الفراغ الناجم عن موت هؤلاء الرجال البارزين .

لكن بقى الفريق الاسبانى الذى كان معظم زعمائه لا يزالون على قيد الحياة ، ولم يفقد هذا الفريق كثيرا من قوته ، غير أن الشيخوخة كانت قد دبت فى هؤلاء الزعماء الذين لم تعد جماعتهم — كما كانت من قبل ثلاثين سنة — تفيض حماسة وحمية فتقوم قومة رجل واحد استجابة لدعوة ابن حفصون لخلع النير الأجنبى ، بل خمدت هذه الحمية الأولى وانطفأ سعيها ، وانقضى جيل ٨٨٤ م [= ٢٧١ هـ] المتحمس الثائر ، وخلفه جيل جديد لم يرث عن سلفه آلامه وأنفته ، ولا مشاعره وحماسه ، ولم يعد هناك ما يدعو الى كراهية الحكومة إذ لم تتعرض لهذا الجيل بالضغط ، ومع ما كان يشعر به هذا الجيل من البؤس فى أعماقه ، وعلى الرغم من تدمره الا أنه لم يكن يشكو من الاستبداد قدر شكايته من الفوضى والحروب الأهلية لما كان يشاهده كل يوم من قيام جند السلطان وجماعات الثوار بتخريب الحقول التى تدمهم بالغلة الوفيرة وقطعهم أشجار الزيتون المثمرة وأشجار البرتقال ، وحرقتهم الدساكر والقرى ، ومع أن عرش السلطان كان يضطرب فى بعض الأحيان الا أنه كان يعود ثانية كالطود الراسخ مما لم يكن مشجعا لهذا الجيل على عمل ما ، ودلت الجميع غرائزهم على أنه اذا كانت الثورة الوطنية الكبرى قد عجزت عن تحقيق

أهدافها إبان الفترة الأولى من الحماسة فلم يتأتى لها بعد ذلك أبدا تحقيق هذا الهدف، وإذا كان هذا هو الشعور السائد في الوقت الذي كان الفريقان فيه يتناوبان النصر والهزيمة فقد تأكد هذا الشعور في النفوس تأكيدا راسخا حين لم يعد الثوار يلقون غير الهزيمة بدل النصر ، وغير التقهقر بدل التقدم ، وبدأ الناس حينذاك يتساءلون عن الجدوى من قتل هؤلاء الشجعان وموتهم ، وعما إذا كان هذا عقابا للقتل والتدمير اللذين لا يرضاهما الله ، وكان أول المتسائلين بهذا السؤال هم سكان المدن الكبرى الذين كانوا أميل الناس للراحة وأرغبهم في الرفاهية ، ولم يجدوا جوابا مقنعا عن سؤالهم هذا ، وقالوا بأن التمتع بالسلم أجدى عليهم من الحروب الأهلية التي تصحبها الاضطرابات وتعقبها الفوضى ، فأذعنن البيرة من تلقاء ذاتها وسقطت جيان ودفعت أرشدونة الجزية ، أما سيرانيا Serrania مهد الثورة فلم تخمد حماستها بسرعة لكن أخذت تظهر فيها دلائل الضعف وعلامات التخاذل ، فلم يعد الجبليون يبادرون إلى الانضمام إلى الراية الوطنية ، حتى لقد اضطر ابن حفصون لأن يقتفى أثر السلطان في استعماله الجنود المرتزقة من طنجة (١٩) ، ومنذ ذلك الحين أخذت الحرب تفقد كثيرا من طابعها الأول ، واتسمت بازدياد التخريب إذ كان هدف كل من الفريقين افقار الآخر حتى يعجز عن دفع رواتب جنده الأفريقيين ، وأصبحت الحرب تنقصها الحماسة العنيفة التي كانت تنسم بها من قبل فلم تعد حربا دامية، وكان بربر طنجة على استعداد على الدوام للعمل تحت راية أى فريق يلوح لهم بآتفه زيادة في رواتبهم (٢٠) ، فلم يكونوا يرون الحرب سوى وسيلة سهلة لقضاء الفراغ والتسلية ، فكانوا يحاربون خصومهم الذين كانوا أصدقاءهم بالأمس وربما صاروا كذلك في الغد ، وكان قتلاهم في أكثر المعارك لا يتجاوزون اثنين أو ثلاثة ، وربما لم يقتل أحد منهم في بعض الأحيان ، وكانوا يكتفون من الحرب بجراح تصيب بعض رجالهم وبقتل بعض الخيل (٢١) ، ولا شك أن الرغبة في الحصول على الاستقلال بمعونة مثل هؤلاء الجند وفي وقت لم يعد به التجنيد من المتحمسين النافرين كافيا . . . لا شك أنه مشروع خيالي ، والظاهر أن ابن حفصون قد أدرك هذا الأمر وعرف تلك الحقيقة فاعترف في سنة ٩٠٩ م [= ٢٩٧ - ٢٩٨ هـ] بسيادة عبيد الله الشيعي الذي انتزع الشمال الأفريقي من الأغلبة (٢١) ، ولم يؤد هذا التحالف الغريب إلى أى فائدة ، لكنه دل على أن ابن حفصون لم يعد يعتمد على أبناء بلده .

والى جانب أسباب الانحطاط العام في اليقين والشجاعة فإنه يجب علينا أن نذكر تدهور القيم المعنوية عند السادة أصحاب القصور لا سيما في ولايتي جيان والبيرة الذين نسوا أنهم امتشقوا الحسام من أجل الدافع الوطني ثم أصبحوا في قصورهم ذات الأبراج العالية لصوعا لا يردعهم

رادع من قانون ولا دين ، وأصبح هؤلاء السادة يتربصون فى قلاعهم للمسافرين وينقضون عليهم انقضاض الصقر على الفريسة غير مفرقين بين عدو وصديق ، فراح الناس فى كل دسكرة وقرية يلعنون هؤلاء الطغاة ، أما من تحدثه نفسه بتخريب أبراجهم الضخمة وهدم أسوارهم الحصينة فكان يستحق شكر المقيمين بتلك الناحية ، لكن من ذا الذى يقدم على هذا العمل وقد أحجم السلطان ذاته عنه ؟

ثم أليس من الطبيعى بأن تلتف آمال الشعب المنكود حول سلطانه ؟
زد على ذلك أنه ينبغى علينا أن نلاحظ أن الصراع فقد طابعه الوطنى والعالمى الذى امتاز به فى البداية وأصبح صراعاً دينياً بحثاً •

لم يكن ابن حفصون يفرق فى مستهل الأمر بين المسلمين والمسيحيين ، ولم يكن يسأل أحداً ما عما هو عليه من دين ، بل تكفيه اسبانيته ورغبته فى الدفاع عن الصالح العام ومعرفته أساليب القتال ، لكن تغير كل شيء منذ أن جاهر هو وحليفه القوى ابن منتسة (٢٢) باعتناقهما النصرانية ، ومنذ أن استردت هذه الملة قوتها السالفة ، ومنذ أن أخذت الكنائس الفخمة تقام فى كل مكان ، ولم يعد ابن حفصون - أو صمويل كما سُمى نفسه - يثق بغير النصارى الذين اقتصر عليهم الوظائف السامية ، وخصهم بالمراتب الرفيعة ، كما غدت « يوبشتر » بؤرة للتعصب الشديد الذى يضارع التعصب الذى كان يضطرم فى نفوس رهبان قرطبة قبل ستين عاماً •

وقامت « أرجنتا » بنت ابن حفصون المتحسسة منكراً على أبيها الحاحه عليها الانصراف الى شئون البيت بعد موت زوجها « كولومبرا » ، وأقامت فى القصر نفسه شبه دير ، ولما كانت يائسة كثيراً من انتصار الأندلسيين فقد تطلعت للاستشهاد لا سيما حين تنبأ لها أحد الرهبان بأنها ستموت فى سبيل المسيح (٢٣) •

ولقد وقف هذا التحمس الدينى والاستخفاف بالمسلمين حجر عثرة أمام المحاربين من أجل استقلال البلد ، وكان الكثيرون منهم - رغم كراهيتهم للعرب - شديدي التعلق بالدين الذى أخذوه عنهم ، اذ يجب ألا ننسى أن الاسبانى شديد التعصب للدين الذى يعتنقه ، فعلم العبيد القدامى وأبناؤهم جهدهم على الحيلولة دون سيادة النصرانية مرة أخرى لأنها اذا عادت عادت معها الادعاءات القديمة البالية التى سيكونون ضحية لها ، ومن ثم أخذ الاسبان - المسلمون والمسيحيون - ينظرون الى بعضهم نظرة الغيرة والحقد فى كل مكان ، حتى لقد شبت بينهم فى بعض المناطق حروب

دامية ، وقد حدث فى ولاية جيان أن استعاد « ابن الشالون » (٢٤) قلعة Cazlona التى كان النصارى قد سلبوها منه ، كما قتل جميع حاميتها سنة ٨٩٨ م [= ٢٨٥/٢٨٦ هـ] .

غير أن هذا الفريق كان أقل قوة مما يخطر بالبال ، اذ انطفأت فيه جذوة الحماسة التى تستطيع وحدها القيام بأعمال البطولة والعظمة ، ويرجع انطفأؤها لتفرق رجال ذلك الفريق أيدي سبا ولعدم استطاعته البقاء إلا بواسطة استئجار المرتزقة الافريقيين فدبت فيه الفوضى ، اذ كان بين رجاله فئة تكره فكرة الاتفاق مع السلطان وهو المدافع الطبيعى عن الأمور لا سيما اذا كان هذا السلطان هو عبد الله (٢٥) .

كان من المستحيل على تلك الفئة أن تضع يدها فى يد ذلك الطاغية القبط الذى دس السم لاثنتين من اخوته وشق ثالثا ، كما قتل اثنتين من أبنائه لمجرد الشك البسيط « دون أن يحاكمهم » .



مات عبد الله وخلفه سلطان ليس على شاكلته ، لكن كان له ما يجتذب اليه عطف الشعب وثقته فيه ، وكان فيه كل ما يسر هذا الشعب ويحببه اليه ويدفعه الى طاعته ، كما كان له ذلك المظهر الخارجى الذى لم يناله الحاكمون جزافا ، فكان على جانب كبير من الظرف الجذاب مما هيبأ له الأبهة (٢٦) ودفع كل من عرفه من قرب للشناء عليه والى امتداح خصاله والاشادة برحمته وطيبته التى تجلت فى تخفيف (٢٧) الضرائب ، كما عطف عليه ذوو القلوب الرحيمة لنكبة أبيه المقتول فى نضرة شبابه ، ولم ينس الناس أن هذا الأب قد لاذ ببوشترو مستعيذا بها ، وأنه انضم حينذاك للراية الوطنية .

اعتلى الحاكم الشاب العرش وسط مظاهر العطف الشديد عليه ، ووجدت المدن الكبرى غاية أمانيتها فى فتح أبوابها له ، وضربت « أستجة » المثل فلم ينقض شهران ونصف شهر على موت عبد الله حتى استسلمت يوم ٣١ ديسمبر ٩١٢ م [= ١٥ جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ] لمحاصرها بدر الذى لقب فيما بعد بالحاجب (٢٨) ، غير أن عبد الرحمن أراد أن يكلل هامته بالفار فى ميدان القتال ، فما أقبل الربيع أغنى ابريل ٩١٣ . [= ٣٠١ هـ] حتى تسلم قيادة الجيش ومضى لاختضاع أصحاب حصص «جيان» ، وكان الجند لم يروا منذ سنوات سلطانا يتولى قيادتهم اذ لم يساهم عبد الله فى القتال منذ حملته على « كركبولى » (٢٩) سنة ٨٩٢ م [= ٢٧٩ هـ] ولا شك أنه كان لتغيب السلطان أثر سيئ فى نفسية الجنود ، أما الآن فقد هتفوا فى حماسة للحاكم الشاب الأملئ الذى أراد مشاطرتهم فى فخرهم وفيما يكابدونه من المتاعب والأخطار .

وصل عبد الرحمن الى « جيان » فعلم باتصال ابن حفصون بالحزب
الثائر فى « أرشذونة » (٣٠) وبطلعه الى الاستيلاء عليها ، فأرسل فى
لحظته احدى الكتائب وأمر قائدها بمهاجمة البلد بأقصى سرعة ممكنة ،
فنفذ القائد الأمر مما أدى الى فجيعة ابن حفصون فى أمه .

ثم مضى السلطان فحاصر « المنتلون » وكان صاحب حصنها سعيد
ابن هذيل أحد حلفاء ابن حفصون القدامى فأثر المفاوضات على الحرب لكنه
أبصر الحصن وقد أحرق به العسكر السلطانى يوم الأحد ، ثم ما لبث أن
وقع فى أيديهم يوم الثلاثاء .

أما ابن الشالية : اسحق بن ابراهيم بن منتسة فقد قام هو
وسبعة (٣١) آخرون من أصحاب القلاع فخصعوا للسلطان قبل أن يظهر
أمام حصونهم وطلبوا الأمان لأنفسهم ومن يلوذ بهم ، فاستجاب لهم
عبد الرحمن وأرسلهم الى قرطبة محروسين مع نسائهم وذرائعهم ، وأقام
قواده فى القلاع التى خرج عنها هؤلاء ، وجرت مثل هذه الأمور فى ولاية
« البيرة » ، ولم يجد السلطان شيئا من المقاومة الا عندما وقف أمام « فنت
طحنة » التى يغلب عليها أنصار ابن حفصون الذين ألقوا فى روع بقية
سكانها أن المدينة منيعة على من يرومها ، ومع ذلك فلم يطل أمد مقاومتها
اذ ما كاد أهلها يرون النار ترعى فى البيوت القائمة على صخور الجبل الذى
تقوم عليه مدينتهم حتى شرعوا فى المفاوضات ، ونزلوا عند طلب السلطان
فسلموه المتمردين ، ثم خاطر عبد الرحمن بنفسه فى شعاب « سيرانيفادة »
الوعرة فاستسلم له جميع أصحاب الحصون بلا استثناء ، وحينذاك سمع
السلطان أن ابن حفصون يهدد « البيرة » فبادر بارسال نجدة لها ، فلما وفد
ذلك المدد على حاميتها هزت الحماسة الحامية فخرجت لدفع المهاجم واصطدمت
به قرب غرناطة ، وهزمت ، وأسرت أحد حفدة ابن حفصون .

فى هذه الأثناء كان عبد الرحمن مقيما على حصار Joviles
التي هرب اليها نصارى القلاع الأخرى ، فظل محاصرا لها خمسة عشر يوما
حتى استرحمه مسلمو الأندلس ووعده بتسليمه النصارى الموجودين
لديهم وبروا بوعدهم ، ثم مر السلطان بعد ذلك على مدينة Salobrena
وسار فى طريق « البيرة » وهاجم شنت اشتيبين و « بينا فورتا » واستولى
عليهما ، وكانا معقلين من أقوى المعاقل يبعثان الفزع ويبثان الخوف فى
قلوب سكان البيرة وغرناطة .

بذلك تخلصت ولايتا البيرة وجيان من اللصوص واطمانتا ، وكانت
هذه الحملة التى استغرقت ثلاثة أشهر كافية لتحقيق هذه النتيجة
الهامة (٣٢) .

جاء بعد ذلك دور الارستقراطية الأشبيلية .

ذلك أنه بعد موت ابراهيم بن حجاج خلفه ابنه البكر عبد الرحمن فى أشبيلية وابنه الثانى فى قرمونة ، غير أن الموت عاجل عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج سنة ٩١٣ م [= ٣٠١ هـ] فتاق ابنه محمد (الذى كان محبوبا من الشعراء لوصله اياهم بالعطايا شأن أبيه من قبل) لحكم أشبيلية أيضا فلم يفلح فى تحقيق ما تطلع اليه ، فحاول التقرب من السلطان ، غير أن القوم فى أشبيلية كانوا يطلبون الاستقلال فاتهموه - وربما كان ذلك افتراء منهم - أقول اتهموه بأنه دس السم لأخيه ، وما كان أشد نكبتة حين اختير ابن عمه أحمد بن مسلمة - وكان محاربا باسلا - وبذلك جرح محمد جرحا عميقا ، ومضى الى البلاط ليعرض خدماته على السلطان الذى كان قد بعث جيشا ضد أشبيلية لعدم رغبته فى الاعتراف بالحاكم الجديد .

واشتد الحصار شدة أرغمت أحمد بن مسلمة على البحث عن حليف له فاستنجد بابن حفصون الذى مد يده مرة أخرى لمعاونة الارستقراطية العربية المهددة ، غير أن الحظ قلب له ظهر المجن فما كاد يغادر أشبيلية بحلفائه لمهاجمة جنود السلطان الذين عسكروا على شاطئ الوادى الكبير الأيمن حتى منى بهزيمة ساحقة ، وترك الأشبيليين يواجهون الموقف بما لديهم من قوة ، وعاد هو على جناح السرعة الى بوبشترو .

حينذاك أدرك أحمد بن مسلمة ونبلاؤ أشبيلية الآخرون الا جدوى تعود عليهم من وراء استمرارهم فى المقاومة ، ومن ثم أخذوا فى مفاوضة « بدر » الذى وصل الى العسكر ، وفى يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٩١٣ م [= ٢٦ جمادى الأولى ٣٠١ هـ] فتحو أبواب مدينتهم بعد أن أخذوا العهد بأن تبقى الحكومة الأمور والعادات على ما كانت عليه أيام بنى حجاج (٣٣) .

أما محمد بن حجاج الذى كان يرى مصالحه فى الاستيلاء على أشبيلية والذى لم يدرك شيئا من المفاوضات الجارية فما كان أعظم دهشته حين وصله كتاب من « بدر » ينبئ فيه باستسلام المدينة ، وإن عليه الآن الارتداد عن قرطبة فغادرها محطم القلب غضبانا وأقسم لينتقم لما جرى ، فلما عاد الى قرمونة عارضه قطيع لاهل قرطبة فاستولى عليه ثم اعتصم بالقلعة وأخذ يتحدى السلطان الذى لم يحرك ساكنا بل أنفذ اليه أحد رجال بلاطه ليعلمه - فى أسلوب مهذب جاد - أنه قد انقضى العهد الذى كان النبلاء فيه أحرارا قادرين على سلب ما بأيدي الناس ، وأنه ينبغي عليه رد القطيع الذى سلبه .

أدرك محمد بن حجاج مكانة الصديق في هذا القول فرد الغنم ، لكن على الرغم من المعينة ودقة فهمه الا أنه لا يلاحظ أن الزمن صار غير الزمن الذي كان من قبل ، اذ ما كاد يصل الى سمعه أن الحكومة قد هلمت أسوار أشبيلية حتى رغب في اغتنام الفرصة للاستيلاء على المدينة بالقوة فمضى لمهاجمتها ، لكنه لم يوفق في خطته الطائشة ، وتذرع السلطان بالصبر عليه مرة أخرى وبعث اليه من يفهم الأفكار الجديدة ، وعهد بهذه المهمة الى رئيس شرطته : « قاسم بن وليد » الكلبى الذى لم يكن يستطيع تفضيل سواء عليه فى هذه المهمة ، فقد ظل القاسم بضعة أشهر - زمن عبد الله - زميلا لابراهيم بن حجاج وصديقا حميما لمحمد ، وكانا لا يفترقان عن بعضهما أثناء حصار أشبيلية ، ولم يخطئ السلطان فى أناته وتمهله عليه فقد أدى قاسم مهمته خير أداء ، وأحسن الحديث الى محمد [بن حجاج] حتى لقد قطع على نفسه العهد لقاسم بالحضور الى البلاط على أن يؤذن له بترك قائده فى قرمونة ، فقبل السلطان طلبه ومضى محمد [ابن حجاج] الى قرطبة فى حاشية كبيرة ، وكان ذلك فى ابريل ٩١٤ م [= رمضان ٣٠١ هـ] ، فبالغ السلطان فى الحفاوة به ووصله وجنده بالهدايا الجمّة العظيمة ، ولقبه بالوزير ، وطلب اليه أن يصاحبه فى الفزاة الجديدة التى أزمع على القيام بها (٣٤) .



صمم السلطان هذه المرة على مهاجمة الثروة فى عقر دارها فى جبال رية ، والواقع أنه لم يكن يتوقع الحصول على فوائده عاجلة ومكاسب باهرة كالتى أصابها فى العام المنصرم فى ولايتى جيان والبيرة .



كان الاسلام قد كاد أن يتلاشى فى منطقة جبال « سيرانا » فكان على السلطان أن يحارب النصارى ، وأعلمته خبرته السابقة أن المسيحيين الاسبان أشد استبسالاً من المسلمين الاسبان فى الدفاع عن أنفسهم ، لكنه أدرك أن لابد من جود جماعات فى صفوف المسيحيين سمعت بصلابته واخلاصه ، وأنها لابد مستسلمة (٣٥) له عن طواعية ؛ وأنه لمن الانصاف أن نشير الى حسن معاملة الحكومة للنصارى الذين استسلموا لها ، فقد حدث أن جاءت زوجة مسيحية - كان قد استنزل فى السنة الماضية وأقام فى قرطبة - الى القاضي [اسلم بن عبد العزيز] وذكرت له أنها مسلمة حرة وتطمح فى التخلص من الأسر الذى تعيش فيه ، وتمسكت بعمام جواز استرقاق النصرانى للمسلمة ، فما كاد بدر الحاجب يسمع قصتها حتى ندب رسولا من قبله الى القاضي يقول له : « ان هؤلاء العجم انما استنزلناهم بالعهد ، ولا يحل التحقر بهم ، وأنت أعلم بما يجب من الوفاء بالعهد ، فدع

بين فلان العجمي وبين الأمة التي في يديه ، فتعجب القاضي من هذه الرسالة ، وراى ان الوزير قد جار عليه وجاور حدوده ، فما كان منه الا ان سال الرسول : « الحاجب ارسلك بهذا ؟ » ، فلما اكده الرسول الامر قال له : « اخبره ان الأيمان كلها لازمة لى ، لا نظرت بين اثنين حتى أنفذ على العجمي ما يجب عليه من الحق فى هذه الحرة المسلمة » ، فلما تسلم الحاجب هذه الرسالة لم يعد يخامرهم شك فى نزاهته ، الا أنه عاد يقول له : « انى لا أعترضك فى الحق ، ولا أستحل سؤال ذلك منك ، وانما أسالك التثبت فيما يجب من حق هؤلاء المعاهدين ، فقد علمت بما يجب فى رعايتهم وانت أعلم بالواجب » (٣٦) .

لقد دل مسلك بدر فى هذا الحادث على صدق اخلاص الحكومة وعن روح التوفيق التي تسترشد بها ، وهى سياسة جميلة نبيلة تتفق وخلق عند الرحمن الذي كان قليل التعصب ، حتى حدث ذات مرة أن رغب فى خلع منصب قاضى القضاة بقرطبة على علج مسيحي الأبوين ، ولقى الفقهاء صعوبة كبرى فى صرفه عن ذلك المشروع (٣٧)

لم يجاوز عبد الرحمن الحق فيما توقعه من ناحية اصحاب القلاع المسيحيين فى « سيرانا » ، فقد طلب الكثيرون منهم الأمان فلم يضمن به عليهم ، ولم تقاوم سوى « طرش » التي قويت عزيمتها حاميتها بمجيء ابن حفصون فاستبسلت فى الدفاع استبسالاً عجز السلطان عن تملكها لكن ما كادت حاميتها تفادرها حتى جرت معركة دامية (٣٨) .

وحدث أن قاومه حصن آخر مقاومة عنيفة دفعته لأن يقسم - وهو فى سورة غضبه - ألا يمس الشراب « أو يأنس الى منادمة » قبل الاستيلاء عليه ، وبر عبد الرحمن يقسمه فاستولى على ذلك الحصن وعلى آخر معه (٣٩)



وفى حوالى هذه الحقبة ذاتها أدى له اسطوله خدمة جليلة فقد استولى على بضعة سفن محملة بالخيرة وهى فى طريقها الى ابن حفصون الذى اضطره عسر حاله الى طلب الخيرة والمثونة من افريقية (٤٠) .

ومر السلطان فى عودته الى عاصمته بالجزيرة الخضراء (٤١) وولائتي « أرشونونة » و « مورور » ثم راد دخول « قرمونة » حينما أصبح على مشارفها فبلغ أبوابها يوم ٢٨ يونيو سنة ٩١٤ م [أول دى الحجة ٣٠٢ هـ] .

كان حبيب قائد محمد قد رفع بقرمونة علم الثورة فهل كن قيامه بها من تلقاء نفسه ؟

لسنا ندري حقيقة تلك المسألة فلقد قيل انه أضرمها بتحريض مولاة
ومال عبد الرحمن للأخذ بهذه الفكرة ، ومن ثم جرد محمداً من لقب « الوزير
وزج به في السجن ؛ ثم أخذ في محاصرة قرمونة فقاومه حبيب عشرين يوماً
طلب بعدها الأمان فأجيب اليه .

أما محمد بن حجاج فلم يعد مرهوب الجانب ، وسرعان ما رد عليه
عبد الرحمن حريته ، غير أنه لم ينعم طويلاً بهذه النعمة فقد مات في ابريل
سنه ٩١٥ م [= رمضان ٣٠٣ هـ] فكان آخر رجل من بنى حجاج قدر له
أن يلعب دوراً في التاريخ .

وحدث في عام ٩١٥ م أن طال القحط فأدى الى مجاعة مهلكة منعت السلطان
من القيام بأية حملة ، كما مات الألف من أهل قرطبة وبقيت الجثث بلا دفن،
وبذل السلطان وحاجبه كل ما استطاعاه لتخفيف النكبة ، لكنهما صادفا
أشد الصعاب في رد المتمردين الذين دفعتهم المجاعة للخروج من جبالهم
بغية الاستيلاء على التافه الباقي من مواد الاعاشة التي كانت لا تزال موجودة
في السهول (٤٢) .

فلما كان العام التالي استولى السلطان على « ريولة » و « لبلة » ،
وتركزت دعائم قوته من جديد بصورة مكنته من شن الغارات على نصاري
الشمال (٤٣) حتى جاء الموت الى أشد أعدائه خطر عليه فخلصه منه ، اذ
مات ابن حفصون سنة ٩١٧ م [= ٣٠٥ هـ] فعم السرور قرطبة لموته
ولم يعد أحد يشك في أن الثورة تتلاشى عن قريب (٤٤) .

مات البطل الأسباني الذي ظل أكثر من ثلاثين سنة يهزم غزاة وطنه ،
والذي طالما جعل العرش يضطرب تحت الأمويين ، ولاشك أنه كان ينبغي
عليه أن يشكر العناية الالهية التي ساقته اليه الموت في تلك الساعة ووفرت
عليه المشهد المحزن : مشهد انهيار جماعته ، فلقد مات غير مغلوب على أمره
وقضى نحبه في ظروف هي خير مما كان يتمنى ، ولم يكن قط من شأنه
تخليص وطنه وتأسيس أسرة له فيه ، كما أنه كان خير بطل لم تر اسبانيا
مثيلاً له منذ أن أقسم فرياثا Viriatha على انقاذ وطنه من النير الروماني .

الفصل الثامن عشر

• موقف كل من أبناء ابن حفصون الأربعة من عبد الرحمن •
• مصرع سليمان بن ابن حفصون • انخراط أخيه حفص في جيش
السلطان بعد المعاندة • مقتل « أرجنتيا » • السلطان يتغلب على
خصومه بما فيهم البربر • محاربته الشيخ الأسلمى صاحب
« لقنت » وانتصاره عليه وإرساله إياه أسيرا إلى قرطبة •
• عبد الرحمن يؤدب طليطلة • نجاح عبد الرحمن الثالث في
مزج عناصر الأمة في بوتقة واحدة •

عظيمة عبد الرحمن

امتد أمد الحرب في « سيرانا » عشر سنوات ، وقد ترك ابن حفصون من بعده أربعة أبناء هم : جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص الذين ورثوا شجاعته وان لم يرثوا مواهبه .

أما سليمان فقد اضطر للاستسلام في مارس سنة ٩١٨ م [= رمضان ٣٠٥ هـ] والانخراط في جيش السلطان مشاركا في الحملات التي شنّها ضد ملك ليون ونفارة .

وأما أخوه عبد الرحمن قائد طرش فكان أميل للقلم منه الى السيف ، فلم يلبث أن يادر الى الاستسلام (١) ، وشخص الى قرطبة حيث قضى بقية أيامه عاكفا على نسخ المخطوطات (٢) .

وأما جعفر فكان لا يزال شديد البأس ولا بد أن يكون السلطان قد أدرك ذلك الأمر فيه اذ لم يمتنع عن الدخول في مفاوضاته حينما حاصر بوبشتر سنة ٩١٩ م [= ٣٠٦ هـ] ، واكتفى عبد الرحمن من جعفر بما قدمه اليه من الرهائن والجزية السنوية (٣) ، الا ان جعفر هذا سرعان ما ارتكب هفوة قاتلة أودت به ، ذلك أنه كان يؤمن بأن أباه قد ألحق الضرر بنفسه حين أعلن تنصره هو وجميع أفراد أسرته ، ذلك لأن ابن حفصون - حين بدل دينه - باعد ما بينه وبين قلوب الأندلسيين ، وما كان له ولأولاده - وقد خطوا هذه الخطوة - أن يتراجعوا ، بل كان يتحتم عليهم أن يعتمدوا منذ ذلك الحين على النصارى وحدهم ، وأن يربطوا مصيرهم بهم ان نصرا أو هزيمة ، وكان المسيحيون الفئة التي ظلت محافظه على شجاعته فقد حدث قبل هذا بوقت قصير في قلعة « بلدة » وقت حصار لسلطان لها أن انضم رجال الحامية المسلمون بأجمعهم اليه أما مسيحيوها

فقد آثروا الموت على الاستسلام (٤) ، ومع علم جعفر بذلك الموقف الا أنه كان لا يزال مؤمنا بالركون الى المسلمين الذين أراد استمالتهم اليه فأعلن عزمه على الرجوع الى الاسلام . ففرع جناء الصمالي منه ومن ثم تأمروا ضمه بالاتفاق مع أخيه سليمان وقتلوه سنة ٩٢٠ م [= ٣٠٨ هـ] وولوا مكانه أخاه سليمان الذي سارع بالوقوف الى جانبهم (٥) .

لم يكن عهد سليمان عهدا سعيدا فقد وقعت « بوبشTRO » فريسة الشقاق الحاد ، وثبتت بها التوراة وأدت الى طرد سليمان ، واطلاق سراح أسراه ، ونهب قصره ، لكن لم تنقضي فترة وجيزة حتى انساب أعوانه في البلد ودخله هو متشكرا ، واستحال العامة اليه حيث أباح لهم النهب ودعاهم الى حمل السلاح ، فلما تملك الأمر ثانية لجأت به شهوة الانتقام العنيف فأطاح برؤوس معظم خصومه حتى : ليأخذ عليه أحمد مؤرخي قرطبة (٦) ما فصل

لم يمد القدر في أجل سليمان بعد جمعا الأمور في يده ثانية فقد حدث أن ترجل في مناوشة جرت يوم ٦ فبراير ٩٢٧ م [= ذو الحجة ٣١٤ هـ] فتكاثر عليه الملكيون وقتلوه وتفجر غيظهم على جثته ففصلوا رأسه ثم بتروا ذراعاه فساقيه (٧) .

ولما قتل سليمان خلفه أخوه حفص ، لكن اللحظة الفاصلة كانت قد أذنت بالمجيء ، فقد مضى السلطان في شهر يونيو ٩٢٧ م [= ربيع الثاني ٣١٥ هـ] لمحاصرة بوبشTRO وصمم على ألا يرفع الحصار حتى يستسلم له البلد ، ثم أمر بإقامة التحصينات في كل مكان ، وأعاد بناء حد الحصون الرومانية القديمة وكان موشكا على الانهيار ، فلما فرغ من ذلك أحلق بالمكان من كل نواحيه ومنع عنه كل مواد التموين ، واحتل حفص مدة ستة أشهر مضايقة العدو له وارهاقه اياه الا أنه اضطر للتسليم يوم الجمعة ٢١ يناير ٩٢٨ م [= ذو القعدة سنة ٣١٦ هـ] فاحتلت قوات السلطان البلد ، ونقل حفص الى قرطبة ، واستنزلوا جميع السكان ثم انهضت حفص بعد ذلك في جيش الغالب (٨) .

أما أخته « أرجنتيا » فقد كان في استطاعتها المضى الى أحد الأديرة فتبقى فيه سالمة لو أنها رضيت بالحياة الهادئة الرتيبة ، الا أنها كانت شديدة التعصب وكانت تتطلع منذ أمه بعيدة للاستشهاد ، فانارت غضب السلطة اذ جاهرتها بتنصرها ، ولما كان الشرع يعتبرها مسلمة اسلام أبيها يوم ولادتها فقد أديننت اذ عدت كافرة مرتدة ، وحكم عليها بالموت الذي قابلته من جانبها بشجاعة نادرة أهلتها لأن تكون ابنة عمر بن حفصون (٩) وكان ذلك سنة ٩٣١ م [= ٣١٩ هـ] .

دخل السلطان بنفسه « بوبشترو » بعد شهرين من اخضاعها اذ اراد ان يرى بعيني رأسه هذا الحصن الشامخ الذي بقى مدى نصف قرن يرد هجمات أربعة سلاطين على التعاقب ، فلما بلغه وطل من فوق أسواره نفص بعينه نواحيه المحصنة وأبراجه المنيفة ، واذ شاهد شموخ الجبل الذي يقوم الحصن على قنته وعمق الهوة المحيطة به عرفت أنه حصن أنف عديم الضريب ، وحمد الله على نعمائه اذ مكنه من الاستيلاء عليه ثم ركب شكرا لله ، ودأب طول رحلته على الصوم .

غير أن الذي يحط من قيمة انتصاره هو ضعفه الشديد وتخاذله في موقف كان ينبغي فيه عليه أن يرفض ما اتفق القوم عليه ، فقد تاق من رحلوا معه الى بوبشترو من الفقهاء أن يروا هم أيضا ذلك البلد العظيم الذي كان مسرحا لرجل أخافهم كل الخوف فلم يدعوا السلطان يسجيم قبل أن يأذن لهم بنش قبرى عمر بن حفصسون وولده جعفر ، فلما شاهدوهما مدفونين على الطريقة المسيحية أخرجوا جثتيهما وبعثوا بهما الى قرطبة فسمرتا الى عمودين وكتب أحد مؤرخى هذه الفترة : ما يشير الى هذا الحدث في فرحة مبتذلة (١٠) .

حينذاك بادرت الحصون التى كانت لاتزال فى حوزة المسيحيين الى الاستسلام فهدمها السلطان لم يستبق منها غير ما دعت الحاجة القصوى الى استبقائه لارغام البلد على ملازمة الخضوع ، ثم نقل الى قرطبة أعظم الرجال نفوذا وأشدهم خطرا (١١) .

لازمت « سيرانا » الخضوع والهدوء منذ ذلك الحين وان كان ذلك بعد أن أحمى السلطان الثورة فى كثير من النواحي ، فقد أرغم رجال ابن مستنة فى جبال « بريجو » على التخلي له عما بيدهم من الحصون ، كما حمل بربر بنى المهلب من أهل « رية » على القاء السلاح (١٢) ، واستولى على « مونت روبي » الواقعة على حدود جيان والبيرة ، ولما كان هذا الحصن قائما على جبل شاهق شديد الانحدار فكثيرا ما كان مبعث رهبة كبيرة للحكومة ، كما كان يقطنه كثير من المسيحيين الذين كانوا ينزلون من أوكارهم بين آونة وأخرى ينهبون القرى ويقطعون الطريق على المسافرين ويفتكون بهم ، لذلك أقام السلطان سنة ٩٢٢ م [= ٣١٠ هـ] على محاصرة هذا العرين ففشل ولم ينجح فى تحقيق بغيته الا بعد أربع سنين (١٣) ، كذلك اضطر كثير من ثوار اقليم بلنسية الى الاستسلام (١٤) له سنة ٩٢٤ م [= ٣١٢ هـ] وهى السنة التى دأبت فيها للسلطان جميع بلاد الثغر الأعلى واغتصبها من يد بنى قسى (١٥)

الذين أضنتهم الحروب التي نشبت فيما بينهم أو التي خاضوها ضد ملوك نفارة ، ثم أجبرهم عبد الرحمن على الانخراط في جيشه (١٦) وما انقضى عامان على ذلك حتى شن قائده عبد الحميد بن بسيل حملة على بني ذى النون (١٧) ، وقد تكللت بالنجاح

لم يعد هناك ما يبلبل خاطر السلطان من ناحية الجنوب ، ومن ثم وجه كل قواه لمحاربة ثوار الولايات الأخرى ، واتسمت حملاته بالنجاح السريع ، واشتبك في معارك فاصلة ، ففي سنة ٩٢٨ م [= ٣١٦ هـ سیر الجند لمحاربة « الشيخ الأسلمي » صاحب لقنت و Callosa في ولاية تدمير ، وكان هذا الرجل قطع طريق وفاسقا من أحط الفساق ، شديد التظاهر بالدين ، فلما طعن في السن تنازل عن الحكم لابنه عبد الرحمن قائلا انه يريد تكريس نفسه للعبادة ، وطابق الخبر الخبر غواظب على صلواته والصلوات العامة ، غير أن تلك التقوى الظاهرية لم تمنعه من الخروج بين آونة وأخرى لنهب النواحي المجاورة له ، ثم لم يلبث أن تولى قيادة الجيش بعد قتل ابنه في معركة دارت بينه وبين خند السلطان وأنصاره ، لكن لم تطل قيادته إذ استولى القائد أحمد بن أسحق على قلاعه واحدة بعد الأخرى وأرغمه على التسليم ، واستنزله هو وجميع أفراد أسرته من معاصمهم الى قرطبة (١٨) كما استسلمت في الوقت ذاته « ماردة » دون أن تضطر القوات التي بعثها السلطان اليها الى امتشاق الحسام (١٩) .

فلما كان العام التالي أطاعته باجة بعد مقاومتها ايام مقاومة عنيفة (٢٠) مدة أسبوعين ، فسير السلطان قواته بعد ذلك ضد العليج « خلف بن بكر » أمير « أكشونبة » الذي أبدى استعدادا لدفع الجزية ، وبرر امساكه عن دفعها من قبل ببعده ولايته ، وكان خلف محبوبا من وعيته كآسلافه الأمراء الخيرين ، وأدرك السلطان أن اصراره على خضوع خلف له يدفع سكان كورة الغرب الى الاستبسال في المقاومة ، ومن ثم خالف نهجه وأبرم معه اتفاقا لم يعد خلف بمقتضاه خاضعا له بل تابعا اقطاعيا يؤدي له الجزية ، وبذلك تعهد أمير « أكشونبة » بدفعها وألا يسمح للثوار باللجوء اليه (٢١) .

وكانت « بطليوس » لا تزال تحت حكم أحد أبناء ابن مروان الجليقي اقطاعيا يؤدي له الجزية ، وبذلك تعهد أمير « أكشونبة » بدفعها وألا يسمح كاملا (٢٢) وذلك سنة ٩٣٠ م [= ٣١٨ هـ] .

لم يبق أمام عبد الرحمن لاسترداد سيطرته على ميراث جده الا اخضاع
طليطلة .

وقد مهد عبد الرحمن لذلك الاسترداد بأن ندب اليها جماعة من
الفقهاء يذكرون لاهلها خطل بقائهم على المجاهرة بحبهم للجمهورية في
الوقت الذي دانت فيه جميع انحاء البلاد للسلطان ، لكن لم يقدر النجاح
لهذه الخطة وذلك لأن الطليطيين امتلات نفوسهم بحب الحرية التي تمتعوا
بها ثمانين عاما سواء تحت حماية بنى قسى أو ملوك ليون ، ومن ثم ردوا
ردا اتسم بالمرأوة وعدم الجراءة ، ولم يجد السلطان أمامه بدا من استعمال
الشدة فلم يتوان عن سلوك سبيلها ، وفاضت نفسه بالفضب والصلابة
اللتين امتاز بهما ، لذلك أرسل ضد طليطلة في شهر مايو ٩٣٠ م
[= ربيع الثاني ٣١٨ هـ] أحد قواده وهو الحاجب سعيد بن المنذر
وأمره أن يبدأ الحصار قبل أن يلتئم شمل الجيش الكبير الزاحف لتأديب
النوار ، فلما كان شهر يونيو ٩٣٠ م [= جمادى الأولى سنة ٣١٨ هـ]
ذهب السلطان بنفسه على المدينة بجميع قواته وعسكر على شواطئ (٢٣)
نهر Aigodoz ' قرب حصن مورور ، ثم طلب من العليج الطليطلي
الجلاء ، وكان في هذا الانذار البسيط الكفاية اذ شعر العليج باستحائه
الوقوف في وجه جيش السلطان الكثيف وبادر الى اخلاء القلعة ، فأقام
بها عبد الرحمن حامية من عنده ، ثم مضى فضرب معسكره قرب طليطلة من
جبل يعرف باسم « جرنكش » (٢٤) فلما وقع بصره على الحدائق والكروم
رأى أن المفبرة المجاورة قد تكون خير بقعة لمعسكره العام ، ومن ثم صار
بجيشه كله اليها وأمر باحراق القرى وبالشدة في مهاجمة الطليطليين
ومع ذلك فقد دام الحصار عامين ولم يداخل اليأس السلطان فشيده بلدة
على جبل « جرنكش » . ولم تنقض غير أيام قلائل حتى أقيمت بلدة
« الفتح » فأدرك الطليطليون أن الحصار لن يرفع عنهم أبدا وكانوا لا يزالون
يعتمدون على معاونه ملك ليون الا أنه هزم على أيدي جند السلطان هزيمة
نكراء (٢٥) ، كما أرغمتهم المجاعة على فتح أبواب مدينتهم ، ويالها من
فرحة عظمى أحس بها عبد الرحمن حين تم له الاستيلاء على البلد ، وهى
فرحة لا يعد لها الا فرحته ونشوته حين امتلك بوبشTRO ، وحمد الله على
نعمه التي حباه بها (٢٦) .

هكذا تمكن السلطان من ان يقهر العسرب والبربر والاسبان .
واضطروا جميعا للركوع أمام القوة الملوكية التي لم يعد لسلطانها حد .
ولم تكن الخسائر التي منيت بهما الأحزاب المختلفة المشتركة في ذلك

الصراع الطويل متكافئة ، ذلك أن الارستقراطية كانت تمثل الحزب الذي صنادف أسوأ المعاملة ، وهو بلا نزاع الحزب الذي يمثل الاستقلال الفردي ، شأنه في ذلك شأن الألمان في فرنسا وإيطاليا .

ووجد الأشراف العرب أنفسهم مضطرين للخضوع لحكومة أشد استبدادا وأقوى ساعدا من الحكومة التي حاولوا إسقاطها ، وكانت تلك الحكومة تناصبهم العدا ببطبيعتها وتنظم جهودها لتجردهم من كل قوة على مر الزمن ووجدوا أنفسهم وقد قضى عليهم أن ينجرفوا شيئا فشيئا مع التيار ، وأخذوا يفقدون في كل العهود ما كان لهم من مجد ومستقبل ، وكان هذا خير تعزية للأسباب الذين عدوها نوعا من النصر لهم والذين كانت كراهيتهم للسلطان - حين امتشقوا الحسام ضده - أقل من كراهيتهم للارستقراطية العربية ، ومن ثم أخذوا يوهمون أنفسهم بأنهم قد نجحوا الى حد ما ، ذلك لأنهم بدلا من أن يكونوا محل اهانات أصبحوا منذ الآن بمنجاة من الازدراءات ومن اضطهاد الأشراف لهم ، ولم يعودوا الجماعة المنعزلة أو الفئة المنبوذة المهجورة من المجتمع .

ولقد كان الهدف الذي يسعى اليه عبد الرحمن الثالث والذي تمكن من تحقيقه على مر الأيام هو امتزاج جميع أجناس شبه الجزيرة وتحويلها الى أمة متحدة اتحادا حقيقيا (٢٧) .

لقد احتفت العهود القديمة - أو لا أقل من أنها أخذت في التلاشي شيئا فشيئا لتحل مكانها امتيازات الرتب والطبقات والحرف ، والواقع أن هذه المساواة لم تكن الا مساواة في الخضوع لكنها كانت في عيون الأسباب نصرا مينا ، ولم يكونوا يطلبون في لحظتهم هذه أكثر مما حدث ، أما في أعماق نفوسهم فقد كانت أفكارهم عن الحرية لاتزال شديدة الغموض لعدم كراهيتهم الحكم المطلق أو السياسة الاستبدادية ، إذ كان هذا النوع من الحكومة في نظرهم تقليدا قديما ولم يعرفوا سواء ، سواء في أيام حكم ملوك القوط أو في عهد أباطرة الرومان ، ولعل أوضح دليل يؤيد ذلك أنهم في أثناء حروبهم لاستعادة استقلالهم لم يقوموا على وجه العموم الا بمحاولات ضئيلة من أجل الحرية .

هنا ينتهى الجزء الأول ويليه الثانى عن :

عصر الخلافة فى الأندلس

حواشى الفصل الأول

Cf. Salvien : De Gubernatione Dei, L. IV, p. 60 (ed. de Brême) 1683. (١)

(٢) انظر عبارات سيدران الابولى الواردة فى :

Fauriel, Hist. de la Gaule Meridionale sous la Domination des conquerants Germains, t. I, pp. 387 et suiv., (Epist. IX ; 13).

ولست لدينا أية أخبار عن أسلوب حياة السادة الأسبان فى خلال هذه الحقبة ، لكن كل ما هناك يبعث على الظن بأنه كان يشبه الى حد بعيد حياة سادة الأقاليم المجاورة .

Giraux : Essai sur l'Hist. du droit francai au moyen âge, t. I, (٣)
pp 104 et suiv., Cf. aussi P. J. Williams : Le droit public romain, 7eime, ed., Louvain, 1910, pp. 607-609.

(٤) اعتمد حكم دقلديانوس من ٢٨٥ حتى ٣٠٥ م وامتاز بروحه الحربية وتطلعه الى توحيد ارجاء الإمبراطورية تحت ظل الامبر طور وأن تكون الإمبراطورية ذاتها ممتدة لما يمكن أن يسمى بالمركز الحضارى للعالم مما تطلب من دقلديانوس أن يكون على استعداد للضرب على يد من يقوم بالفوضى والاضطراب فى الداخل والقضاء على أى هجوم خارجى . ولقد صانف فى أول حكمه ثورة الفلاحين فى غالة (فرنسا الحالية) من جراء ما سببه غارات القبائل المتبيرة ومن الفقر وكثرة الضرائب ، مما حملهم على هجرة الاراضى ، لذلك انفذ احد حواده واسمه Valerius Maximianus لاختد ثورة هؤلاء الفلاحين المسمون فى تاريخ تلك الحقبة باسم « باجوداي » ، كما عمل على تقوية حدود الراين ، واعتم دقلديانوس بالاصلاحات التى تناولت شتى فروع إدارية الحكومية لكنه انصرف فى اضطهاد المسيحيين اذ رأى تزايد اعدادهم حتى قاربوا فى بعض الاقوال عشر السكان ، وقد أصدر مرسوما بهدم الكنائس سنة ٣٠٢ م وهرق الكتب المسيحية ثم أصدر مرسومين آخرين بسجن جميع رجال الدين على شتى مراتبهم وأرغمهم على تقديم القرابين لالهة الدولة . هذا ويلاحظ أن نظام الرقيق ارتبط بما يمكن تسميته بالمزارع الكبيرة لاتيغونداي . وقد ساعد على ذلك عدم استطاعة صغار الملاك اجابة المطالب الحربية المتزايدة وتزايد عدد الرقيق فى المجتمع الغربى منذ زمن بعيد والمعروف انه ما بين عامى ٣٠٠ و ١٥٠ ق م كان عدد الرقيق الذين جىء بهم من بلاد اليونان حوالى ربع مليون شخص ، ونستدل من كتاب « كاتو » على أن القوم كانوا يفضلون الرقيق لعدة عوامل منها عدم انخراطهم فى الجيش وارتباطهم بالأرض وبالسيد الذى يعملون عنده ، وكان هؤلاء الرقيق يعملون عنده ، وهم مكبلون بالأغلال ، مما أدى بهم الى الثورة فى صقلية عام ١٣٥ وقام حوالى سبعين الفا منهم بتحدى الجيش . (المترجم) .

(٥) انظر جيرو ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ وما بعدها ، وكذلك المؤلفات

الفرسية والألمانية التى أوردها فيليمز ، نفس المرجع ، ص ٦٤٥ وحاشية رقم ٨ ص ٦٤٦-٦٤٨ .

(٦) كان أوجستوس أحد الأباطرة القدماء وكان اسمه أولا Octavius ثم منحه مجلس الأعيان في سنة ٢٧ ق م لقب Augustus تعظيما له ثم أطلق عليه الجيش لقب Imperator. وذلك عقب انتصاره في وقعة موتينا سنة ٤١ ق م (المترجم) .
(٧) غالة هي فرنسا الحالية .

(٨) Polumus : Utrius que The auri Antiquitatum mova supple
menta (1737) t. III, Introd., par Pignori.

(٩) Ammien Maccllin, t. XXVIII, 4, 16 : "Si aquam callidam
tardius attulerit servus, trecentis arfligi verberibus wheatur".

SALVIEN : op. cit., 91-92. (١٠)

Ibid., L. V. pp. 91-92, Querebos, Oct. I. Sc. II. Vers. 194-195. (١١)

(١٢) انظر النصوص الواردة في الجزء الأول من
Français, pp. 566, 573, 597, 609.

وفي الحقيقة أننا لسنا متأكدين من وجود العصابات في اسبانيا قبل فتح المتبربرين لها ، غير أن هناك ما سيحمل على الاعتقاد بأنها كانت موجودة قبل هذا العصر إذ يبدو من كلام Idace الذي كتب في القرن الخامس أنه لم يكن يعد وجودها في اسبانيا شيئا جديدا.

Isidore de Seville : Historia de regibus Gothorum (Esp.
Sag., t. IV, p. 493). (١٣)

Paul Orose : Historiae, VII, 40. "Servubos tantum suos ex,
propriis praediis colligentes a vernaculis Alētes sumtibus. (١٤)

Paul Orose : Historiae, VII, 40 : "Cum barbaris quibusdam,
qui quondam in foedus receptatique in militiam, alecti Honoriani
(sive Honoriae) Vocabantur." (١٥)

Salvien : op. cit., L. VI, 121-123. (١٦) انظر في هذا الصدد ما جاء في
ويمكن أن نطبق على حد ما على الأسبان كل ما قاله هذا المؤلف عن الغاليين ، إذ الثابت
إن أساد ، لأخلاق كان في اسبانيا أكثر مما هو في غالة ، انظر نفس المرجع ١٣٧/٧ .

Idace : Chronicon, ad. ann 409 et 410. (١٧)

Ibid., ad. ann. 425. (١٨)

Idace : op. cit., ad. ann. 425. (١٩)

Orose : Hist., VII, p. 141 (٢٠)

(٢١) أي بعد الكاهن يول أوروز .

Salvien : De gub. Def, L. V, p. 95. (٢٢)

Epist., VII, p. 14. (٢٣)

Hist., VII, p. 41. (٢٤)

(٢٥) أحدث تخريب رومة على يد الازريك سنة ٤١٠ هزة عنيفة في نفوس الناس

استمرت عدة أجيال حتى أن موضوع هذا الانهيار أصبح شغل الفلاسفة والعلماء ورجال الدين والوثنيين والمؤرخين وفي مقدمة الجميع « القديس أوجستين صاحب كتاب مدينة الرب » ، ومن هنا يمكن تفسير ما أخذته العالم المؤرخ البريطاني المحدث توينبي في كتابه
Toynbee Study of Hist., IV, p. 61 fol.

انهيار الامبراطورية بدأ من أربعة قرون قبل قيامها « وأن ذلك حدث منذ الصراع العنيف بين أسبرطة والأتينيين عام ٤١٢ ق م » ، وقد كان الصراع بين المسيحية والوثنية عنيفا .

= ونجد في سنة ٢١٧ أن القديس أوجستين يسأل أحد تلاميذه أن يكتب موجزا لتاريخ رومية ليكون لبنة تساعد على تأليف كتابه « مدينة الرب » ، انظر :

M. Monigliano : *Pagan and Christian Historiography in the 4th Cent A.D.*, p. 87. ولقد عاش القديس أوجستين من ٢٥٤ حتى ٤٣٠ م وكان عازفا عن كل المناصب حتى البنية لأنها في اعتقاده تخرجه من نطاق تأملاته الروحية الخالصة ، انظر :

H. I. Marrow : *Synesius of Cerene & Alexandrian Neoplatonism*, p. 143; Mcrow *St. Augustin et la fin de la culture antique*, Paris 1939, p. 3.

Salvien : *De gub. Dei*, L. IV, p. 74. (٢١)

Claudian Mamert : *De Statue animae*, II, 8. (٢٢)

Salvien : *op. cit.*, L. VI, p. 115, L. VII, p. 142. (٢٨)

Ibid., L. IV, p. 74. (٢٩)

Ibid., L. V, p. 86. (٣٠)

Ibid., L. VII, pp. 140, 142. (٣١)

Ibid. L. VII, p. 140. (٣٢)

Braulien, *Epistulae*, 33-41, (*Esp. Sagr.*, t. XXX, pp. 374-377). (٣٣)
360, 382.

Forum Indicum, p. 15. Col. I. انظر قرارات مجمع طليطلة الثامن في (٢٤)

Esp. Sagr., VI, p. 162. راجع قرارات مجمع طليطلة الرابع في (٢٥)

(٢٦) راجع قرارات نفس المجمع .

(٢٧) يقول ايزيدور الباجي في معرض كلامه عن ركسنت :

"*licet flagitiosio tamen bene monitus*" (*Esp. Sagr.*, t. VII, p. 290).
pp. 359, 360, 382.

Paulos Emeritensis : *De Vita* (*Esp. Sagr.*), t. XII, p. 359, (٢٨)

Ncander : *Denk würdigkeiten aus der Geschichte des Chris-* (٢٩)
t. II, p. 236-240. Ozanam : *La civilisation au 5ème iécle*, t. II
p. 50-57.

Sentent., L. III, c. 47. (٤٠)

Munoz : *Fueros*, pp. 123-125. (٤١)

Munoz : *Del Estado de la persona en los reinos de Austririas* (٤٢)
Y. Leon.

Forum Indicum, V, 4, 19; *De non alienandis privatorum et* (٤٣)
coriellum rebus.

Esp. Sagr., L. VI, p. 189. انظر قرارات مجمع طليطلة الثامن في (٤٤)

(٤٥) انظر المادة الثامنة من قرارات مجمع طليطلة الثامن .

(٤٦) يعني المؤلف بذلك المسيحيين . (المترجم)

(٤٧) يقصد دوزي بذلك اليهود . (المترجم)

Mansi., t. XII, p. 94 et suiv.: انظر قرارات مجمع طليطلة السابع عشر في (٤٨)

(٤٩) فيما يتعلق بمركز اليهود في اسبانيا في ظل حكم القوط الغربيين ، راجع :

H. Graetz : Les Juifs d'Espagne (trau., G. Sterne, Ca.-I, pp. 11-50.

حيث يجد القارئ فيه تفاصيل الاصطهاد الاولى وذكر المجامع والمجادلة مع ايزيدور الاشبيلي الذي وضع كتابا في سيهم والنيل منهم وهو يقع في مجلدين واسمه . Contra Jndaeos ، كذلك راجع أحدث مؤلف في هذا الباب وهو :

Jean Juster : La Condition legale des Juifs sous les rois Wisigoths
(in : Etudes offretes à P.F. Girard, Paris, 1913, t. II, pp. 275-335.

Forum Indicum, L. IX.

(٥٠)

(٥١) هذا هو الوارد في مخطوطتين لا تينيتين منشورتين في Forum Indicum

Fuero Juzo : كذلك في الترجمة الاسبانية لهذا القانون في :

حواشى الفصل الثانى

(١) لن يجد القارئ فيما يلى سوى وصف شديد الإيجاز عن فتح اسبانيا على يد العرب ، وقد عالج المؤلف الموضوع فى تفصيل أكثر مما هو عليه هنا فى كتابه Dozy : Recherches sur l'histoire de la literature de l'Espagne pendant les moyen age 3eme, ed., t. I, pp. 1-83.

وسيرى القارئ هنا دراسة عن فتح العرب لاسبانيا فى :

(أ) حوليات أيزيدور الباجى

(ب) الحوليات اللاتينية الخاصة بشمال اسبانيا :

(ج) الأخبار العربية .

(د) كتاب أخبار مجموعة .

(هـ) الكونت بوليان .

(ز) قصة اولاد غيطشة .

(ز) النصوص المتعلقة بامتلاك الأراضى بعد الفتح الاسلامى .

اما الأخبار الخاصة بآخر ملك قرطى على اسبانيا فقد جمعت فى :

J. Menendez Pidal : Leyendas del ultimo Rey Godo (Revista de Archives, Bibliothecas y Museos, Madrid, 1901-2.

كذلك يمكن مراجعة كتاب :

Eduardo Saaveara : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892 ;

كما يجد القارئ قائمة كاملة بأسماء مراجع أخبار هذا الفتح فى كتاب :

Alfonso : Fuentes de la historia Española, Madrid, 1919, p. 14-30.

اما الظروف التى تم فيها للغرب فتح اسبانيا فقد درست دراسة نقدية وان شابها

كثير من التحيز فى : J. Tailhan : Notes et recherches المطبوعة فى نهاية طبعته عن :

La chronique rimée des Derniers rois de Toledé et la conquête de l'Espagne par les Arabes (Pari , 1885)

وذلك عن حوليات القرطى المجهول المنسوبة لاييزيدور الباجى ، وانظر على الخصوص صفحة ٦٦ وما بعدها منه . اما المؤلفون العرب الذين اشاروا الى فتح العرب لاسبانيا فهم صاحب أخبار مجموعة وابن القوطية وابن عبد الحكم وابن عذارى وابن خلدون وابن الأثير والنويرى والمقرئ والقلقشندى [صبح الاعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ٢٢٨/٥ وما بعدها] . ويجب أن نشير الى « فتح الأندلس » مؤلف مجهول ، وهو الكتاب الذى جمع بين دفتيه الأخبار والقصص العربية المتعلقة بهذا الفتح ، كما أن هناك طبعة عربية - مع ترجمة لشتالية - لهذا الكتاب قام بها :

J. de Gonzalez : Fath-l-andaluci, Historia de la conquista de l'Espagne, aragl (Argiers, 1889).

(٢) فيما يتعلق بيبوليان راجع : Dozy : Recherches, t. I, p. 57.

(٣) تذكر الرواية انها كانت تدعى « فلورندا » وكانت - حين رآها لثريق - تسبح قرب جسر سان مارتن الذى يسمى بصمامات الكهف ، ولا يزال بطليلة على شاطئه نهر تاجه غير بعيد عن جسر سان مارتن .

(٤) يطلق العرب على Cartheya نفس الاسم الذى يطلقونه على Carthagene والظاهر أنهم كانوا حتى القرن الثامن للميلاد يقولون قرطاجنة Cartayena وذلك بدلا من قرطاجنة Cartheya اما فى القرن السابع عشر فكان لا يزال على اطلال قرطاجنة برج يسمى « كرتيانا » او قرطاجنة ، اما اليوم فيسمى Forre de Locadillo ، انظر فى تحقيق ذلك :

Caro, : Antiquedades de Seville, fol. 123, Col. 4 ; Floréz : España Sagrada, IV, p. 24 et Barrantes Maldonado : Ilustracione de la casa de Niebla (Memorial historico espanol, t. IX, p. 369) ; cf aussi Savedra : Estudio sobre la invasion de los arabes, p. 65 ; Lafuenta y alcantara : Ajbar Machumia, p. 25C

هذا وقد ورد اسمها العربى فى كتاب ابن عبد الحكم : فتوح (طبعة تودى ، من ٢٠٦) .

(٥) هو الجد الثامن للمصور الحالب المشهور .

(٦) راجع ابن القزوينى : افتتاح الاندلس ، من ٢٢٦ - ٢٢٦ ، وابن عذارى : البيان الغرب ١١/٢ ، ٢٧٢ ، وترجمته ، من ١٤ ، ٤٢٥ .

(٧) هى المسماة Logo de la Janda وتسميها اخبار مجموعة بالبحيرة فقط ، راجع لغوتنا القنطرة من ٢٥٧ ، تحت كلمة : "Lago"

(٨) يسمى هذا النهر اليوم باسم Salado وهو يصب فى بحر غير بعيد عن رأس جبل طارق بين البقاع وبين كونيل ، انظر :

Dozy : op. cit., t. I, pp. 305-307.

نقلا عن الازريسى : صفة الاندلس ، من ١٧٧ ، راجع ايضا القنطرة : اخبار مجموعة من ٢٥٤ ، الذى يشير الى وادى بكة ووادى السليط ، وانظر ايضا المؤلفات التى اشار اليها Sanchez Alonso : Fuentes de la historia espagnola, nos. 340 à 354

(٩) هو صاحب كتاب اخبار مجموعة ، راجع :

Dozy : Recherches, t. I, p. 46.

Dozy : op. cit., t. I. Ch. I.

(١٠)

(١١) راجع المقرئ : نفع الطيب ١/٢ .

(١٢) يجد القارئ النص العربى للمعاهدة المبرمة بين تدمير وبين عبد العزيز بن موسى فى الضبي : بغية الملتمس ، من ٢٥٩١ رقم ٦٧٥ ، وفى الحميرى : الروض المعطار تحت كلمة « تدمير » ، هذا وقد طبعها الغزيلى لأول مرة فى كتابه :

Bibliotheca arabo-Hispana Escorialensis (Matrite, 1770) t. II, p. 106.

كذلك نشرها « كودرا » فى مقدمه طبعته للضبي ، شرحه ، من ٢٢-٢٤ (من المقدمة) وكذلك مع منطوقها :

Ramero : Historia de Muracia Musulmano (Zaragoza 1905), nº 11-37.

وفى هذا الكتاب سيرى القارئ ترجمة المعاهدة مع بعض نقد طويل للترجمات

والتعليقات التي اقترحها من سبقوه في هذا المصنف ، كذلك نشر نص هذه المعاهدة :
Simonet : *Cristomatia Arabigo-espanola*, p. 84.

(١٢) انظر فيما يتعلق بالفترة الحقيقية للنزود في القرن الثامن كتاب :
Icher : *Essai sur l'appréciation de la Fortune privée au moyen-âge*.

Leovigild : *De habitu Clericorum* (Esp-Sagr., t. XI, p. 523). (١٤)

(١٥) انظر فيما بعد الفصل العاشر من الترجمة العربية من هذا الكتاب (المترجم)

Urbs erat interea Francorum inhospita-turmis, maurorum
votis adsociata magis. (١٦)

كما يقول أرموند دي ايجل (١٧/١) في معرض كلامه عن برشلونة ، ويذهب
الاستاذ اماري الى القول بأن حالة المسلمين أيام الحكم الاسلامي كانت احسن حالا من
حال الشعب الايطالي تحت حكم اللومبارديين أو الفرنجة ، انظر :
Storia dei Musulmani di Sicilia, Vol. I, p. 483.

(١٧) راجع المرقى : نلح الطيب ١٧/٢

Chronique rimée des derniers rois de Tolède (ed. Taihlan), (١٨)
p.29, Vers. 103, "cum reginam Spaniae in Coniugio copulatam".

Jackson : *Account of morocco*, p. 248 ; *Account of Timbucto*, (١٩)
p. 219:

(٢٠) انظر القرار الثاني من مراسيم مجمع طليطلة السادس عشر المنعقد سنة
٦٩٢ م كما انه حوالى نهاية القرن السادس للميلاد قام « ماسون » استق « ماردة »
لهدى كثيرا من الوثنيين الى المسيحية ، انظر :

Paulus Emeritensis : *De Vita*, pp. *Emiritenium*, p. 35b.

(٢١) قام أحد المؤلفين الاسبان ممن كتبوا في القرن السابع عشر أيام فيليب الرابع
بمناقشة هذا الموضوع بقوله « ليس من العجيب أن يتخلى سكان البوجار بتلك السهولة عن
دينهم القديم ، فالذين يسكنون الآن تلك الجبال انما هم المسيحيون القدماء ، وليس في
عروقهم قطرة واحدة من دم سجيل عليهم ، بل هم رعايا ملك كاثوليكي ، ومع ذلك فنظرا
لقلة المسلمين ونظرا للاضطهاد الحائق بهم فانهم يجهلون كل الجهد ما ينبغي عليهم فهمه
للحصول على النجاة الابدية ، اذ لم يبق لنيهم من الملة المسيحية سوى معالم طفيفة ،
انهل يظن أحد اليوم - وقد أصبح أعداؤهم سادة على بلدهم - أن يتأخروا عن نبذ عقيدتهم
واعتناق دينانة المنتظر الا اذا رغب الله راجع :

Pedraza : *Historia ecclesiastica re Granada*, fol. 95 V.

(٢٢) انظر المادة السادسة من مرسوم المجلس الثاني عشر المنعقد بطليطلة .

Vita Johannis Gorziensis, c. 129. (٢٣)

Marina, *Ensayo*, II, 5 seq. (٢٤)

Jamson : *Apologeticus*, II, c. 8. (٢٥)

Alvaro, *Epist.*, XIII, c. 3 ; Jamson : *op. cit.*, c. 24, (٢٦)

Samson : *Apolg.* II, c. 2. (٢٧)

(٢٨) كانت هذه الكاتدرائية في سنة ٧٤٧ م (= ١٢٠ هـ) في يد المسيحيين ، هذا
وقد درس تلك الناحية صاحب اخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢٩) راجع رحلة ابن جبير (طبعة رايت. ودى خويه) ص ٢٦٢-٢٦٣ ، ورحلة ابن بطوطة (طبعة دفريميرى وسانجورنتى) ١٩٨/١ .

(٣٠) راجع الاصطخرى : كتاب المسالك والممالك (طبعة دى خويه) ، ص ٦١ .

(٣١) قدرها المؤلف دوزى فى سنة ١٨٩٢ بما يقرب من مليون لفرنك أو ٤٤٠٠٠ جنيه استرلينى .

(٣٢) راجع ابن القوطية : الاقتحاح ، ص ٢٥١-٢٥٢ ، وترجمته ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٣٣) راجع الرازى فى المقرئ : نفع الطيب : ٢٦٨/١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٤/٢ ، ٢٤٥ ، وترجمته ص ٢٧٨-٢٧٩ حيث يذكر أيضا هذه العبارة لكن فى شيء من الإيجاز ، وقارن ذلك بما جاء فى المقرئ ، شرحه ، ص ٣٥٩ .

(٣٤) Journal Asiatique, IV eme serie, t. XVIII, p. 515.

(٣٥) وقد حدث فى مرة من المرات أن بلغت الجزية المفروضة على نصارى قرطبة ١٠٠٠٠٠ دينار .

(٣٦) ابو اسماعيل البصرى : فتوح الشام ، ص ١٢٤ .

Euloge : Mem. Sanctr., L. II. (٣٧)

Euloge : Mem. Sanctr., L. II, c. 5. (٣٨)

(٣٩) هذا خطأ فى تفسير اسلام من اسلم ، وأن اسلامه كان لخوفه من الجزية ، فالاسلام صريح فى معاملة من يؤثر البقاء على دينه وذلك يدفعه الجزية وهى مبلغ ضئيل جدا ، ويعطى منها الشيخ والمرأة والطفل والعاجز ورجل اللجن ، ثم أنه لم يعرف فى الأحكام الاسلامية ما يدنس شرف المرء الذى لعله استمد ما يقوله هنا من سامسون : نفس المرجع ، ج ٢ ، ف ٢ - (المترجم) .

De Toqueville. (٤٠)

(٤١) انظر الابيات الواردة فى ابن عذارى : البيان المغرب ١١٤/٢ ، وترجمته ١٨٤-١٨٣ . وهى الابيات المذكورة فى ابن حيان ، ورقة ٦٤ ب ، والتي طبعتها دوزى فى Notices sur quelques manuscrits Arabes, pp. 258-9.

ومن الملاحظ ان العرب لم يطلقوا أبدا على المسيحيين هذا النعت المهين .

حواشي الفصل الثالث

- (١) سنطلق هذا اللفظ من الآن فصاعداً على العلوج وأبنائهم .
- (٢) انظر ابن أبي زرع ، روض القرطاس (طبعة تورنبرج) ص ٢٢ وذلك فيما يتعلق بالقوم الذين سكنوا « العدو » من الأندلس إلى فاس
- (٣) كانت هذه الناحية تسمى قديماً « شقندة » ، انظر المقرئ : نفع الطيب ، ٨٩٩١ ، وكذلك فيما يتعلق بطالوت بن عبد الجبار .
- (٤) انظر أخبار مجموعة ص ١٢١-١٢٤ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ٧٠٦٨/٢ ، وترجمته ص ١٠٥-١٠٩ .
- (٥) انظر ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط باريس) ورقة ٢١٢ ب - ٢١٤ ب ، وابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥٠-٢٥١ ، ٢٧٦ :
- (٦) يقصد دوزي بذلك رجلاً اسمه الضبي .
- (٧) راجع ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥٦ ، ٢٧٨ ، ونفع الطيب ٢١٦/١ .
- (٨) ابن القوطية وعبد الواحد المراكشي ، ص ١٢ ، وترجمته ص ١٥ وما بعدها .
- (٩) راجع أخبار مجموعة ص ١٢٠ - ١٢١ .
- (١٠) فيما يتعلق بمؤسس المذهب المالكي راجع على الخصوص بربوكلمان : تاريخ الأدب العربي ١٧٥/١-١٧٦ ، وكذلك :
- Goldziher : La Dogma et la loi de l'Islam, trad., pp. 43-44.
- وكذلك ما كتبه عنه في الدائرة ، ونضيف إلى ما ذكره المؤلف في المتن أعلاه ، كتاب استاذنا المرحوم أمين الخولي عن مالك في مجموعة أعلام الإسلام . (المترجم)
- (١١) ابن القوطية ، الافتتاح ، ص ٢٥٧ ، ٢٧٩ .
- (١٢) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان (طبعة دي سلين) ٦٥/١ :
- Weil : Geschichte der Chalifen, II, 42-43.
- (١٣) انظر ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٥٧ ، ٢٧٩ ، وطبقاً لما يرويه هذا المؤلف نرى أن الفقيه القرطبي زياد بن عبد الرحمن اللخمي كان أول من نوه بمالك بن أنس عند هشام وذلك في السنة الثالثة من حكم هذا الأمير ، ويذكر المقرئ : نفع الطيب ، ٢٥٤/٢ كيف أنه كان من جراء العلاقات التي قامت بين المدينة المنورة والأندلس أن ساد مذهب مالك هذا القطر ، وكان سكان الأندلس والمغرب قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعي ، راجع عنه ما كتبه فنسنت في الدائرة .

(١٤) كان يحيى من قبيلة مصمودة البربرية وكانت تتبع بالولاء قبيلة بني ليث العربية كما كان جده احد اصحاب طارق ، انظر ابن خلدون : العبر ، ٢٩٧/١ ، أما اسمه الكامل فهو أبو محمد يحيى بن كثير بن أوسلاس (أو أوسلاسن) الليثي المصمودي ، واليه يرجع الفضل في نشر حوطاً مالك بن انس في المغرب ، راجع بروكلمان ١٧٦/١ ، وهناك اشارات عنه في الضبى بغية الملتس (طبعة كودرا) رقم ١٤٩٧ ، ص ٤٩٥-٤٩٨ ، وابن الفرضي : تاريخ الاندلس ، ٤٤٤-٤٤٦ ، رقم ١١٥٤ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان (القاهرة) ٢٨٥-٢٨٧ ، ونفع الطيب ، ٤٦٥-٤٦٧ .

(١٥) انظر ابن خلكان ، نفس المرجع والجزء والصفحات .

(١٦) يخطئ دوزي في تفسيره لشخصية يحيى بن يحيى ويحاول أن يفسر هذا الاعتداد بأنه زهو وكبرياء ، والواقع أن يحيى كان له من علمه وفقه ما يؤهله لأن يكون في مقدمة رجال الفكر والفقه ذوي الثقافة الواسعة والعلم العظيم في عصره حتى الآن . من هنا كان الفارق الكبير بينه وبين السيد الروماني في العصور الوسطى (المترجم) .

(١٧) راجع نفع الطيب ، ٤٩١/١ ، ويذكر هذا المؤلف أن مؤدب الحكم كان يدعى « سوار بن طارق » .

(١٨) انظر أخبار مجموعة ، ص ١٢٨ .

(١٩) شرحه ص ١٢٥-١٢٦ ، والبيان المغرب ، ص ٨٠ ، وترجمته ص ١٢٧-١٢٨ .

(٢٠) المراكشي المعجب ، ص ٢٣ ، وترجمته ص ١٦ .

(٢١) التاريخ الوارد في ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٢/٢ ، وترجمته ، ص ١١٤ ، هو سنة ١٨٩ هـ ، ويلاحظ أن النويري ، ص ١٨٤ ، اذ نص على سنة ١٨٧ ، ولتحقيق ذلك راجع الكامل ١٢٨/١ ، ١٢٩ ، pp. 165-166 Annales, هذا وقد جاء في التوقيعات الالهامية ، من ١٩٥ أن أول يناير ٨٠٥ هو الأربعاء ٢٥ محرم سنة ١٨٩ هـ ، وستعتمد على هذا الكتاب في رد جميع التواريخ الميلادية التي يذكرها دوزي الى ما يطابقها من السنوات الهجرية . (المترجم) .

(٢٢) أما هذا للشخص فاسمه الكامل هو عيسى بن دينار بن واقد الغافقي ، راجع ايضا ما كتبه الضبى في بغية الملتس ، رقم ١١٤٤ ، ص ٢٨٩ - ٣٩٠ .

(٢٣) ذكر هذا الاسم ابن القوطية ، غير أن ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٢/٢ ، وترجمته ص ١١٤ ، وابن الأثير : الكامل ١٢٩/٦ ، والنويري ، ص ١٨٥ يجمعون على تسميته بمحمد بن القاسم القرشي المرواني ، وهو عم هشام بن حمزة لاييه .

(٢٤) ورد اسمه في ابن القوطية هكذا « برنت » دون ضبط ، وفي أخبار مجموعة يرسم « برنت » ، أما ابن الأبار فيسميه « يزنت » وربما كان « يزفتو » الذي يعادل Jacinto في الاسبانية ، ونحن نعرف أن العرب كالرومان كانوا يحبون أن يطلقوا على عبيدهم أسماء الاحجار الكريمة راجع في ذلك :

FRAEHN : /bn Foszlans und derer araber Berichte, uber die Russen Alterer (Zeit, XXXIX).

(طبعة بيترسبورج ١٨٢٢) وكذلك الحال في المغرب حيث كانت كل النساء السوداوات - سواء كن حرائر ام جاريات - يسمين بعنبر وياقوت ولؤلؤ الخ ، وهذا ما يراه دوزي ولكننا ترجح أن يكون اسمه هو « برنت » وهو ما اعتدنا في الترجمة هذا وفيما يلي من الصفحات (المترجم) -

(٢٥) راجع ابن القوطية ، ١٢٢ من مخطوط باريس ، Extraits, p. 200. وابن الأثير : الكامل ١٢٩/٦ ، pp. 166-167. Annales, والنويرى : ص ١٨٥ ، وانظر ايضا ما ورد عن يحيى فى ابن خلكان والمقرئ .

(٢٦) وذلك باغراء شخص يدعى اصبيغ بن عبد الله بن ونسوس ، كما يسميه ابن عذارى ، وقد اشار الى هذه الثورة كل من ابن الأبار وابن الأثير والنويرى وابن خلدون .

(٢٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٤/٢ ، وترجمته ١١٦ ، وابن الأثير : الكامل ١٢٧/٦ ، Annales, p. 171. والنويرى ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢٨) Isidore de Beja, c. 49, 62, 69 et 77.

(٢٩) هكذا يسميها القزوينى ، راجع Cosmographie, II, 366. ويسميها ايزيدور الباجى ، فصل ٤٠ باسم "URBS REGIA"

(٣٠) كان البربرقد استقروا منذ آمد بعيد فى الضواحي المجاورة وفى املاك المهاجرين اكثر من استقراهم فى المدينة نفسها .

(٣١) ابن القوطية ، ١٣٠ ، من مخطوط باريس ، و Extraits, p. 196.

(٣٢) وردت الاشارة الى هذا الشاعر فى بقية الملتصق للضبي ، ص ٤٢٨ ، رقم ١٢٨١

Fagnan : Extraits inedit, p. 196, note 2.

(٣٣) Ann. Bertin ; ad annum 809 et 810 (Monumenta Germaniae).

(٣٤) نزيد على ما قاله المؤلف ما جاء فى بعض المراجع العربية من ان السلطان كتب الى صاحب الثغر الأعلى « يأمره بأن يرسل اليه مستغيثا من جيوش الكفرة وتحرك العدو ، ولم يكن فى ذلك شئ من الصحة ، وانما كان ذريعة لاتخاذها لتبرير ما هو مقدم عليه . (المترجم)

(٣٥) الموضوع القريب الذى يشير اليه دوزى فى المتن هو المعروف بالجارين .

(المترجم)

(٣٦) المرجع فى ذلك ابن عذارى وابن الأثير .

(٣٧) ابن القوطية والنويرى .

(٣٨) راجع ابن القوطية ، ورقة ١٢٠ - ٢١ ب من مخطوط باريس ، وابن عذارى :

البيان المغرب ٧٢-٧١/٢ ، وترجمته ، ص ١١١-١١٢ وابن الأثير : الكامل ١٠٨/٦-١٠٩ ، ١٢٥-١٢٧ ، والنويرى ، ص ١٨٥-١٨٦ ، ويلاحظ ان التاريخ الوارد فى ابن عذارى خطأ ، وقد حدث فى سنة ٦١١ م ان دبر احد ملوك الفرس نفس المكيدة للقضاء على بعض اعدائه انظر فى ذلك :

Coussin de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, t. II, pp. 576-578.



حواشي الفصل الرابع

(١) أسهب مؤلف أخبار مجموعة ، ص ١٢٩ وما بعدها ، في الكلام عن عسكر الحكم المرفقة ، راجع أيضا ص ١٠٩ من نفس الكتاب فيما يتعلق بعراقة عبد الرحمن بن معاوية وهو السلطان الذي ابتدع نظام العرفاء الذين كانت تحت امره كل منهم عراقة تشمل مائة فارس ، انظر :

Dozy : Supplement aux Dictionnaires arabes, t. II, v. 117, Col. 2.

وكنكك البيان المغرب ، ٨١/٢ ، وترجمته ص ١٢٨ . وقد تناول لفظ « الخرص » بالبحث كل من النويري ، ص ١٩٤ ، وابن الأثير : الكامل ٢٦٨/٦ (= Annales, p. 195) . راجع أيضا الفتى بن خاقان : فلائذ العقيان ، ص ٩٦ ، ونلق الطيب للمقرئ ٢٢٠/٢ ، وانظر عن كلمة « الخرص » : Dozy . op. cit., t. I, p. 362. Col. I.

(٢) راجع النويري ، ص ١٩٠ ، وابن الأثير ، ٢٠٩/٦ .

(٣) من العجيب أن المؤرخين العرب لا يختلفون اختلافهم في تحديد تاريخ حادثة هامة كحادث ثورة الريض الجنوبي من قرطبة ضد الحكم الأول ، وهم يتفقون جميعا على القول بانها جرت في رمضان ، غير أن بعضهم يجعلها بسنة ١٩٨ هـ (= مايو ٨١٤ م) ، ويؤخرها آخرون الى سنة ٢٠٢ هـ (= ٨١٨ م) . واخيرا فإن ابن الأبار لا يكتفى بذكر سنة ٢٠٢ بل يسمى اليوم وموقعه من الشهر فيقول ان الثورة جرت يوم الأربعاء ٣ رمضان ، وعلى الرغم من هذه الشهادات التي نزلها منزلة الاحترام الا ان المؤلف يعتقد ان الثورة حدثت سنة ١٩٨ هـ وما هي ذى حجه :

(١) بناء على ما ذكره ابن الأبار وابن عذارى فإن هناك فريقا كبيرا من الثوار راح يقتل له من حُلجا في طليطلة التي كانت وقتئذ ثائرة على الحكم ، « وهذه الاشارة تنطبق تماما على سنة ١٩٨ هـ ، لأن طليطلة كانت في الواقع في ثورة ايان تلك الفترة ولم تكن كذلك سنة ٢٠٢ هـ منذ ان عاد الحكم لتملك طليطلة سنة ١٩٩ ، انظر البيان المغرب ٧٦/٢ ، وترجمته ص ١٢٠ وقد بقيت هذه المدينة بقية عهد هذا الأمير مطيعة له . »

(ب) أن سنة ١٩٨ هـ التي يشير النويري وابن الأثير الى حدوث الثورة فيها كأمير مؤكدة نستنبطها من مؤرخ أقدم من هذين الا وهو ابن القوطية ، الذي وان لم يعينها بالذات الا انه يقول أن حديث الحكم مع طالبات كان بعد سنة من الثورة ، ثم انتاب المرض الحكم بعد تلك المقاتلة فلزم فراشه سبع سنوات مات بعدها ، فكانه يشير بذلك الى شبيب الثورة قبل موت الحكم بثمانى سنوات ، ويتفق المؤرخون جميعا على أن الحكم مات سنة ٢٠٦ هـ .

(ج) أن سنة ١٩٨ هـ مؤكدة بشهادة المؤرخ المقرئ الذي لم يبحث فقط في الوثائق العربية الاسبانية بل وفي الحوليات المصرية فقد اشار الى أن قدوم الاندلسيين الى الاسكندرية كان سنة ١٩٩ هـ (راجع كتاب الخطط ، طبعة فييت ، ج ٣ ص ١٨١ ،

القاهرة ١٩٢٢) ، فقد هاجمهم في هذه السنة بالذات حاكم المدينة الذي عزلوه ، كما أنه في حوالي نهاية سنة ٢٠٠ مازحهم عبد العزيز ومن المحتمل أن تكون كل هذه التواريخ مخطئة .

(٤) راجع النويري ، ص ١٩٠-١٩١ وابن الأثير : الكامل ، ٢٠٩-٢١٠ ،
Annales, pp. 177-178.

(٥) أورد ابن بطوطة ، ص ٥٥ و ٥٦ هذا الاسم بالجيم المعجمة ، أما دوزي فقد ترجمه
بالحاء المهملة .

(٦) أخبار مجموعة ، ص ١٢٠-١٢١ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ص ٤٠ ،
والمراكشي : المعجب ، ص ١٢ ، وترجمته ص ١٦ نقلا عن ابن حيان .

(٧) راجع في هذا ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٢٢ ، ب ، من مخطوط باريس ،
Extraits, p. 204.

(٨) يسميه ابن عذارى في البيان المغرب ٧٨/٢ ، وترجمته ، ص ١٢٢ بعبيد الله
بن عبد الله البلنسي ، ويكتبه بصاحب الصوائف ، ويذكر نفس المرجع أنه قد صحبه أسحق
بن المنذر القرشي .

(٩) البيان المغرب نفس الجزء والصفحة وكذلك ترجمته .

(١٠) راجع البيان المغرب ، نفس الجزء والصفحة ، وترجمته ص ١٢٣-١٢٤ .
Annals, p. 113 . والكامل لابن الأثير ، ٢١٠/٦ .

(١١) لم يذكر دوزي اسم هذا الشيخ ولكنه يسمى بعبد الكريم بن عبد الواحد
بن عبد المغيث (المترجم) .

(١٢) نزيد على ما قاله المؤلف دوزي في المتن أعلاه ، ما رواه ابن القوطية
الافتتاح (طبعة مجريط سنة ١٨٦٨) ص ٥٢ من أن جزارا من أهل الاسكندرية ضرب
وجه رجل مسلم من أهل الأندلس بكريش ، فأنف أصحابه لذلك ، وحمل هو بالسيف على
أكثرهم فلما بلغ الرشيد الخبر أخرج هوشة بن أيمن الحاجب ليستصلح أمرهم فابتاع
المدينة منهم بمال كثير ، ثم خيرهم في النزول حيث شاءوا فاختاروا جزيرة اقريطش .
(المترجم)

(١٣) يرجع أصل أبي حفص البلوطي الوارد في المتن إلى حفص البلوط المعروف اليوم
Campo de Calatrava

(١٤) الحلة السيرة لابن الأبار ، ص ٤٠ ، والبيان المغرب لابن عذارى ، ٧٩/٢ ،
وترجمته ص ١٢٥ حاشية رقم ١ ، وقد درس ماريانو جميع هذه الحوادث دراسة وألفية في
Mariano Gaspar Remiro : Cordobeses musulmanes en Alejandria y
Creta (in Homenaje à d. Francisco Codera Zaragoss, 1904, pp. 217-233).
وانظر أيضا دائرة المعارف الإسلامية ، وراجع ما كتبه جيزي تحت كلمة « اقريطش »
وتسيبولد تحت اسم « أبو عمر البلوطي » وشتمت تحت الحكم الأول والمراجع التي أوردها
(كذلك يجب أن نضيف كتاب المقرئ : الخطط ، طبعة فييت ، القاهرة ، ١٨١/٣-١٨٥ .
(المترجم)

(١٥) راجع البكري
Description de l'Afrique Septentrionale (ed. de Slane p. 116-116).

وإبن أبي زرع : روض القرطاس ص ٢٢-٢١ ، ٢٥ ، ٧١-٧٠ .

(١٦) الشخصى : كتاب القضاة بقرطبة من ٧٢ - ٧٣ : وترجمته من ٩٠ - ٩١ ،
أما هذا القاضي فهو أبو الفرج بن كنانة الكنانى .

(١٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٩/٢ ، وترجمته من ١٢٥ .

(١٨) النويرى ، من ١٩ .

(١٩) ابن القوطية : الافتتاح ، ١ ٢٣٠ من مخطوط باريس (وانظر أيضا فى :
Extraits inedit, p. 202.

والمراكشى : المعجب ، من ١٤ وترجمته من ١٧ .

(٢٠) كل ما سبق مأخوذ من ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١ ٢٣ - ١ ٢٤ من مخطوط

باريس Extraits. pp. 201-203. ومن قصة أوردها المقرئ : نفع الطيب ٩٠٠/١ .

(راجع أيضا النويرى ، من ١٩٢) يظهر خلق طالوت خير ظهور فى يوم أحسن من
هذا اليوم ، لكن يجب أن نذكر أن القصة الأكثر ثبوتا هى قصة ابن القوطية .

(٢١) انظر ابن القوطية : الافتتاح . ورقة ١ ٢٤ (مخطوط باريس) .

Extraits inedit, pp. 203-204.

وابن عذارى : البيان المغرب ، ٨٢/٢ ، وترجمته من ١٣٠ .

(٢١) انظر ابن القوطية ، شرحه ، ورقة ٢٤ ب ، ١ ٢٥ . Extraits, p. 204-205.

وأخبار مجموعة ، من ١٢٣ ، ١٢٤ ، وابن الأبار : الحلة السبراء ، من ٤١ .

(٢٢) ابن عذارى البيان المغرب ، ٧٢/٢ - ٧٤ ، وترجمته من ١١٥ - ١١٦

وترجمته ، أما المقرئ : نفع الطيب ٢٢٠/١ فقد اقتبس خمسة أبيات فقط من هذه القصيدة .

راجع أيضا أخبار مجموعة ، من ١٢٢-١٢٣ ، وابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١ ٢٣ ،

Extraits inedit, p. 231. حيث نكر البيت الأخير فقط ، وانظر ابن الأبار : الحلة

السبراء من ٤١ . وابن عبد زيه : العقد الفريد ٢٧٠/٢ .



حواشي الفصل الخامس

- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٩٣/٢ .. وترجمته من ١٤٨ ، والمقرئ : نفع الطيب ٢٢٢/١ و Euloge : Memoriale Sanctorum, L. II, c 1.
- (٢) راجع أخبار مجموعة ، من ١٣٦ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٩٤/٢ وترجمته من ١٤٩ .
- (٣) راجع المقرئ : نفع الطيب ، ٢٢٢/١ .
- (٤) راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٨٦/٢ .
- (٥) الخشني : كتاب القضاء بقرطبة ، من ٨٢ - ٨٣ ، وترجمته من ١٠١-١٠٢ .
- (٦) نفس المرجع ، من ٩٥-٩٦ ، وترجمته من ١١٦ - ١١٧ .
- (٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٨٦/٢ .
- (٨) الخشني : كتاب القضاء بقرطبة ، من ٩٥ - ٩٦ ، وترجمته من ١١٦ - ١١٧ .
- (٩) البيان المغرب لابن عذارى ، ٨٣/٢ ، وترجمته من ١٢١ .
- (١٠) انظر ترجمة زرياب في الطيب ، ٨٣/٢ ، وما بعدها ، وكل ما سبق مستمد منه ، وراجع أيضا ابن القوطية : الانتاح ، ورقة ١٠٢٩ ، ب ،
- Extraits inédits, pp. 213-4.
- (١١) الخشني : كتاب القضاء بقرطبة ، من ١٢ ، وترجمته من ١٢-١٤ .
- (١٢) نفع الطيب للمقرئ ٢٢٥/١ .
- (١٣) البيان المغرب لابن عذارى ، ٩٤/٢ - ٩٥ ، وترجمته من ١٤٩ - ١٥٠ ، ونفع الطيب للمقرئ ، ٢٢٤/١ - ٢٢٥ .
- (١٤) الخشني : كتاب القضاء ، من ١١ ، وترجمته ، من ١٣٦ .
- (١٥) انظر خطاب لويس التقي الى نصاري ماردة في مجموعة :
Espanna Sagrada, t. XIII, p. 416.
- (١٦) راجع ابن عذارى البيان المغرب ، ٧٦/٢ ، ٨٥ ، وترجمته من ١٢٠ - ١٣٥-١٣٦ ، والبويري ، من ١٩٨ .
- (١٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب : ٨٥-٨٦/٢ ، وترجمته من ١٣٥-١٣٦ ، والكامل لابن الأثير ٢٩٣-٢٩٤ ، Annales, 206-208 ، والنويري ، من ١٩٧-١٩٨ .
- (١٨) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٨٦/٢ - ٨٧ ، وترجمته من ١٣٦ - ١٣٨ ، والكامل لابن الأثير ، ٣١٢/٦ - ٣٢١ ، ٣٣٦ - ٣٣٧ ، Annales, pp. 208-209.
- والنويري من ١٩٨ - ١٩٩ .



حواشي الفصل السادس

Euloge : *Memoriale Sanctorum* (in *Schot. Hispania illustrata*, (١)
t. IV, p. 248; Alvaro *Indiculu Lauminosus* (Esp. sagr. XI, p. 225)
Euloge : op. cit., l. II, c 2, 3 ; l. III, C.I., alvaro : *Ibid.*, (٢)
pp. 225, 273.

Samson : *Apologeticus* (Esp. Sagr.), XI, L. II, c. 6. (٣)

(٤) جاء في مخطوط الفارو (ص ٢٧٢ ، نشره فلوريز) هذه العبارة التالية :
el dum eorum versibus et fabellis mille suis delectamus.

وبدلا من mille قرأها فلوريز mille دون أن يلاحظ أنه لابد في هذه الحال من
أن يكتب المؤلف eorum بدلا من suis ، على أن الصحيح هو millis

(٥) Alvaro : op. cit., 274-275. وفزيد على ما ذكره دوزي في المتن أعلاه ، ما

جاء في الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الحالي « ومع ذلك فقد تأتي النصرانية أن تأخذ
بأنها حين قام الكرنيدال اكسمناس واحرق جهرا ثمانين ألف مجلد عربي بفروناطة ، كما
صدر قرار كنيسي باعتبار اللغة العربية لغة جافة لشعب غير مؤمن محقق » ولا تعليق لنا على
هذا الا ان ندع القارئ يتدبر بين الأمرين (المترجم)

(٦) كان من الأمور الجديدة عند أهل قرطبة ما حمله اليهم أيولوج من نفارة سنة

٨٤٨ م الا وهو اتيادة لرجيل واماجي هوراس وجوفينال ، انظر في ذلك :

Alvaro : *Vita Eulogii*, c. 9.

Alvaro : *Vita Sulogii*, c. 4.

(٧)

(٨) شرحه ، الفصل الثاني وقارنه بما جاء في :

Sharon Turner : *History of the Anglo Saxons*, Vol. III, p. 655.

Isidore de Bija c. 36 ; Euloge : *Mem. Sanct.*, L. II, c. I ; (٩)

Apologia martyrim, u. 314.

Euloge : *Epistola ad Willesindum*, p. 330.

(١٠)

Alvaro : *Indic. lumin*, p. 273, Samson : *Apolog.* L. II c. 4. (١١)

(١٢) هذه صورة من صور الجهل المطبق بالاسلام وبنبيه عليه الصلاة والسلام من

جهة وبالكراهية التي تعمى وتضم من فاحية اخرى ، وهي تدل على الدرك الاسفل
الذي انحدرت اليه عقلية الدين كانوا معتبرين مرشدين ومعلمين المشعوب في العصور
الوسطى في الغرب من رجال الدين ، وكان الكثيرون منهم ومن غيرهم من ذوى الاغراض
الدينية لا يألون جهدا في نشرها والترويج لها وتسميم عقول الناس الذين كان الجهل
الفكري يطمس على عقولهم فاخذ العامة - وهم معذورون - هذه الأقوال البذيئة على أنها
حقائق وما هي الا ضلال ، وويل لقوم كان مرشدوهم مضللهم ، وهدايتهم مفسديهم ، فلا عجب
ان سميت تلك الحقب من التاريخ بالحقب المظلمة . ولقد ظهر فيما بعد بين الغربيين من
نددوا بهذه الافكار الفجة واطهروا ما فيها من الخل ، وكان هناك الكثيرون من أهل تلك
الحقب من يقبلون على هذه المزاعم القبيحة الخاطئة ويتبعونها بين الناس ، ومن ثم فان
دوزي يرى ان السبب الذي حمل هؤلاء الرجال على اعتناق مثل هذه الافكار السيئة عن الرسول
الكريم يرجع الى جهلهم المطبق ، كما يأخذ عليهم - كما يأخذ كل فاهم للتاريخ - انه كان

من الجدير بها (لا يقبلوها لأنهم كانوا يحكون بالمسلمين احتكاكا كان أولى بأن يرشدكم الى الصواب : ونضيف نحن من جانبنا ان ما يعلق به « ايولوج » في كتابه :
Euloge : Apolog. musulmans 512-513.

على كلام صاحب مخطوطة « باميلونة » انما يدل على منتهى السفسطة والجهل من رجل نصب نفسه مدافعا عن قضية كان هو الخاسر فيها امام محكمة التاريخ ، وكان الاجدر بايولوج ان يمسك عن تعليقه الذي يقول فيه « تلك هي معجزات نبي المسلمين » لأنه تعليق دل على أنه يؤمن بهذه الترهات وانه يريد أوصولها الى أذهان الناس في الغرب المسيحي ، مما يفصح تعصبه الأعمى المضل ، وما نمك الا أن نقول أنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . (المترجم)

ALVARO : Indie. Lumin, pp. 252-253. (١٣)

(١٤) ويقصد بذلك يوم الجمعة .

ALVARO : Op. cit., p. 270. (١٥)

(١٦) هكذا جاء في نفس الرجوع ، ص ٢٧٠ ، وحسبنا أن ندلل على ذلك ما ادعاه « الفارو » بما ذكره المؤلف « دورى في المتن أعلاه من ان الفارو نسب الى السيد المسيح عليه السلام قولا لم يقله ، ونضيف الى ذلك أنه اذا كانت الجراءة في الوضوح والتدليس قد وصلت بهذا الرجل التزمت في تعصبه والقسيس الذي اجترأ على الكذب على المسيح ذاته فنسب اليه ما لم يقله فكيف يمكن تصديقه فيما يدعيه حول النبي العربي ومبادئ الاسلام ؟ (المترجم)

(١٧) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ، ٢٨٦/٢ .

(١٨) هذا ما يقوله الفارو في Ahol. Marly p. 311. ونعلق في هذه الترجمة العربية لنقول أن النظرة العابرة للإسلام في كل تاريخه توصف بمعاداة الضريحة للشرك وعبادة الأصنام والتقرب الى الأوثان ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تندد بتنديدا غلبا لعبادتها والمتوسلين بها والمقدمين لها القرابين ، بل لقد دعا الاسلام الى تحطيمها ، وكان هذا هو ما كرهته قريش وحاربه من أجله حربا لا هوادة فيها ، كما ان الكتاب العزيز حافل بالهجوم على الشيطان ، ولا نرى داعيا للاطالة في مسألة واضحة وما كلام هؤلاء المقتربين في هذا الموضوع سوى ضرب من الهنيان الذي لا جدوى من مناقشته (المترجم)

Euloge et Alvaro, passim. (١٩)

(٢٠) ان هذه الأقوال والاتهامات لا نجد لها مصدرا عربيا أو مسيحيا الا ما أشار اليه دورى من أنها وردت في كتاب القسيس المتعصب « ايولوج » ، Mem-Sanct, p. 250. وغنى عن البيان أن « ايولوج » - كما ذكر المؤلف قبل هذا بقليل - كان يعتمد الاساءة الى الاسلام والى رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويتسب اليه من الترهات ما هو برئ منها . (المترجم)

Euloge • Mem. Sanct., p. 250 in fine. (٢١)

(٢٢) اذا كان هذا قد ورد في نفس المرجع السابق « لايولوج » في ص ٢٤٧ • فبديهي أنه مثل آخر من الاقتراءات كتاب العصور الوسطى المسيحيين على الاسلام وتعاليمه . وكان هؤلاء هم الجماعة الوحيدة التي تعرف الكتابة الى حد ما ، ولكنها تجهل الحقائق الناصعة أو تتجاهلها عن قصد لغرض في نفسها ليس بالكريم ولا الشريف ، وما تعصب احدا من المسيحيين ممن لهم صلة بالمسلمين ودينهم الا وهو يعرف أن الاسلام وضع الجزية =

عن رجال الدين وعن كثيرين غيرهم من أهل الكتاب ، انظر ترقون : أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبشي الطبعة الثانية ، (المترجم) .

(٢٣) اعتمد المؤلف في هذا على ما جاء في عبارة وردت في :
Leovigild . De Hancw Civecorum (Esp. SAGR., XI, p. 513).

ويضيف المترجم أنه غنى عن البيان أنها أفتراءات على المسلمين ، لقد أعلى العرب دخولهم اسبانيا الكثيرين من الجرية وفي مقدمتهم القسس ورجال الدين . (المترجم) .

Leovigild : Op. cit., Loc. Cit. (٢٤) *

(٢٥) كيات الانجيل التي يشير اليها دوزى في الآيات ١٦ - ٤٢ من الاصحاح

العاشر .

Euloge : Mem. Sanct. p. 240. (٢٦)

Euloge : Op. cit., p. 249. (٢٧)

(٢٨) ايولوج : نفس المرجع ، ص ٢١٢ (وراجع الزامير ١/٨٢ - ٧) (المترجم) .

Euloge : Epist. Ad. Willesindum. (٢٩)

Alvaro : Vita Eulogii, c.2. (٣٠) ونضيف الى ما اشار اليه دوزى أن

القديس « زويل » هذا قد استشهد في قرطبة زمن دقلديانوس ، وبني له اجانبيوس كنيسة دفنت بها جثته ، وتوجد ترقية من أجله في كتاب صلوات قديم ، كما أن ايولوج نفسه دفن في هذه الكنيسة .

Alvaro : op. cit., c. 2. (٣١)

Mem-Sanct. 241-242. (٣٢) القديس ايولوج قطعاً من هذا الكتاب في مؤلفه

Epiloge : Memor. Sanctr., p. 267. (٣٣)

Alvaro : Vita Eulogii, c. 2.

Ibid., c. 3. (٣٥)

Eulogue : Mem. Sanctr. p. 265-266. (٣٦)

Ibid. "Specil decoris et Venustate corporis nimum florens" (٣٧)

Docum., Marty, p. 325 (٣٨)

حواشي الفصل السابع

- Euloge : Mem. Sanctr., L. II, c. I ; Lane : Modern Egyptians, (١)
II, p. 266-269 ; Mission historial de Marruecos, p. 46 ; Lyon :
Travels in Northern Africa, pp. 108-109.
- Euloge : Mem. Sanctr., II, c. I ; Indic. lumin., pp. 225-227. (٢)
- (٣) فيما يتعلق بهذا الطبيب راجع ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ٤٢/٢ ، وصاعد
الطليطلى : طبقات الأمم (طبعة شيخو) ، بيروت ١٩١٢ ، ص ٧٨ .
- Extraits, pp. 220 221. = ٧٢ ، ١٢٢ ، الانتاح (٤)
- Euloge . Mem. Sanct. II, c. I. (٥)
- Cf. Euloge : Mem. Sanctr., pp. 242-243 ; Alvaro : Indie.
Lumin., pp 227-228. (٦)
- Euloge : mem. Sanct. pp. 237-8 ; Ibid., II, c. 2. ; Alvaro : (٧)
Indic. lum., p. 237-8 ; Martyrologe d'Usud (Esp. Sagr., t. X, p. 379).
- Euloge : mem. Sanct. II, c. 4. (٨)
- Euloge : Mem. Sanct. II, c. 4. (٩)
- Euloge : Mem. Sanctr. II, c. 3, 3 (١٠)
- Euloge : Mem. Sanct. pp. 243 245, 246, 248-9. (١١)
- Euloge : Mem. Sanct., p. 243 "Plerique fidelium et hue (١٢)
proh. dolor etiam sacerdotum.
- Ibid., p. 239. (١٣)
- (١٤) داب أيولوج والفارو على تسمية القتل بجنود الرب الداميين لمحاربة العدو
للكافر
- Euloge : Mem. Sanct., L. II, C. 15 ; Alvaro : Indic. (١٥)
lumin., pp. 243-244.
- (١٦) راجع ابن القوطية : الانتاح ، مخطوط باريس ، ورقة ١٣٥ - ب ، وكذلك
Extraits inedita, pp. 225-6. والخشني : كتاب القضاء بقرطبة ، ص ١٢٢ ،
وترجمته ص ١٥٩-١٦١ .
- Euloge op. cit., L. I, c. 2. وابن القوطية ، كتاب الانتاح ، (١٧)
ورقة ١٣٥ - ١٢٥ p. 225 Extraits والخشني : كتاب القضاء بقرطبة ، ص ١٢٠ - ١٢١ ،
(١٨) فيما يتعلق بعبد الله بن أمية راجع ابن الأبار : الحلة السرياء ، ص ٩٤ .

حواشي الفصل الثامن

Euloge : Mem. Sanctr., L. II, c. 14, c. 15. (١)

Alvaro : Epi t., XIII, c. 3. (٢)

Cf. Euloge : Mem. Sanct., L. II, c. 15. (٣)

Euloge : Mem. Sanct., L. II, cfi 14, 15, Epist., IV. (٤)

Alvaro : Vita Eulogii, c. 4. (٥)

Euloge : Epist., IV. (٦)

Euloge : Docum. Martyr., p. 321. (٧)

Luctum non amitto quotidianum. (٨) لقد كتب الى الفارو يقول :

Documentum martyriale (٩) وعنوان هذه الرسالة هو

(١٠) ذلك هو الكتاب الاول والفصول الستة الاولى من الكتاب الثاني .

Isidore de Seville : Sentent., L. IV, c. 13. (١١)

Alvaro : Vita Eulogii, c. 9. (١٢)

Euloge : Mem. Sanctr., pp. 266-271 ; Epist., t. I, III., Alvaro (١٣)
Vita Eulogi.

(١٤) وكان مولد ليلة الخميس ٣ من ربيع الآخر سنة ٢٢٨ هـ .

(١٥) انفراد ابن القوطية ، ورقة ١٣٣ - ٢٤ ب ، يذكر هذه القصة ، راجع ايضا

Extraits inedits, pp. 219-225. أما بقية المؤرخين المسلمين فلم يشيروا

ابدا الى الاحداث التي صحبت اعتلاء محمد العرش .



حواشي الفصل التاسع

(١) ابن عذاري : البيان المغرب . ١١٤/٢ ، وترجمته ، من ١٨٢ ، راجع أيضا ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٢٧١/٢ .

Euloge : Mem. Sanctr., L. III, c. 5. (٢)

Extrait. inedit, p. 216. = ورقة ١٢٠ ، افتتاح (٣)

(٤) البيان المغرب ١٠٩/٢ ، وترجمته من ١٧٥ - ١٧٦ .

Euloge : op. cit., L. III, c. 5. (٥)

Euloge : op. cit., L. II, c. I, 2. (٦)

Euloge : op cit., L. II. c. 17, 8. II, c. I, 2., alvara, Vita Eulog. (٧)

c. 12.

(٨) Euloge : op. cit., L. II, c. 2. حيث يذكر أن اسلام قومس كان بدافع رغبته في الاحتفاظ بعمله الذي وعده به السلطان ، لكن ينبغي أن فرجح عليه ما نكره ابن القوطية في الافتتاح . ورقة ١٢٥ (مخطوط باريس) = Extraits inedit, p. 225.

(٩) Euloge : op. cit., L. II. c. 2. و الخشني : كتاب القضاء بقرطبة ، من ١٢٢ ، حيث يسميه « حمامة هذا المسجد » ، والظاهر أن قومس قد حافظ على اسمه النصراني ، أما ابنه الذي كان يضطلع بمهمة الكتابة والذي مات سنة ٩١١ م (= ٢٩٩ هـ) فقد تسعى بعمر ، راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ١٥٢/٢ وترجمته من ٢٤٦ بعمر بن قومس الكاتب .

Euloge : Epist, p. 330. (١٠)

(١١) اعتقد أن هذا هو ما ينبغي أن ينطق به الاسم الذي كتبه ابن عذاري في البيان المغرب ، ٩٧٢ ، وترجمته من ١٥٤ ، إذ أنه وارد في وثيقة لاتينية سنة ٩٠٨ م . راجع Villanueva : Viage Literario à las iglesias de España, t. XIII, p. 236. ومن المحتمل أن تكون نفس الكلمة Suintille وهو اسم أحد ملوك القوط أو « كلمة » Chin'illa الواردة في الوثيقة رقم ٩١٢ ، راجع في ذلك التحقيق : España Sagrad, t. XXX VII, p. 316.

(١٢) كان هذان القائدان اللذان يشير إليهما المؤلف في المتن أعلا . فما قاسم بن العباس وتمام بن أبي العطاف قائد اللرسان (المترجم)

(١٣) راجع البيان المغرب ، ٩٧/٢ ، وترجمته من ١٥٤ .

(١٤) كان ذلك في نهاية شوال ٢٢٩ هـ (= مارس ٨٥٤ م) .

(١٥) يذكر ابن عذاري في البيان المغرب ، نفس الجزء والمصلحة أن « غثون » هذا هو آخر : « أرذون » الاول ، ولكن ليست لدينا أية وثيقة لاتينية تؤكد هذا القول .

غير انه من الثابت انه كان يتولى « برزد » كونت اسمه غثون ، انظر في ذلك :
Florez : Reymas, t. I, p. 79; et Espagne sagrada, t. XVII, p. 31, 119.

ويشير ابن خلدون في كتاب العبر ١٢٠/٤ ، الى ان ملك نفارة ارسل هو الآخر جماعة
من الجند لمساعدة طليطلة .

(١٦) هو ابو القاسم عباس بن فرناس ، راجع عنه ما ذكره الضبى في بغية
التمس رقم ١٢٤٧ ، ص ٤١٨ ، وهذه الابيات واردة في قصيدة ذكرها ابن عبد ربه
في العقد الفريد ٢٧١/٢ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ١١٤/٢ - ١١٥ ، وترجمته
ص ١٨٢ - ١٨٤ .

(١٧) هذا بلا شك اسم زعيم نصراني ، بينما كان موسى قائد العلوج .

(١٨) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٩٦/٢ ، ٩٨ ، ١١٤ ،
١١٥ وترجمته ص ١٥٢ وما بعدها ، و ١٨٢ - ١٨٤ ، وابن الاثير : الكامل ، ٤٨/٧ ،
Annales, p. 232. وكذلك : النويري ، ص ٢٠٥-٢٠٦ . وابن خلدون كتاب العبر ،
١٣١-١٣٠/٤ .

Euloge : Mem. Sanctr., l. III, c. 10. (١٩)

Ibid., L. III, c. 5. (٢٠)

Apol. Martyr. Mem. Sanctr. ، وكذلك (٢١)

Alvaro : Vita Eulogii, c. 10. (٢٢)

(٢٣) بنى هذا الدير على جبل كثير النخل ، ومن ثم سمي بهذا الاسم ويعني « صخرة
الشهد » انظر :
Euloge : Mem. San. L. III, c. II.

(٢٤) ومع ذلك فان رأس اوريليوس كانت قد ضاعت منذ سنوات عدة ، ولذلك وضعوا
مكانها رأس زوجته متاليا . انظر :
Acta Sanctor. July, VI, p. 462.

Aimoin : De Translatione ss Martyrum (Esp. Sagr.), t. X, (٢٥)
pp. 534-566.

(٢٦) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٩٩-٩٨/٢ ، وترجمته ص ١٥٧ ، والنويري
ص ٢٠٦ ، وابن خلدون : كتاب العبر ، ١٣٠/٤ .

(٢٧) الشعر لعباس بن فرناس وهو وارد في نفع الطيّب ، ١٠٦/١ .

Alvaro : Vita Eulogii, c. 13-16. (٢٨)

Samson : Apologeius II, c. 0. (٢٩)

(٣٠) في هذه الفترة بالذات كانت الصلطان الاولى والثانية على اسبانيا وقد قام
بهما النرمنديون الذين تطلق عليهم المراجع العربية اسم : المجوس وقد درسهما
دراسة وافية مفصلة Dozy : Recherches, 3eme ed. t. II, p. 250-285.

وانا لنحيل القارئ على هذا الكتاب ، كما نحيله على مقال « المجوس » في دائرة
المعارف الاسلامية .

وقد اهتم مؤلف هذا الكتاب « دوزي » بهذه الفترة ودرسها دراسة وافية .

حواشي الفصل العاشر

- (١) انظر كتب الرحلات في هذا الموضوع وقد ورد بالتفصيل في :
C. Rochfort, Scott : *Excursions in the mountains of Ronda & Grenada* ;
De Custine : *L'Espanne sous Ferdinand VII (Lettres Nos. 50 et 51)* ;
S. S. Cook : *Sketches in Spain*, chs. I et XV ; Ford : *Gatherings from Spain (1846)*, Ch. XVI ; P. Merimée : *Lettres adressées d'Espagne*, no III et l'ouvrage de Roca.
- De Rocca : *Memoirs sur la guerre de Français en Espagne*, (٢)
p. 174-259.
- (٣) وهي التي عرفت فيما بعد بولاية *Regio* وعاصمتها أرشدونة ، راجع في تحقيق ذلك ما كتبه Dozy : *Recherches I, I, 317 et suiv.* أما فيما يتعلق بأرشدونة فراجع تسيبولد في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك المراجع المذكورة هناك .
- Sebastien : *Chron. (Esp. Sagr.)*, t. XIII, c. 26. (٤)
- (٥) راجع النويري تحت سنة ٢٥٩ هـ (طبعة جاسبير راميرو) ص ٢٠٨ ، وابن عذارى : *البيان المغرب* ، ١٠٢/٣ ، ١٠٤ ، وترجمته ص ١٦٥ .
- (٦) على من يريد التوسع في هذه الناحية مراجعة : Dozy : *Recherches* t. I, p. 211. كذلك ما كتبه ليفي برونفيسال في الدائرة تحت كلمة « سرقسطة » والمراجع المذكورة هناك .
- (٧) واسمه الكامل عبد الرحمن بن مروان بن يونس ، راجع عنه وعن ثورته ابن عذارى . *البيان المغرب* ، ١٠٢/٢-١٠٤ ، وترجمته ص ١٦٣ ، ١٦٧ ، وابن الأثير : *الكامل* . ١٢٧/٧ ، = . *Annales*, p. 243 وابن خلدون : *العبر* (طبعة بولاق) ١٢١/٤ ، والضبي : *بغية الملتصق* رقم ١٠٤٥ ، ص ٣٥٩ .
- (٨) راجع الاندلسي ، ص ٢٦٥ .
- (٩) هو سعدون الرمادي الصرباكي ، راجع ابن عذارى *البيان المغرب* ١٠٢/٢ ، ١٠٤ .
- (١٠) كان من جراء هذا التحالف أن تألف المؤرخون على نعت ابن مروان بالجليقي .
- (١١) توجد هذه القلعة بين Cuidal-Real وبين معسكر المدور ، ويذكر صاحب مرصع الاصلاخ أن العرب ينطقونها « كركى » وهو نفس الرسم الذي يكتبه Pelage d'Oviedo, c. II. ، انظر أيضا روض القرطاس ، ص ١٠٧ ، ومع ذلك فقد أوردها ابن عذارى في *البيان المغرب* ، ١٠٥/٢ وبالرسم الوارد بالمتن ، أي « كركر » ، وأخطأ = راجع .

الادريسي ٢٩/٢ ، اذ سماها « كراقرى » ، انظر فيها ياقوت : المعجم ٢٩/٤ وابن الغرضى
١٩/١ ، ٢٤٤ .

(١٢) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن القوطية : الامتتاع . ورقة ١٢٧ ،
وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠٢/٢ - ١٠٥ ، وترجمته ص ١٦٢/١٦٩ ، وابن خلدون :
العبر ١٢١/٤ ، والكامل لابن الاثير ، ١٩٩/٧ ، ٢١٥ = Annaes, p. 252-253.
راجع ايضا المقتبس لابن حيان ورقة ١١١ ب ، وكذلك :
Chronicon Albendense (Esp. Sagr.) t. XIII, c. 62.
(١٣) ابن عذارى : البيان . ١٠٦/٢ ، وترجمته ص ١٧٠ .



حواشي الفصل العاشر عشر

(١) يذكر ابن خلدون في العبر ، ١٢٤/٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠٨/٢ ، وترجمته ص ١٧٢ ، وابن الخطيب : الاحاطة : مادة عمر بن حفصون ، سلسلة نسب حفص الكاملة حتى يوصله الى الفونسو الذي يسميه ابن خلدون « بالقومس » اعتمادا منه على ابن حيان ، كما أن أسماء أبناء الفونس وأحفاد أولاده ، هي أسماء قوطية أو رومانية ، لكنها بدلت للأسف في المخطوطات ، فأبو حفص يدعى عمر ، راجع كذلك الاشارة القصيرة التي أوردها الضبى في بغية الملتمس . رقم ١١٦١ ، ص ٣٩٣ .

(٢) انظر طبعة المؤلف دوزي لكتاب ابن عذارى : البيان المغرب ٤٨/٢ وملاحظاته ، وكذلك حاشية مسيو دي سلين في Histoire de Berberes, t. I. p. XXXVII. ومن المحتمل أن تكون ثمة صلة بين نهاية الاسماء بالواو والنون وبين الـ On التي هي مألوفة في الكلمات الاسبانية .

(٣) راجع الاحاطة لابن الخطيب ، مادة « عمر بن حفصون » .

(٤) وكان اسمه « محمد بن الملح » ، انظر الاقتحاح ، ورقة ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) اختلفت الاقوال في تحديد موقع بويشترو بالضبط ، وقد لخص تسيبولد في الدائرة كل ما يدور حول هذه المسألة حيث يقول « اذا اتبعنا ما يقوله الغزيى وكونديه كان مكانه مكان أرغونة أو وشقة الواقعة في أقصى الشمال الشرقي من ولاية شرناطة ، أما دوزي فيرى في كتابه Recherches, t. I, pp. 323-327 أنه بقايا اطلال الحصن المذكور أعلاه بالتمن المعروف اليوم باسم el Castillon قرب « تيبا » ، غرب « أنتريكيورا » في وادي هورس ، أما سيمونييه فكان أدق في يحته اذ قال أنها هي Estebanetz Calderon الواقعة بين أنتيكيورا و « ارداليس » على مسيرة مرحلة ونصف من الشمال الشرقي من كراتراكا الحالية ، انظر Simonet : Histoire de los Mozarabes de Espana, p. 513 et suiv. وكذلك « دي كاسترو » في ترجمته الاسبانية لهذا الكتاب « تاريخ مسلمي اسبانيا » ٤٢١/٢-٤٣٦ ، حيث يظلل في تحقيق موقع بويشترو .

(٦) كان اسمه عامر بن عمر .

(٧) كان اسم هذا الحاكم الجنييد الذي لم يذكره دوزي هو عبد العزيز بن العيار

(المترجم) .

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠٦/٢ . ١٠٧ . وترجمته ص ١٧٠-١٧١ ، وابن خلدون . العبر ، ١٣٢/٤ ، والنويرى ، ص ١٢٩ ، وابن الاثير : الكامل ، ٢٥٢/٧ = Annales, p. 257.

(٩) البيان المغرب ، ١٠٦/٢-١٠٨ ، وترجمته ص ١٧٠-١٧٤ ، والنويرى ، ص ٢٠٩ ، والعبر لابن خلدون ، ١٣٢/٤ .

(١٠) راجع ابن القوطية : الاقتحاح ، ورقة ٢٨ ب و ٢٩ .

(١١) البيان المغرب ، ١١٧/٢ ، وترجمته ص ١٨٨ .

- (١٢) شرحه ، ١١٧/٢ ، وترجمته من ١٨٧-١٨٩ .
- (١٣) وكان اسمه الحارث بن حسدون الرقاعي . (المترجم) .
- (١٤) ابن عذارى : شرحه ، ٩٠٩/٢ ، وترجمته من ١٧٤-١٧٥ .
- (١٥) شرحه ، ١١٧/٢ ، وترجمته من ١٨٧-١٨٨ .
- (١٦) شرحه ، ١٢٢/٢ ، وترجمته من ١٩٧ ، وراجع أيضا نفس الجزء والمرجع من ١١٧ وترجمته من ١٨٩ .
- (١٧) نفس المرجع والجزء ، من ١١٨ ، وترجمته من ١٨٩ .
- (١٨) البيان المغرب ، ١١٧/٢ - ١٢٠ ، وترجمته من ١٨٧-١٩٢ ، وأما أبناء مطروح الثلاثة فهم حرب وعون وطالوت .
- (١٩) نفس المرجع والجزء ، من ١٢١ ، وترجمته من ١٩٢ - ١٩٤ ، وراجع أيضا ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٦٧/٢ ، والنويري ، من ٢١١ ، وينفرد هذا الكتاب الأخير بذكر حصار ابن حفصون لطليطلة .
- (٢٠) راجع مقدمة دوزي لطبعته لابن عذارى ، من ٤٤-٤٦ .
- (٢١) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٢ - ١٤ ، وهناك نسخة من تاريخ ابن حيان تتعلق بمعهد عبد الله طبعها المستشرق الإسباني الأستاذ ميلخر انتونيسا .



حواشى الفصل الثانى عشر

- (١) ابن القوطية : الاقتحاح ، ورقة ٢٧ ب .
- (٢) ابن حيان : المقتبين ، ورقة ٢٧ ب ، ١٢٨ .
- (٣) انظر مهمة هؤلاء الرسل السبعة فى *España Sagr.*, III, pp. 361-377. وقد كانت هذه المهمة فى وادى الفجة وذلك فى عصر الكتيبة الأولى ، راجع ايضا : *Lectionarium Compultensa* (Esp. Sag. III, 380-384).
- (٤) تقع البيرة فى الشمال الغربى من غرناطة على مقربة من المكان الذى يقوم به اليوم *Pinos Puente* راجع مقال تسيبولد عنها فى الدائرة الاسلامية .
- (٥) راجع ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة (مخطوط جيانجوس) ، ورقة ١٥ ، كذلك ينسب الى حنش الصنعانى هذا تأسيس المسجد الجامع فى سراسطة .
- (٦) *Dozy : Recherches...*, t. I, pp. 339-340.
- (٧) *Samson : Apology*, I, II, c. 4.
- (٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ورقة ١٥ .
- (٩) ابن الخطيب : نفس المرجع والورقة .
- (١٠) ليست لدينا اية تفصيلات عن هذه الحرب التى يتكلم عنها الشاعر الاسبانى العبلى والتى يشير اليها فى البيتين اللذين نقتبسهما فى المتن واللذين سيردان بعد قليل .
- (١١) واسمه عبد الرحمن من احمد المعروف بالعبلى لان اصله يرجع الى « عبل » القرية من *Guadix* راجع الانريسي ، ص ٢٥١ ، وترجمته ص ٢٤٦ ، وكذلك ياقوت : معجم البلدان ١١٤/٦ . (المترجم)
- (١٢) شرح لما ذكره المؤلف نقول ان اسمه الكامل هو سوار بن حمدون القيسى ، وهذا هو الاسم الذى سماه به ابن جدارى فى البيان المغرب ١٢٧/٢ ، وترجمته ، ص ١٩ . (المترجم)
- (١٣) هنيد هذا هو جد سوار الرابع وزعيم القيسيين ، وقد اقام فى *Maracena* فى اقليم *Albalat* الواقع شمالى غرناطة ، وكان احفاده لا يزالون يسكنونها ايضا انذاك .
- (١٤) هو جعد بن عبد الغافر كما جاء فى ابن الابار : الحلة السيرة ، ص ٨٠ (المترجم) .
- (١٥) هو سعيد بن سليمان بن جودى ، راجع عنه الضمى بقية الملتص ، رقم ٧٩٥ ، حاشية رقم ٢٩٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٨/٢-١٢٩ ، وترجمته ، ص ٢٢١ ، حاشية رقم المصادر المذكورة فى ابن الابار وابن الخطيب .

(١٦) فيما يتعلق بالحمراء راجع :

J. F. Simonet : Description del Reimo de Grenada, 1861, p. 30 et seq.

(١٧) انفراد ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٦/٢ ، وترجمته ، ص ٢٠٢ . بذكر

موت سوار .

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٨٣ .

(١٩) يستطيع المرء أن يجزم بأن البيت الأخير من هذه الأبيات تهب منه أنفاس شاعر

جوال ، لاسيما وأننا نلمس فيه رقة الفارس وروح التقدير التي عنده تجاه المرأة .

(٢٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٢٢ - ٢٣ ب ، ٤٠ ب - ٤٩ ، ٩٢ ب -

١٩٤ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ص ٨٠ - ٨٧ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، مادة

سوار مخطوط الاسكوريال ، أما فيما يتعلق بسعيد بن جودي فراجع :

Dozy : Notice: sur quelques manuscrits arabes, p. 258.

حيث يشير المؤلف الى أن مخطوط ابن حيان قد روجع كثيرا في تصحيح الأبيات

المطبوعة في كتابه Notices ، راجع أيضا البيان المغرب ، ٢ : ١٢٨ ، وترجمته

ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

حواشي الفصل الثالث عشر

(١) كل البيانات الواردة في هذا الفصل مستمدة من ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٤٩ ب - ٥٦ ب ، ١٦٣ - ١٦٥ ، وأخبار هذه الحوادث المشار إليها في المتن إنما موجزة شد الإيجاز عند غيره من المؤرخين العرب أو غير منكرة بالمرة .

(٢) راجع أخبار مجموعة ، ص ١٦ ، والمقري : نفح الطيب ، ٨١/١ ، ولقد كانت أشبيلية أيام الرومان أهم بلد في إسبانيا ، يشهد بذلك شعر Ausone أوزون حيث يقول :

*Iure mihi post has memorabere nomen Hiberum Hispalis aequoreum
quam praeerlabitur amnis submittit cui tota suos Hispania fasces.*

وفي بعض الطبقات توجد كلمة Emerita بدلا من Hispalis غير أن عبارة *aequoreus ... amnis* يقصد بها نهر الوادي الكبير قرب أشبيلية .

(٣) انظر الرازي ، الترجمة الإسبانية لمي : *Memorias de la Academia de la Historia, Vol. VII, p. 56.*

(٤) راجع ابن القوطية : الانتاح ، ورقة ١١٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) يتكرر هذا الاسم كثيرا في وثائق شمال إسبانيا ، انظر على سبيل المثال *España Sagrada, t. XXXIV, p. 469.*

(٦) راجع الرازي في ترجمته الإسبانية ، ص ٥٦ .

(٧) ابن القوطية : الانتاح ، ورقة ١٣ .

(٨) كان حصن بنى خلدون لا يزال موجودا حتى القرن الثالث عشر الميلادي ويسمى باسم سادته القديس لأنه طالما ورد ذكر « برج ابن خلدون » في وثائق القونس العاشر ، انظر في ذلك :

Espimosa : Historia de Sevilla, t. II, fol. 4, Col. I fol. Col 16, 2, fol. 17 Col I.

وهذه الوثيقة الأخيرة واردة أيضا في : *Memòrial Historico Espanola, I, p. 14.*

(٩) وهي bourgada الواقعة على بعد ميلين من الغرب من أشبيلية ، راجع الطبعة الثالثة من Dozy : *Recherches, I, p. 308 et suiv.* وقارن ذلك بما جاء في ابن الأبار ، تكملة الصلة ، ص ٢٤٥ ، رقم ٢٩٢ ، حاشية رقم ٣ وياقوت : معجم البلدان ، ٥٦/٤ ، وكذلك انظر أخطاء وتصويبات دي سلين في : *De Slane : Histoire des Berberes, t. II, p. 185.*

(١٠) يقصد السلطان عبد الله .

(١١) هو الاقليم الواقع بين أشبيلية ولبلة .

(١٢) انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٥٩ ب .

(١٣) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٦٣ ، أما التاريخ الوارد في ص ٥٥ ب لغير

صحيح .

(١٤) وكان يعرف بالريوشي .

حواشي الفصل الرابع عشر

(١) في الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب وردت عبارة « خمس مرات » بدلا من خمسين مرة الواردة في الاصل الفرنسي .

(٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٥٦ ب - ٥٩ ب .

(٣) وقد انتهى امره بالاستسلام للخليفة الناصر ومات في قرطبة ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٥ .

(٤) انفراد البيان المغرب ١٤٠/٢ وترجمته ص ٢٢٤ بذكره من بين الثوار في عهد عبد الله وقد قتله وصيفه Galindo جالندو .

(٥) هو جد تغالبة سرسطة ، اما فيما يتعلق بأولويات ثورته وتلمصيلها فراجع : Dozy : Recherches ..., I, p. 217.

انظر ايضا ابن عذارى : البيان المغرب ١٤٢/٢ ، وترجمته ص ٢٢٧ .

(٦) يسميه ابن عذارى في البيان المغرب ١٤٣/٢ ، وترجمته ص ٢٢٤ بعمرو بن مغيص البيروني

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٦ .

(٨) ابن حيان : المقتبس من تاريخ الاندلس ، ورقة ١١٧ ب - ١٩ ، ١١٠٠ .

(٩) ابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ - ١٣٦ .

(١٠) Dozy : Recherches, II, p. 277.

(١١) البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٦ .

(١٢) راجع مقال ليفي بروفنسال في دائرة المعارف الاسلامية مادة « شنت مريه » ، و المغرب ، والمراجع المذكورة هناك .

(١٣) كانت كنيسة كوربيو Corbeaw قائمة عند رأس جبل وتسمى اليوم برأس سانت لانسانت ، انظر الادريسي ، ص ١٧٣ ، ١٨٠ ، وترجمته ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ . انظر ايضا España Sagrada, t. VIII, pp. 187 et suiv.

(١٤) البيان المغرب ، ١٤١/٢ ، وترجمته ص ٢٢٦ .

(١٥) شرحه ، نفس المرجع والجزء ص ١٤٠ ، وترجمته ص ٢٢٢ .

(١٦) هو سعيد بن مستنة راجع البيان المغرب ، ١٢٧/٢ ، ١٤٠ ، وترجمته ص ٢٠٤ ، ٢٢٥ .

(١٧) البيان المغرب ، ١٣٦/٢ ، ١٤٠ ، وترجمته ص ٢٠٢ ، ٢٢٥ .

(١٨) نفس المرجع والجزء والصفحة ، وترجمته ص ٢٢٤ ، اما فيما يتعلق بحصن النتلون للقوى فراجع مواصد الاطلاع ١٥٥/٣ .

(١٩) شرحه ، ١٤٠/٢-١٤١ ، وترجمته من ٢٢٥ ، أما أسماؤهم فهي : المنذر وأبو كرامة هابل ، وعامر وعمر أبناء حرير بن هابل .

(٢٠) واسمه الكامل عبيد الله بن أمية ، راجع البيان المغرب ، ١٢٩/٢ ، وترجمته من ٢٢٢ .

(٢١) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٢٢ ، أما فيما يتعلق بالشاعر أبي القاسم عبيد بن محمد فراجع الضبي : بقية المقتبس ، من ٢٢٨-٢٢٨٧ ، وترجمته رقم ١١٣٥ .
(٢٢) ابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٤٥ ، والبيان المغرب ، ١٢٩/٢ ، وترجمته من ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٧ - ٢٣ ب .

(٢٤) ابن حبيب : تاريخ (مخطوط أكسفورد) ورقة ١٥٨ ، وقد أورد هذه العبارة ذاتها ابن عبد النعم الحيمري في الروض المعطار ، وراجع عن استنجة مقال تسيبولد في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢٥) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٢٩ ب - ٤٠ ج .

(٢٦) يقصد بذلك ابن حفصون .

(٢٧) راجع دائرة المعارف الاسلامية .

(٢٨) نص ابن عذارى في البيان المغرب ، ١٥٦/٢ ، وترجمته من ٢٥٢ على أن هذا المسمى إبراهيم بن خمير كان أحد قواد فرسان عبد الله .

(٢٩) يعني الجيش الذي فيه ابن حفصون والذي كان يقتزم أن يهاجم به ابن مسنقة .
(المترجم)

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣١) Samson : Apologet., c. 5, 9,

(٣٢) راجع الانديسي في الاصل العربي من 205. Description de l'Espagne, p. 205.
Dozy : Recherches, t. I, p. 316. وترجمته من ٢٥٣ ، انظر ايضا .

(٣٣) ابن حيان : المقتبس ورقة ١٧٠ ، ٧٧ ب .

(٣٤) شرحه ، ورقة ٦٩ ب .

(٣٥) شرحه ، ورقة ١٧١ .

(٣٦) نفس المرجع والورقة .

(٣٧) شرحه ، ورقة ١٧٨ .

(٣٨) شرحه ، ورقة ١٧٠ - ٧٠ ب ، ٧٧ ب .

(٣٩) شرحه ، ورقة ١٧٠ ، ١٧١ ، ٧٧ ب .

(٤٠) راجع اخبار مجموعة . من ١٥١ ، أما فيما يتعلق بتمثال العنزاء الذي كان منصوبا فوق باب قرطبة ، فانظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٩/٢ .

(٤١) تاريخ بن حبيب (مخطوط أوكسفورد) ص ١٥٧ ، [ولأسف لم نستطع في ترجمتنا العربية هذه الرجوع الى النص العربي ، ومن ثم فكل ما هو وارد هنا لابن حبيب مترجم عن الفرنسية - المترجم] ، وقد ألف هذا الكتاب أحد تلاميذ ابن حبيب واسمه ابن أبي الرقاق انظر في ذلك دوزي : *Dozy : Recherches*, t. I, pp. 29-30. لما فيما يتعلق بهذا الكتاب بالذات فانظر البحث المطول الوارد في :

F. Pon Boignes : *Essayo bibliografico sobre los historiadores y geographos arabigo Espagnoles* (Madrid, 1896), p. 32 et suiv.

• راجع دائرة المعارف الاسلامية ، مادة ابن حبيب .

(٤٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٧٧ ب

(٤٣) اخبار مجموعة ، ص ١٥١ ، والنويري ، ص ٢١٢ .

(٤٤) تاريخ ابن حبيب ، ورقة ١٥٧ .

(٤٥) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ١١٧/٢ ، وترجمته ص ١٨٨ .

(٤٦) تاريخ ابن حبيب ، ورقة ١٥٨ .

(٤٧) نفس المرجع ، ورقة ١٥٩ ، وتشير العبارة الاخيرة بوضوح الى ان مسيحي ابن حفصون كانوا شديدي الاحترام للبقعة التي كانت تقوم فيها كنيستهم من قبل احتراماً يمنع من تلطيخها بماء القتلى .

(٤٨) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٧٠ .

(٤٩) راجع اخبار مجموعة ، ص ١٥٠ .

(٥٠) فيما يتعلق باحترام الامير عيد الله للنسك ، راجع الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ص ١٦٩ .

(٥١) اورد هذه الابيات ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٦٠/٢ ، وترجمته ص ٢٥٧ .

(٥٢) ابن حيان : المقتبس . ورقة ١٨ ب ، ٧٠ ب .

(٥٣) ابن حيان : نفس المرجع ، ورقة ٧٠ ب - ٧١ .

(٥٤) يقصدون بذلك ابن حفصون .

(٥٥) ابن حيان ، المقتبس ، ورقة ٧١ ب .

حواشي الفصل الخامس عشر

(١) اى ، البقر ، بالاسبانية .

(٢) اننهور الذى يشير اليه المؤلف يسمى بنهر « الفوشكة » . (المترجم) .

(٣) نبعا للقاعدة التى اقرها مجمع نيقية فان الاحتفال بعيد الفصح لعام ٨٩١ م كان ينبغي ان يقام يوم ٤ ابريل ، لكن لما كان المؤرخون العرب يشيرون الى ان وقعة يلاى هذه حثت سنة ٢٧٨ هـ . وهى السنة التى يعادل اولها ١٥ ابريل ٨٩١ م فمن الأرجح ان يكون الاندلسيون قد احتفلوا بعيد فصحهم تبعا لنظام مواطنهم Migeius ميجيتيوس ، وهو النظام الذى اشار اليه البابا اديان الاول واستنكره فى خطاب بعث به الى المطران اجيل ، راجع نص هذا الخطاب فى مجموعة :
Espagna Sagrada, t. V, p. 532, c. 6.

(٤) القرآن الكريم . سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

(٥) البيانات الواردة بهذا الفصل مأخوذة عن ابن حبان : المقتبس ، ورقة ٧١ ب ١٨٠ ، ولولا هذا المؤرخ ما عرفت شيئا عن هذه الناحية ، هذا وقد نقل ابن عذارى فى البيان المغرب . ١٣٦/٢ . وترجمته من ٢٠٢ ، رواية شديدة الاختصار عن وقعة يلاى ، وقد نقلها عن كتاب « بهجة النفس » .



هواشي الفصل السادس عشر

- (١) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٧٧ .
- (٢) التويري : تاريخ الاندلس ، ص ٢١٢ .
- (٣) ابن حيان : شرحه ، ورقة ١٨٢ - ب .
- (٤) نفس المؤلف والمراجع - ورقة ٨٠ ، ١٨٢ .
- (٥) يذكر ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٩/٢ - وترجمته ، ص ٢٢١ . ان الامير عبد الله قبل في بيت يهودية كانت خليفة له .
- (٦) اللورد في اللغة يفتح الوار وسكون الراء هو الخيل الاحمر الضارب الى الصلابة . (مترجم)
- (٧) وردت هذه القصة في المقرئ : نفع الطيب ، ٣٦١/٢ كما وردت الاشارة الى هذا الشاعر في الضبي : بقية المقتبس رقم ١٣٨٦ ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .
- (٨) المقتبس : شرحه ، ورقة ١١٢ ، ١٢٢ - ب . ١٢٢ ، ٤٧ ، ب ، ١٤٨ ، ٩٢ ب وابن الخطيب ، ص ٢٥٩ .
- (٩) راجع أبيات ابن قلزم (هكذا يسميه الخشني في قضاة قرطبة ص ١٥٠-١٥١) في البيان المغرب ، ١٤٢/٢ ، وترجمته ، ص ٢٣٥ .
- (١٠) كان طالب بن مولود من « مورد » وكان قتله سنة ٢٨٧ هـ (= ٩٠٠ م) على يد ابن ابي عبده بشهادة ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٢/٢ وترجمته ص ٢٣٠ ، وكان - كما رأينا - حليف اعلاج اشبيلية .
- (١١) يقع حصن اقريط قرب شريش ، انظر في ذلك : Maldonado : Ilustraciones de la casa de Niebla (Memorial historico espanol, t. IX, p. 96).
- (١٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٥٩ ب ، - ١٦٢ ، ١٨٤ - ١٨٧ .
- (١٣) المقتبس ، ورقة ١٦٢ - ب .
- (١٤) راجع ابن عذارى ، البيان ، ١٨٢/٢ ، وترجمته ص ٢٠٥ .
- (١٥) نفس المرجع ، ١٢٨/٢ ، ١٢٩ ، وترجمته ص ٢٠٥-٢٠٧ ، وابن حيان المقتبس ، ورقة ٦٢ ب .
- (١٦) ابن حيان المقتبس ، ورقة ٩٠ ب .
- (١٧) نفس المؤلف والمراجع ، ورقة ٨٢ ب .

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٢/٢ . وترجمته ص ٢٢٠ أما فيما يتعلق بـ
Canteia la Reol المعروفة في العربية باسم قنيطه تراجع .
Simonet : Description del Reino de Grenata, p. 126.

(٢٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٩٥ ، ب .

(٢١) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٩٥ ، ب .

(٢٢) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٤ ، ب . ١٩٥ .

(٢٣) ابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ .

(٢٤) ابن القوطية : اقتتاح الاندلس ، ورقة ١٤٥ ، وابن حيان : المقتبس ، ورقة

٦٢ ، ب ، ١٦٢ : وابن عذارى : البيان للغرب ، ١٢٩/٢ ، وترجمته ، ص ٢٠٧ .

(٢٥) ابن حيان - شرحه ورقة ٩٨ ، ب ، ١٠٢ .

(٢٦) يقصد بذلك فجيل بن أبي مسلم .

(٢٧) انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠٢ ، ب .

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٩/٢ ، وترجمته ص ٢٠٧

(٢٩) لم يكن لاحد السلاطين ما كان لعبد الرحمن من الرزاء فقد بلغوا ذات مرة
ثلاثة عشر وزيرا انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠ ، كما ان ابن عذارى في
البيان المغرب ، ١٥٦/٢ ، وترجمته ص ٢٢١ . يذكر اسماء اربعة وزراء له .

(٣٠) ابن القوطية : الاقتتاح ، ورقة ٤٥ ، ب - ١٤٧ ، ولقد نقل ابن حيان في المقتبس
ورقة ١٩٦ وما بعدها هذه القصة مع تحوير بسيط ، كما أننا نراه يخطئ فيدرجها تحت
سنة ٢٨٧ هـ ، بدلا من ٢٨٩ هـ .

(٣١) ابن القوطية : الاقتتاح ، ورقة ١٤٧ .

(٣٢) فيما يتعلق بهذه الجارية ، انظر ابن الأبار : تكملة الصلة ، رقم ٢١١٤ ،
والمقري : نفع الطيب .. ٩٧/٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٢٢/٢ ، وترجمته
ص ٢١١ .

(٣٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣٤) اورد هذه الابيات صاحب البيان المغرب ،

(٣٥) اورد أبو عامر الساملي صاحب درر القلائد مقطوعة نسبها الى قمر ، انظر
لمقري : نفع الطيب ، ٩٧/٢ ، ويشتم من هذه المقطوعة روح التشويق الى وطنها ، غير
انه يتضح لنا ان تلك الابيات لرجل وليست لامرأة ، ونزيد على ما قاله سوزي فنورد هذه
الابيات التي تقول فيها سواء صحت نسبتي اليها أم لم تصح :

أما على بغدادها وعراقها وطلبائها والسمر في أحداقها

ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أملتها على أطرافها

متخفترات في النعيم كأنما — خلق الهوى العذرى من اخلاقها

نفس الغداء لها ، فإى محاسن فى الدهر تشرق من سنى اشراقها

(٣٦) فيما يتعلق بابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، انظر ما جاء عنه فى دائرة المعارف الاسلامية والمراجع الواردة هناك .

(٣٧) هو ابن عبد الله محمد بن يحيى القلقاط ، راجع عنه الضبى : بغية الملتبس ، رقم ٢١٤ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، والمقرئ : نفح الطيب ١٩٩/٢ .

(٣٨) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٨ ب - ١١ ، ٩٧ ب - ١٩٨ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١٣٠/٧ - ١٣٢ ، وترجمته ص ٢٠٧-٢١٢ .



حواشي الفصل السابع عشر

- (١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ورقة ١٤٧ •
 (٢) ابن القوطية : نفس المرجع والورقة ، وابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٤ ، ب ٩ •
 (٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٥/٢-١٤٦ ، وترجمته من ٢٢٤ •
 (٤) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، من ١٤٦ ، وترجمته من ٢٢٥ •
 (٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ١٤٨/٢ ، وترجمته من ٢٢٩ ، وكذلك الحاشية رقم ٢ الواردة به •
 (٦) نفس المؤلف والمرجع والجزء من ١٤٩ ، وترجمته من ٢٥١ •
 (٧) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٠٢ ب ، ١٠٤ - ب ، ١٠٥ ب ، ١٠٦ ب ، ١٠٧ ب •
 (٨) هو أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي •
 (٩) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٢ ب ، ١١٢ ، ٩٤ ب ، ١٩٥ ، وابن القوطية : الافتتاح ، ورقة ١٤٧ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ١٤٢/٢ وترجمته من ٢٢٩ ، ومخطوط ميا د في Dozy : Recherches, t. I, p. 220.
 (١٠) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١١٢ ب ، ٨٩ ب ، ٩٤ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ١٤٥/٢-١٤٧ ، وترجمته من ٢٢٢-٢٢٧ •
 (١١) ابن عذارى : شرحه ، ١٤٧/٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وترجمته من ٢٣٧ ، ٢٤٥ •
 (١٢) انظر الشعر الوارد في المقتبس ، ورقة ١١٥ •
 (١٣) قدم تشرشتين صورة موجزة عن حكم عبد الله بن محمد في دائرة المعارف الاسلاميه فراجعها هناك •
 (١٤) Dozy : Introduction à la Chronique d'Ibn Adhari, pp. 47-50.
 (١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٦٢/٢ ، وترجمته من ٢٦٠ •
 (١٦) كان مولده في رمضان سنة ٢٧٧ هـ (= يناير ٨٩١ م) ، راجع في ذلك ابن عذارى : البيان للمغرب ، ١٦٢/٢ •
 (١٧) البيان المغرب ، ١٦٢/٢-١٦٣ ، وترجمته من ٢٦٠-٢٦٢ • وراجع البيهقي اللذين اقتبسهما المقرئ في نفع الطيب ٥٠٨/٢ •
 (١٨) كان ذلك عام ٩١٠ م أو العام الذي يليه ، انظر البيان المغرب ، ١٥٢/٢ ، وترجمته من ٢٤٦ ، و ١٥٠/٢ ، وترجمته من ٢٤٢ ، وابن الأبار : الحلة السرياء ، من ٩٧ • أما التاريخ الذي ذكره البيان ١٣٢/٢ ، وترجمته من ٢١٢ وهو سنة ٢٨٨ هـ (= ٩٠١ م) فهو تاريخ مغلوط •

(١٩) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩١ ب •

(٢٠) حدث في أثناء حصار الوادي سنة ٨٩٦ م (= ٢٨٢ هـ) أن انضم كثير من فرسان السلطان ومشاته الى العدو رغبة منهم في الحصول على أجر أعلى ، انظر ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٨٨ ب ، كما أنه حدث في أثناء حصار « لورقة » أن هرب الكثيرون من جيش السلطان وجيش ديسم (انظر نفس المرجع ورقة ١٨٩) ، كما أنه جاء في سنة ٨٩٧ م اثنا عشر جنديا طنجيا من جنود ابن حفصون يعرضون أنفسهم ليكونوا في خدمة قائد السلطان (نفس المرجع ، ورقة ١٨٩) ، ثم أنه في السنة الأخيرة من حكم عبد الله هرب جميع جند طنجة الذين كانوا في خدمة هذا الأمير (وربما كان ذلك لعدم تسلمهم ما تأخر عن رواتبهم) وانضموا الى قوات ابن حفصون وحليفه سعيد بن هذيل من المقتلون ، ثم لم يلبث أن نشب عراك شديد بينهم وبين أصدقائهم الجدد في بويشتر ، وقتل جل البربر ، أما الذين بقوا بعد هذه النكبة فقد عادوا الى معسكر السلطان •

(٢١) ابن خلدون : العبر ، ١٣٦/٤ •

(٢٢) انظر الآيات الشعرية الواردة في ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١١٠٥ ، ب •

(٢٣) Vita Beatae Virginis Argenteae (Espagne Sagrada, t. X, c. 2, 3).
...

(٢٤) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ١٤٢/٢ ، وترجمته من ٢٢٩ •

(٢٥) انظر مقدمة البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٤ ، ٦٢ •

(٢٦) نفس المرجع ١١١/٢ ، وترجمته من ٢٥٩ •

(٢٧) ابن خلدون : العبر ١٣٧/٤ •

(٢٨) ابن عذاري : البيان المغرب ، ١٦٤/٢ - ١٦٥ ، وترجمته من ٢٦٤ - ٢٦٥ •

(٢٩) ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٨١ •

(٣٠) أخطأ جامع البيان المغرب حين زعم أن مالقة كانت عاصمة ولاية رية في تلك الحقبة ، انظر : Dozy : Recherches, t. I, pp. 319-320.

(٣١) هؤلاء السبعة - كما يذكرهم البيان المغرب - هم : عكاشة بن محصن صاحب وادي بني عبيد الله ، وسلمة بن هرام صاحب بميلة ، ومنذر بن حريز صاحب بفتريرة وأفلح بن عروس صاحب بكور ، وفحلون بن عبد الله صاحب سسانة •

(٣٢) البيان المغرب ، ١٦٦/٢ - ١٦٩ ، وترجمته من ٢٦٦ - ٢٧١ •

(٣٣) نفس المرجع والجزء ، من ١٣٣ - ١٣٤ ، من ١٦٩ ، وترجمته من ٢١٢ - ٢١٥ ،

٢٧٢

(٣٤) نفس المرجع والجزء ، من ١٣٤ - ١٣٥ ، وترجمته من ٢١٥ - ٢١٦ •

(٣٥) فيما يتعلق باستسلام طليطلة راجع البيان المغرب ، ٢١٧/٢ - ٢٢٤ ، وترجمته من ٢٣٤ - ٢٣٤ •

(٣٦) الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٨٤ ، وترجمته الاسبانية من ٢٢٧ - ٢٢٨ •

(٣٧) نفس المرجع ، من ١٨٧ - ١٨٨ ، وترجمته الاسبانية من ٢٢٣ - ٢٢٤ •

(٢٨) نفس المرجع ، ص ١٨٧-١٨٨ ، وترجمته ص ٢٧٤ ، أما فيما يتعلق بموقع « طرش » فراجع نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٣ حاشية رقم ١ .

(٢٩) أخبار مجموعة ، ص ١٦٢ ، وهناك عدة قصائد في هذا الكتاب وضعت في تلك المناسبة .

(٤٠) البيان المغرب ، ١٧١/٢ ، وترجمته ص ٢٧٤ .

(٤١) نفس المرجع والجزء ، ص ١٧٦ ، ٢٧٧ ، وترجمته ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٤١) شرحه ، ص ١٧٣ .

(٤٤) نفس المرجع والجزء ، ص ١٧٨ ، وترجمته ص ٢٨٤ ، ولم يكن موت ابن حفصون الا في سنة ٣٠٦ هـ (= ٩١٨ م) كما يشير الى ذلك ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/٢٧٤ ، وابن خلدون : العبر ، (طبعة بولاق) ١٣٥/٤ .

حواشي الفصل الثامن عشر

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب - ١٧٨/٢ ، وترجمته من ٢٨٤ ، هذا وقد كان استسلامه عقب سقوط حصنه القوي في أوبيدة UBEDA . بالبيرة .
- (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ١٨١/٢-١٨٢ ، وترجمته من ٢٩٠ .
- (٣) نفس المرجع والجزء ، من ١٨١-١٨٢ ، وترجمته من ٢٨٨-٢٨٩ .
- (٤) شرحه ، من ١٨١ ، وترجمته من ٢٨٨ .
- (٥) نفس المرجع والجزء من ١٨٩ ، وترجمته من ٢٩٨-٢٩٩ ، وابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ .
- (٦) راجع فيما أخذه عليه ابن عذارى كتابه البيان المغرب ، ج ٢ ، من ١٩٤ ، وترجمته من ٣٠٥ .
- (٧) نفس للمرجع والجزء ، من ٢٠٤ ، وترجمته من ٣١٧ ، حيث يسهب في تفاصيل موت سليمان .
- (٨) شرحه ، من ٢٠٦-٢٠٨ ، وترجمته من ٣١٩-٣٢٢ .
- Vita Beatae Virginis Argenteae (Espanna Sagrada), t. X, c. 4 (à la fin). (٩)
- (١٠) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٠٩/٢-٢١٠ ، وترجمته من ٣٢٣-٣٢٤ ، وابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٢٨١/٢ ، وابن خلدون ، ١٣٥/٤ .
- (١١) البيان المغرب ٢١٠/٢ ، وترجمته من ٣٢٤-٣٢٥ .
- (١٢) شرحه ، من ١٩١ ، وترجمته من ٣١٠ . وكان حصنا ابن مستنة يسميان - كما يقول البيان المغرب - « عليّة » و « ربرش » ، وحصنا بني الملّه ، « قزديره » و « أشبر جيزة » .
- (١٣) البيان المغرب ١٩٢/٢ ، ٢٠٤ ، وترجمته من ٣٠٢ ، ٣١٧ .
- (١٤) شرحه ، من ١٩٦ ، وترجمته من ٣٠٧ ، وهؤلاء الثوار هم : عبد الرحمن بن وضاح ، ويعقوب بن أبي خالد التويري ، وعامر بن أبي جوشن وغيرهم .
- (١٥) ابن القوطية : الافتتاح . ورقة ٤٧ ب .
- (١٦) ابن القوطية : نفس المرجع والورقة ، والبيان المغرب ١٧٥/٢ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٩٥ وترجمته من ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٣١٦ .
- (١٧) البيان المغرب ، ٢٠٤/٢ ، وترجمته من ٣١٦ .

(١٨) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٦ ب ، ١١٧ ، والبيان المغرب ، ٢/٢١٠-٢١١ ، وترجمته ص ٢٢٦ ، ويلاحظ أن هذا المؤرخ الأخير يسمى هذه الاسرة الثائرة بأسرة بنى الشيخ ، •

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١١ ، وترجمته ص ٢٢٧ ، وكانت هذه الحملة بقيادة أحمد بن الياس •

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١٤ - ٢١٥ ، وترجمته ص ٢٣١-٢٣٢ •
ومما يلاحظ أن هذا الخضوع كان في جمادى الثانية سنة ٢١٧ هـ ، أى فى يوليو ١٢٩ م •

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢١٥ وترجمته ص ٢٢٢-٢٢٣ •

(٢٢) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢١٤ ، ٢١٦-٢١٧ . وترجمته ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٢٣٤-٣٣٥ • هذا وقد استنزل ابن مروان وأقاربه من قرطبة ووكّل اليه قيادة الجند ، •

(٢٣) هذا هو رسمه الصحيح وليس Algodor راجع فى ذلك :
Dozy : Corrections, p. 57.

(٢٤) هكذا يرسمها ابن عذارى فى البيان لمغرب ، راجع ترجمته ص ٣٣٦ ، حاشية رقم ١

(٢٥) سنقصل فى الجزء التالى امر حملة راميرو الثانى هذه •

(٢٦) فيما يتعلق باستسلام طليطلة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١٧-٢٢٤ ، وترجمته ص ٢٤٤-٢٤٥ •

(٢٧) البيان المغرب : ٢/٢١٠ ، وترجمته ص ٣٢٥ •

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة العربية	٥
مقدمة المؤلف دوزى	١٧
كلمة المستشرق الفرنسى ليفى بزوفنسسال	٢١
كلمة شكر	٢٣
الفصل الاول	٢٥
اسبانيا وقت الفتح العربى	٢٧
الفصل الثانى	٤١
فتح العرب لاسبانيا	٤٣
الفصل الثالث	٥٥
يوم الحفرة ونتائج	٥٧
الفصل الرابع	٦٣
تولى الحكم الاول	٦٥
الفصل الخامس	٧٣
عهد عبد الرحمن بن الحكم	٧٥
الفصل السادس	٨٣
ايولوج وفلورا	٨٥
الفصل السابع	٩٣
صور التمرد على الحكم العربى فى الاندلس	٩٥
الفصل الثامن	١٠٥
تولى محمد الحكم	١٠٧
الفصل التاسع	١١٧
عهد الامير محمد بن عبد الرحمن	١١٩

١٢٩	• • • • •	الفصل العاشر	●
١٣١	• • • • •	حركات المقاومة السليبية فى اقليم رية	
١٣٩	• • • • •	الفصل الحادى عشر	●
١٤١	• • • • •	عمر بن حفصون يجمع السلطة فى يده	
١٤٩	• • • • •	الفصل الثانى عشر	●
١٥١	• • • • •	ظهور سرار وأعماله	
١٦٣	• • • • •	الفصل الثالث عشر	●
١٦٥	• • • • •	المولدون فى اشبيلية	
١٧٧	• • • • •	الفصل الرابع عشر	●
١٧٩	• • • • •	ولاية عبد الله الحكم	
١٩١	• • • • •	الفصل الخامس عشر	●
١٩٣	• • • • •	وقعة بلاى من أعمال قبره سنة ٢٧٨ هـ	
١٩٩	• • • • •	الفصل السادس عشر	●
٢٠١	• • • • •	بقية عهد عبد الله	
٢١٥	• • • • •	الفصل السابع عشر	●
٢١٧	• • • • •	عهد عبد الرحمن الثالث	
٢٢٩	• • • • •	الفصل الثامن عشر	●
٢٣١	• • • • •	عظيمة عبد الرحمن	
٢٣٧	• • • • •	حواشى الفصل الاول	●
٢٤١	• • • • •	حواشى الفصل الثانى	●
٢٤٥	• • • • •	حواشى الفصل الثالث	●
٢٤٨	• • • • •	حواشى الفصل الرابع	●
٢٥١	• • • • •	حواشى الفصل الخامس	●
٢٥٢	• • • • •	حواشى الفصل السادس	●
٢٥٥	• • • • •	حواشى الفصل السابع	●
٢٥٦	• • • • •	حواشى الفصل الثامن	●

٢٥٧	• • • • •	حواشى الفصل التاسع	●
٢٥٩	• • • • •	حواشى الفصل العاشر	●
٢٦١	• • • • •	حواشى الفصل الحادى عشر	●
٢٦٣	• • • • •	حواشى الفصل الثانى عشر	●
٢٦٥	• • • • •	حواشى الفصل الثالث عشر	●
٢٦٧	• • • • •	حواشى الفصل الرابع عشر	●
٢٦٩	• • • • •	حواشى الفصل الخامس عشر	●
٢٧٠	• • • • •	حواشى الفصل السادس عشر	●
٢٧٣	• • • • •	حواشى الفصل السابع عشر	●
٢٧٦	• • • • •	حواشى الفصل الثامن عشر	●

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٤٧٣٦

I.S.B.N 977-01-5637-X

هذا الكتاب يتضمن فترة غير قصيرة من تاريخ أسبانيا الإسلامية منذ أن دخلها العرب حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ومجي المرابطين، مع الاهتمام بوجه خاص بالملك الأسطوري الشاعر المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية. يجمع المستشرقون والمؤرخون على أن ظهور كتاب «تاريخ مسلمي أسبانيا» للعالم الهولندي البارز «ريشبرت دوزي» الذي تقوم دار بريل بطبعه، والذي أوشكت ثلاثة أرباع قرن تمضي على ظهوره - هو خطوة كبيرة للامام بفترة من تاريخ أسبانيا في العصور الوسطى، وكان تاريخ تلك الحقبة مقبورا في الظلام الدامس.

لم يكن الأمر قاصرا على أن يعث هذا الموضوع بأكمله، بل لأنه كان عملا تدعمه دعما قويا أسس علمية جادة كل الجهد، لأنه خلاصة العديد من مطالعات دوزي ذي القدرة على ما يذله من جهد انتزع الاعجاب به حتى اليوم، وذلك برحوعه في مادته إلى الأصول الأولى في الحواشي العربية واللاتينية والاسبانية، والتي كان معظمها لا يزال غير منشور ومطويا رهن المخطوطات المبعثرة في أوربة وكانت هذه الأصول قادرة على القاء شئ من النور على تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي في شبه جزيرة ايبيريا.